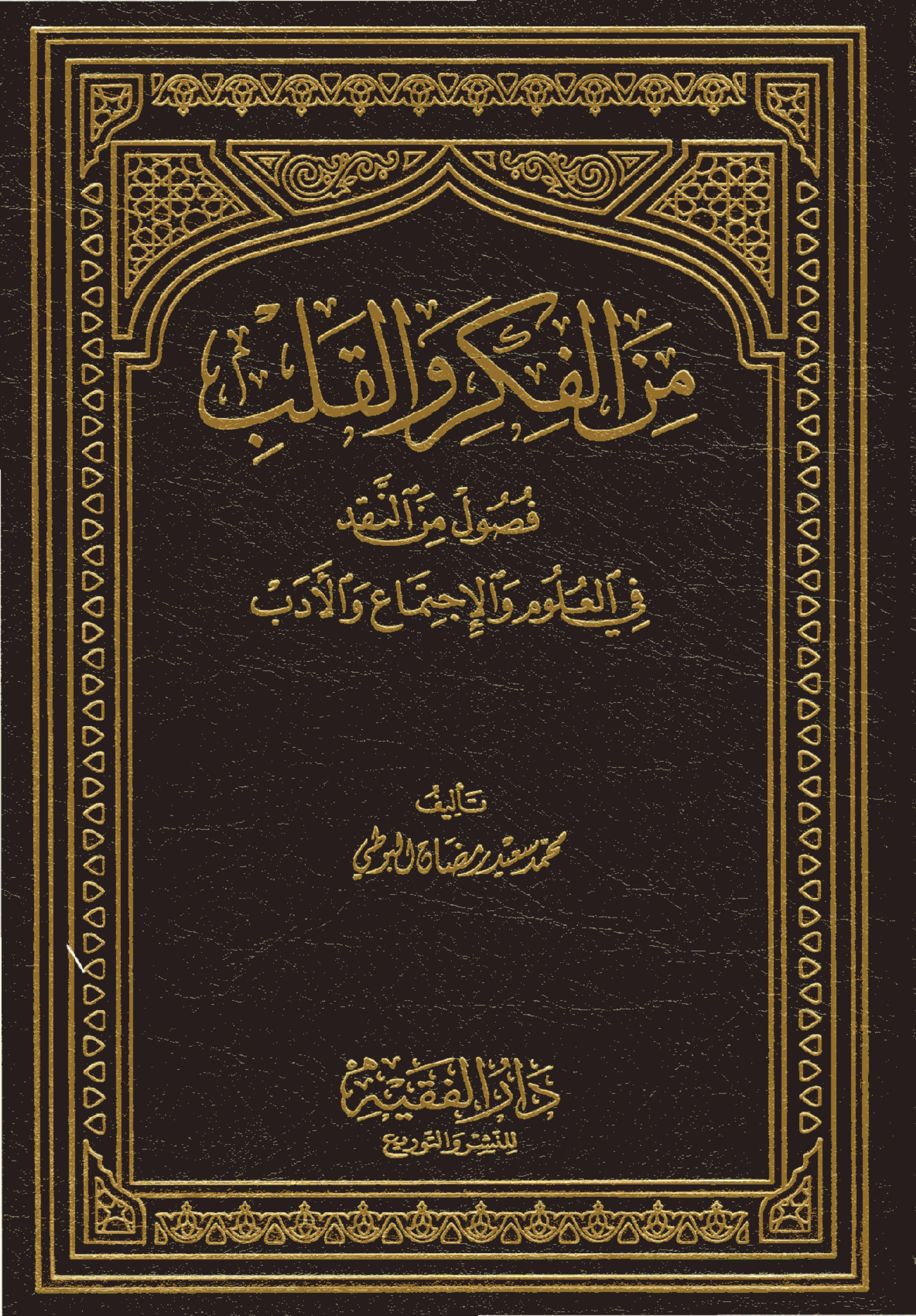

من الفكر والقلب
فصول من النقد
في العلوم والاجتماع والأدب
تأليف
محمد سعيد رمضان البوطي
دار الفقيه
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمدُ لله وَلِيِّ كُلِّ نِعمَة، مُلهِم الْخَيْر وَالسَّداد
والصَّلاةُ وَالسَّلامُ على سَيِّدِنَا مُحمَّد
وَعَلى آلهِ وَصَحْبِهِ أَجمعين.

كلمة مع آخر طبعة لهذا الكتاب

كُتب لهذا الكتاب من سعة الانتشار وكثرة الإقبال عليه ما لم أكن أتوقع.

غير أني، وقد رأيت هذا الذي لم أتوقعه، ازددت يقيناً بأن أهم ما يعوز المسلمين اليوم، في مجال التربية، هو التكامل الإنساني الذي يقتبس ميزانه من الفطرة الإنسانية السليمة.

وعندما يبرز هذا التكامل على صعيد الواقع الفردي والاجتماعي، منضبطاً بهذا الميزان، فلن يكون الإسلام شيئاً آخر سواه.

وكتابي هذا تجربة لإبراز هذا التكامل والدعوة إليه، ينطلق من القاعدة الاعتقادية... متَّجهاً إلى رعاية الحاجات الاجتماعية وسبل ترسيخ الحضارة.. ملتفتاً إلى حاجات القلب وحظوظه العاطفية.. على أن لا يطغى جانب منها على العقل وسلطانه، ولا ينقص أيّ منهما من أطراف المصالح الاجتماعية، ويفسد صلة ما بين الإنسان وصاحبه الإنسان.

وهل الإسلام إلّا هذا المنهج الإنساني المتكامل؟

كل ما آمله من الذين يقبلون على تجربة إبراز هذا التكامل الإنساني في هذا الكتاب، أن يقبلوا على الإسلام الذي هو دستور هذا التكامل

ومصدره، وأن يعودوا فيستأنسوا به إن كانوا يستوحشون منه، وأن يصطلحوا معه إن كانوا من قبلُ في خِصام معه.

ولسوف يسمو بهم الحال عندئذ إلى صعيد من النشوة الرائعة... نشوة الفؤاد بحب من أبدعه وأودع فيه أشواقه وأشجانه، وملأ جنبات الدنيا من حوله بالترانيم المترجمة لها، والأصداء المتجاوبة معها.

ذلكم هو الله، الذي أودع في العقول سرّ الإدراك، وهيج الأفئدة بلواعج الأشواق، وأقام من الدنيا عرشاً يتبوَّأه الإنسان مزهوّاً بكلا نعمتي عقله وقلبه على سائر مخلوقات الله.

فمنذا الذي لا يعشق مولاه الأوحد هذا، ممن مُتّع بتاج العقل، وأُكْرِمَ بتحفة الفؤاد، إلَّا محجوب عن ذاته، مسجون في قاع رعوناته؟

أسأل الله لي ولهم العافية من كل مكروه.

دمشق ٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ
٢٥ تشرين الأول ١٩٩٧م
محمَّد سعيد رَمَضان البُوطي

مقدمة الطَّبعة الثَّانية

عندما أقدمتُ على إخراج الطبعة الأولى لهذا الكتاب، كنتُ أتوقع من بعض القارئين نقداً على بعض أبحاثه، وهم الذين لم يتعوَّدوا أن يروا كتاباً إسلاميَّ الفكرة يضمُّ أبحاثاً وجدانية النزعة.

وكنتُ أتوقَّع في الوقت ذاته أن يلقى الكتاب رواجاً عند كثيرٍ من النَّاشئة الذين يحبُّون أن يفهموا الإسلام كما هو، في ظلال التفهّم لعواطفهم وأشواقهم الفطرية كما هي.

وكنتُ ـ ولا أزال ـ أتألم لحال هؤلاء الذين يُعْرِضون عن الإسلام وفهمه، لما رسخ في نفوسهم من تصور أنَّ من المستحيل فهمه والتحلِّي به إلَّا في نجوةٍ من هذه العواطف والأشواق، وأنَّ الدِّين الحقَّ إنما يعايش الجفوة الفكريَّة والقسوة النفسيَّة وفظاظة القلب والشعور..!

فأذكر أنني لبثتُ فترةً من الزمن أقلِّبُ الرأي بين الإمساك عن نشر الكتاب مسايرةً لرأي النَّاقدين واتقاءً لهجومهم، والإقدامِ على نشره رغبةً في إقبال هؤلاء المُعرضين وإصلاح فكرتهم الفاسدة عن الإسلام وحقيقته.

ثمَّ إنِّي عزمتُ على نشره، آملاً أن أجد في رواجه عند هؤلاء الشبَّان، ثمَّ في تبدُّل فكرتهم عن الإسلام، ثمَّ في الإقبال عليه تعلُّماً

وعملاً.. ما يكون عزاءً لي أمام نقد النَّاقدين، أو حجَّةً لي في مدافعة رأيهم.

وظهرت الطبعة الأولى بالتعاون مع مكتبة الفارابي بدمشق، فحدث ما كنتُ أتوقّع، ولكن وقع ما كنتُ أُؤَمِّلُ أيضاً:

تلقَّيتُ النّقد... وربَّما جاء مريراً في بعض الأحيان، فقد كان شيئاً غير مستساغ ـ عند بعض النَّاس ـ أن يُتَكَلَّم في الحبِّ والعواطف والأشجان، منْ قد عرفه النَّاسُ بكتاباته الإسلاميَّة المحافظة..!

ورأيتُ الإقبال ـ وربما كان شديداً ـ من أُولئك الذين سمعوا الكثير عن الإسلام، ولكنهم لم يفهموا منه إلَّا القليل.

لقد كان كتابي هذا ـ بحمد الله ـ بمثابة مفتاحٍ فتح أمامهم الكثير من مغاليق الإسلام، ثمَّ بمثابة طريقٍ معبَّدٍ مُريحٍ سلك بهم إلى معرفة كثيرٍ من حقائق هذا الدِّين العظيم على وجهه الثابت الصَّحيح، سواء في شؤون العقيدة أو الحكم أو المجتمع والأخلاق.

فلا جرم أن كانت سعادتي بإقبال هؤلاء أعظم من أسفي لنقد أولئك.

وما أُبالي، وقد رأيتُ بعيني الخير الذي تأمَّلته، بشيءٍ من النَّقد الذي توقّعتُه. وما أُبالي أن يرى القارىء في كتابي قصصاً عاطفيَّةً وأبحاثاً أدبيَّة وكتاباتٍ عن الحبّ، ما دام أنَّ شيئاً من ذلك لا يُعرض إلَّا على الوجه الذي يتقبَّله الدِّين الصَّحيح، وما دام أنَّه يأتي بعد ذلك عوناً لتحبيب الإسلام إلى شبابٍ طالما تمَّت محاولاتٌ لإبعادهم عنه وتكريههم به.

على أنَّ الإسلام هو دين الفطرة، فلا يعادي أيّ خصلةٍ إنسانيةٍ تهفو إليها النّفس بدافعٍ فطريٍّ سليم.

وهو دين الصدق، فلا يقرُّ أيَّ نفاقٍ يجعل صاحبه يتحلَّى بالنزاهة أو الملائكية ظاهراً، ويتَّصف بهذا الذي يتظاهر بالتنزُّه عنه باطناً..!

وقد كان أصحابُ رسول الله ﷺ ـ وهم خيرة هذه الأُمَّة ـ يعطون النَّاس مِن ظاهر ما يتَّصفون به مثل باطن ما يكمن في نفوسهم، ما دام شيءٌ من ذلك لا يخالف حكماً من أحكام الإسلام أو أدباً من آدابه.

وقد كانوا إذا تلاقوا أخذوا حظَّهم من الحديث والكلام المباح، وقالوا مثل ما يقوله النَّاس.. ولم يحبسوا عاطفةً تعتلجُ في صدورهم أو شعوراً تخفق به أفئدتهم.

وربما استعان أحدهم للتعبير عن مشاعره بأبياتٍ من الشعر فاهتزَّت لها رؤوس الآخرين تأثُّراً وطرباً.

واليوم، أُقَدِّم هذه الطبعة الثانية، دون أن أُقلِّب الرأي بين الإقدام والإحجام، كما فعلتُ في المرة الأولى.

وقد زدتُ في القسم الأدبي منه البحوث التالية:

١ ـ حاجة المكتبة الإسلاميَّة إلى الأدب الإسلامي.

٢ ـ أدباء... ولكن.

٣ ـ مناجاة قلبٍ كسير.

٤ ـ ليلة مع روائع إقبال.

كما تناولت واحداً من بحوثه الفكريَّة والعلميَّة بمزيد من التفصيل والبيان، وهو البحث الذي جاء تحت عنوان (**النظريَّة التي سُرقت من الغزالي**).

إذ كان قد كتب أحد النَّاشئة عليه نقداً نشره في بعض هذه الصحف اليوميَّة، زعم فيه أنَّ نظريَّة ردّ الفعل الشرطي لو كانت حقًّا مأخوذة من الإمام الغزالي، لكان الغزالي إذاً إمام المذهب المادّي، لأنَّ هذه النظرية تعتبر أساساً ودستوراً له!!..

كأنَّ استنباط فكرة الماديَّة التاريخيَّة من قانون ردّ الفعل الشرطي، أمرٌ حتميُّ الصّحة والقَبول، فلا بدَّ لكلِّ مؤمنٍ بهذا القانون أن يؤمن بالماديَّة التاريخيَّة أيضاً!!؟...

إنه تصوّر متهافت كما ترى، ولكن ربما كان سبب ذلك، الجهلُ بجذور هذه النظرية وأبعادها النفسيَّة والعقليَّة معاً، فاقتضاني الأمر أن أتوسَّع في عرض هذا البحث، بدءاً من فكرة الخير والشرّ والفرق بينهما.

أمَّا بقية أبحاث الكتاب فلم يطرأ عليه أيّ تغييرٍ إلَّا في نطاق التحسين والتنقيح.

والله المستعان أن يجعل سائر أعمالي خالصةً لوجهه، وأن يتغمَّدني بألطافه الخفيَّة، إنَّه نعم المولى ونعم المستعان.

الجمعة في ١٠ المحرم سنة ١٣٩٢هـ

في ٢٥ شباط سنة ١٩٧٢م

محمَّد سعيد رَمَضان البوطي

مقدّمة الطَّبعة الأولى

هذا الكتاب، كما يشير عنوانه، يتناولُ طائفتين من البحوث:

إحداهما فكريَّة وعلميَّة، والأخرى أدبيَّة واجتماعيَّة.

وكلاهما نقد وتحليل لجملةٍ من المفاهيم المختلفة الشائعة في مجتمعنا.

والكثير من هذه الفصول، كنتُ نشرته في مجلَّاتٍ وجرائد مختلفة في أزمنةٍ متفاوتة، والبعض منه جديد ينشر لأوّل مرَّة. والكل (تقريباً) لا يخرج عن كونه أجوبة عن أسئلة تلقيتُها كتابةً أو شفاهاً في شتى المسائل العلميَّة والأدبيَّة والاجتماعية.

ولي رأي أردده في كثيرٍ من المناسبات، فيما يتعلَّق بمعالجة مشكلات المجتمع المختلفة، وهو **أنَّ المجتمع، في مقوّماته وشروط صلاحه، وحدةٌ كاملة لا تتجزَّأ ولا تتناثر.**

فالعقيدة التي ينبغي أن ترسخ في كيانه، والأشواق التي لا بدَّ أن تشيع في وجدانه، والحدود التي يجب أن ينضبط بها سلوكه ونشاطه ـ كلّ ذلك إنما يمثّل شبكةً واحدةً متماسكة الأطراف والحلقات، فأيما تقلّب أو اهتزازٍ ظهر في حلقةٍ من هذه الحلقات، لا بدَّ أن يبعث تيَّاراً مثل ذلك التقلّب أو الاهتزازات في مجموع الحلقات الأخرى..!

إنَّ أيَّ معالجةٍ لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع من العقيدة عن الكون والحياة، لا بدَّ أن تترك أثراً بيّناً في نوازعه العاطفيَّة وقيمِه السُّلوكيَّة المختلفة، كما أنَّ أيَّ معالجةٍ لهذه القيم أو تلك النوازع، لا بدَّ أن تترك أثراً كبيراً في تأمّلاته الفكريَّة والاعتقاديَّة.

من أجل ذلك، لا بدَّ لكلّ من يتصدَّى لمحاولة الإصلاح الاجتماعي بقلمه وفكره، أن يُعنى بإصلاح شأن هذه الشبكة الاجتماعيَّة في مجموعها. أي إنني لا أتصوَّر أنَّ أيّ ثمرةٍ ذات شأنٍ تأتي على يد كاتبٍ يحصر نفسه وقلمه في دائرة العقيدة وحدها، أو الفقه والتشريع وحده، أو الآداب والقيم الوجدانيَّة وحدها.

ذلك أنَّه في الوقت الذي ينهمك فيه هذا الكاتب بتحضير القيم الاعتقاديَّة وتقديمها لمجتمعه، يكون آخرون قد وضعوا بينه وبينها السدود أو العقبات بما استخرجوه من القيم الأخلاقية أو السُّلوكية أو الأدبيَّة التي لا تتّفق مع ثمرة جهوده بحالٍ من الأحوال.

وعندئذ إمَّا أن يتغلب الجانب القويّ منهما على الضعيف، أو يتقاوم الجانبان، ويصبح المجتمع حلبةً لازدواج متصارعٍ وتناقضٍ مهلك كما هو شأن مجتمعاتنا اليوم..!

تأمَّلْ في حال العالِم الدِّيني، تجدْه (إلَّا نادراً) منهمكاً في دائرته الصغيرة وحدها، لا يحاول أن يربط بين ما هو فيه وأيّ حلقةٍ اجتماعيّةٍ أُخرى بالانسجام والتنسيق، وربما أنكر على نفسه وعلى الآخرين أن ينشغلوا بغير هذه الدائرة التي حصر نفسه فيها، كالقضايا الاجتماعيَّة والثقافيَّة ومختلف فنون الآداب، فما هو من هذه البحوث والمسائل في شيء ولا يعنيه أمرها بحال.

ثمَّ تأمَّلْ في حال واحدٍ من أُولئك الذين تفرَّغوا للأدب. . . تجدْه منهمكاً هو الآخر في دائرته الصّغيرة، قد جعل منها دنيا مستقلّة ترعاه وتشمله، يستوحي منها عقيدته وشرعته وأخلاقه، لا يحاول أن يلتفت عمّا هو فيه ليؤلّف بينه وبين الجوانب الفرديَّة والاجتماعيَّة الأخرى بأيّ خيطٍ من التنسيق والانسجام، فهو يعيش ساعات عمره كما تهوى نفسه متحلّلاً من كلّ رابطةٍ وقيد، ثمَّ لا يكتفي بذلك حتى يجعل من الأدب الذي تفرَّغ له أعظم داعٍ إلى هذا السبيل. . !

والغريب، أنَّ النَّاس أو معظمهم، لا ينكرون على الرجل الأوَّل سلبيّته وانعزاله، بحجّة أن ذلك شأنه وتلك هي وظيفته، فهو رجل دين! . . كما أنهم لا ينكرون على هذا الرجل الثاني أيضاً تحلُّله وسوءه لأنَّ ذلك شأنه واختصاصه، فهو رجلٌ أديب!! . . .

والمجتمع؟! . . المجتمع الذي يعيش تحت سلطان هذا وذاك، ممّن يأخذ وبمن يسترشد؟! . .

ليس للمجتمع المسكين مناص في هذا الحال، من أن ينقلب فيصبح، كما قلنا، حلبةً للصراع ومزرعةً للتناقض والازدواج، **وما هلك مجتمع في الدنيا بداءٍ مثل هذا الداء! . .**

وانظر. . تجد هذه الصُّورة المؤلمة متمثلةً بأجلى مظهر، في كثير من أساتذة المدارس أمام طلَّابهم الذين يتلقّون منهم الدروس والعلم. يقف أمامهم أستاذ التربية الدِّينيَّة، فيحدّثهم عمّا بين يديه من علوم الدِّين والشريعة دون أن يخرج عن دائرة اختصاصه التي حصر نفسه فيها، ويقدّمُ لهم المبادىء الاعتقادية والسُّلوكيَّة طبقاً لذلك.

فإذا ما أنهى درسه وترك طلَّابه، أقبل إليهم من بعده أستاذ العلوم. .

وراح يحدثهم عمّا حصر هو الآخر نفسه فيه دون أن يخرج عن دائرة اختصاصه ليربط أبحاثه العلميَّة في أذهان الطلّاب بما سبق أن تلقوه من مبادىء العقيدة الإسلاميَّة أو قيمه الخلقيَّة والسُّلوكيَّة، بل هو ـ في الغالب ـ يقف أمامهم، ليقوّض ما سبق أن بناه زميله من قبله من المبادىء والأفكار، إذ كان هذا الأستاذ بعيداً كلّ البعد عن الثقافة الإسلاميَّة وأُسسها ودعائمها العلميَّة والعقليَّة طوال أيّام دراسته للعلوم التي جاء مختصًّا بها ومدرِّساً لها.

ويُقبل على التلاميذ بعد هذا وذاك أُستاذ الأدب أو اللغة العربيَّة، حيث يقف هذا الآخر لينشر بينهم أفكاراً واتجاهاتٍ اعتقاديَّة وخلقيَّة أخرى، تحدوه في الدعوة إليها والتحبب بها نشوة أدبيَّة عارمة، سرعان ما تنقلب بين جوانح التلاميذ المراهقين إلى رغبةٍ شهوانيَّة ثائرة!.

وهكذا دواليك.. كلٌّ يدعو إلى بضاعته التي يعتزّ بها دون سواها، وكلّ واحدةٍ منها حرب على الأخرى أو احتقار لها وازدراءٌ لها. والتلاميذ المثبتون على مقاعدهم ليسوا أكثر من حقلٍ لتجاربها المتخاصمة. فبأيّ نفسيّةٍ وعقليّةٍ يُنشَّأُ هؤلاء المساكين؟ وكيف يُرجى منهم الاستقرار الفكري والاندماج الإيجابي مع ما يُرادون عليه من خدمةٍ لأوطانهم أو دينهم أو مجتمعهم؟!..

إنَّ هذه الظاهرة الرّهيبة، ليس لها من دواءٍ إلّا أن يعلم المصلحون والكتّاب والمفكّرون، أنَّ الإصلاح الاجتماعي لا يمكن أن يقوم على تغذية جانبٍ واحدٍ من الجوانب الاجتماعيَّة دون سواه. ومهما توزَّعت الاختصاصات والقدرات فينبغي أن يكون ثمَّة قدر مشترك كافٍ من الثقافة الاجتماعيَّة المثلى تتمثّل بوضوحٍ ونُضجٍ في أذهان كلٍّ من يتصدّون للحركة

الإصلاحيَّة في المجتمع، سواء أكانوا علماء في الدِّين، أم علماء طبيعيِّين، أم كتَّاباً وأُدباء، أم فلاسفةً ومربّين، على أن يكون هذا القدر المشترك مرجعاً يلتقون عليه ومقياساً لقَبول أو رفض أيّ نظريّةٍ أو دعوة.

وعندما يقتنع القارىء بهذه الحقيقة التي أوضحتُها بإيجاز، لن يَعجب لدى استعراض الأبحاث التي عالجتها في هذا الكتاب، ولن يجد في اختلافها وتنوّعها أيَّ مثارٍ للنّقد، لأنها جميعاً تنتمي إلى أرومةٍ فكريةٍ واحدة، يجب أن تظلَّ ماثلةً في أذهاننا، ويجب أن تكون ـ كما قلت ـ مرجعاً لجميع أبحاثنا.

إنَّ منطلقي الوحيد فيما أكتب، هو الفطرة الإسلاميَّة الصافية.

والفطرة الإسلاميَّة ليست إلَّا استجابةً رائعةً سليمة لكلّ حاجات الفطرة الإنسانيَّة.

والإنسان ذو عقلٍ يحتاج إلى يقينٍ علميّ راسخ يملأ فراغه، وهو ذو أشواق وعواطف تحتاج إلى غذاءٍ سليمٍ يستجيب لها ويمدّها بالتنمية والتصعيد.

وهو ذو علاقات متنوّعة مستمرّة مع بني جنسه، فهو بحاجة إلى قانونٍ ينظّم له سير هذه العلاقات ويضمن بقاءها على أحسن وجه.

وما نسَّقَ هذه الحاجات إلى بعضها أدقَّ تنسيق، وما قدَّمها سليمةً ناضجةً إلى الإنسان على أحسن وجه، إلَّا الإسلامُ الذي هو شرعة الله عزّ وجلّ لهذه الصّفوة المختارة من مخلوقاته.

ولن تستطيع معالجة جانبٍ من هذه الجوانب الإنسانيَّة إلَّا إذا وضعتَ في اعتبارك الجوانب الأخرى ودرستَها الدراسة الموضوعيَّة الكافية،

كما أوضحناه باختصار، ومع ذلك فإنَّ أبحاثي هذه ليست أكثرَ من تجربة. . تجربة إنسانٍ شارك في ثقافة عصره، وعاش يؤمِّل ـ جاهداً ـ مرضاة ربه. . تجربة يقدّم فيها إلى القرّاء بعضاً من ثمرات عقله وفكره ووجدانه. . .

الدكتور محمَّد سعيد رَمَضان البُوطي

القسم الأوّلُ

علوم وإسلاميات

أسئلة حول أنباءِ العلوم ورحلات الفضاء

هناك طائفة من الأسئلة التقليديَّة، تظهر على ألسنة كثيرٍ من النَّاس في مناسباتٍ موسميَّة متكرّرة، ومهما تبعَتْها الأجوبة الواضحة والقاطعة، فإنها تعود مرَّةً أخرى إلى الظهور كلما عادت مناسباتها أو استدارتْ مواسمُها!.. حتى لكأنها من لوازم تلك المناسبات وخصائصها الضروريَّة، أو كأنها لا تتطلَّع إلى جوابٍ يقطعُ دابرها، وإنما تبتغي آذاناً تُنصت إليها.

من ذلك، ما تسمعه على ألسنة كثيرٍ من النَّاس، كلّما نقلت الأنباء خبر رحلة جديدة إلى الفضاء، أو محاولة جديدة للهبوط على سطح القمر، من الأسئلة المختلفة حسب اختلاف حال السائل وثقافته وميوله ومزاجه:

هل يجوز شرعاً الصّعود إلى القمر.. هل يمكن أن يتمّ ذلك مع ما فيه من التحدّي للخالق..؟[١].

كيف يفتح الله آفاق هذه الاكتشافات والانتصارات العلميَّة أمام الكافرين ويحرم من ذلك عباده المسلمين..؟

أيَّة ضرورةٍ تدعونا إلى أن نظلّ عاكفين على القديم الذي تكاثف بيننا وبينه زمن يبلغ مداه أربعة عشر قرناً، وإن الإنسان العصري يأخذ أهبته اليوم للصّعود إلى القمر..؟

---

(١) يلاحظ أن هذا المقال كُتب عام ١٩٦٥.

أليست ارتباطات الدِّين هي المعوِّق الذي يصدُّنا عن اللَّحاق بركب هذه العلوم؟

* * *

إنها أسئلة تقليديَّة كما قلتُ، توحي بها إلى الفكر مواسمها ومناسباتها، ويثير الاهتمامَ بها جهلٌ بالدِّين، أو انخفاضٌ في المستوى الثقافي، أو حقدٌ دفين على الإسلام.

ومهما يكن فلا بدَّ من الإجابة عنها، ومهما تناسى السائلون الجواب فلا مناص من تكرير الإجابة.

وإذا كانت الأسئلة كما قلتُ أسئلةً تقليديَّةً، فلتكن أجوبتها أيضاً ـ إذا شئت ـ تقليديَّةً معها، ليعتدل المزاج ويتكافأ القصدان، ولئلَّا يصبح العقل ضحيَّة ظلامٍ لا نور فيه.

* * *

١ ـ لقد شاء الخالق جلّ جلاله أن يضع صفحة هذا الكون أمامنا للنّظر والاعتبار، ولقد شاء أن لا يحجب شيئاً من حقائقه عنَّا إلَّا بحجاب الجهل، وأن لا تكون ثمة وسيلة بيد الإنسان لإزاحة هذا الحجاب إلَّا وسيلة العقل، وأن تكون هِبة العقل شاملةً لكلّ أفراد النَّاس، بقدر الشّمول ذاته المتعلّق بتكليفهم بمعرفة الخالق.

فكلٌ من استعمل عقله للنَّظر والتأمُّل والبحث، كان حريًّا به أن يطّلع على دقائق الكون ويكتشف أعاجيبه، ملحداً كان أم مؤمناً.

وكلّ من جعل عقله في غطاءٍ عن النَّظر والتأمُّل والبحث، كان حريًّا به أن يتخلّف عن معرفة الكثير من دقائق الكون وأعاجيبه مؤمناً كان أم ملحداً.

فإمكان الاطِّلاع على خفايا الكون وتسخيره للمزيد من الطَّاقات الإنسانيَّة، ليس إلَّا فرصةً متكافئةً وضعها الله بين أيدي المؤمنين والجاحدين به على السّواء، وذلك عندما نصب أمامهم جميعاً سُلَّم العقل والعلم إلى كلّ خافيةٍ من خفايا الكون الذي يحيط بهم.

ولكنَّ الفرق بين المؤمن والكافر إنما يتشعَّب من وراء ذلك، أي إنَّ كليهما يستطيع أن يخوض بعقله في مجاهل الكون ويكتشف منه حقيقة إثر أُخرى، إلَّا أنَّ الكافر يظلّ بعد ذلك يخوض ويبحث دون أن ينتبه إلى أنَّه يقف من سائر علومه التي وصل إليها أمام دليلٍ عظيمٍ على حقيقةٍ ذات أهمِّيَّة قصوى، أو هو ـ في أحسن الأحوال ـ قد يتنبّه إلى ذلك، ولكنَّه يقف عند حدّ العلم بأنَّ لهذا الكون العجيب مكوّناً عظيماً، ثمَّ يمضي دون أن يلوي على شيء، ودون أن يتساءل عن هويَّة نفسه ومسؤوليّتها تجاه هذا المكوِّن العظيم الذي آمن به.

أمَّا المؤمن، فإنَّه يجتاز حدود الدائرة التي وصل إليها مع زميله، ويسير من وراءِ ذلك أشواطاً أُخرى، إنَّه يتساءل مع نفسه:

لقد مررتُ في سياحتي الفكريَّة والعلميَّة هذه بظواهر وحقائق كثيرةٍ في غمار هذا الوجود، لكلّ منها وظيفة دقيقة قد عكف عليها لا ينحرف عنها ولا يتجاوزها ولا يستأخر عنها.

لقد رأيتُ الشمسَ ووظيفتها، وتأمَّلتُ القمرَ وسيرَه، والأرض وعملها، والماء وآثاره، والبهائمَ وخدمتها، والتراب وفائدته، والبرد وفعله، والحرارة ودأبها، لكلٍّ منها وظيفة دقيقة أقامه الخالق عليها، **فما هي وظيفتي أنا أيها الإنسان؟!.. أم عساني أن أكون أنا الوحيد في هذه الخليقة لا شأن له ولا وظيفة؟**

الإنسان: هذا المخلوق الذي جهّزه الله ـ من دون المخلوقات كلّها ـ بهذه القوَّة العجيبة التي اسمها العقل، **أهو وحده الكائن الذي لا وظيفة له!.. أفيعقل ذلك أو يتصوَّر؟..**

يعطي الله كلّ شيء في الوجود خلقه، ويحمِّله مسؤوليَّته، وينيط به عمله، ثم يقول لأخطر مخلوقٍ فيه ألا وهو الإنسان: أمَّا أنت، فلك أن تأكل وتشرب وتنكح وتلهو كما تشاء، وليس عليك من تبعةٍ بعد ذلك، وليس لك من وظيفةٍ، بل اقتل واظلمْ واستلبْ وانشرْ ما شئت من الدَّمار في الأرض، فليس عليك من حسابٍ ولا عقاب، أو اعدل وأحسن واعبدْ واستقم وافعلْ ما شئتَ من أفانين الصَّلاح، فليس لك من أجر ولا جزاء!!..

أيُّ عقلٍ هذا الذي يقرّ خيالاً مستحيلاً كهذا الخيال؟!.

ويمضي المؤمن في تأمُّله: إذاً لا بدَّ لي أنا الآخر من وظيفة، ولا بدَّ أنها أخطر الوظائف الكونيَّة كلّها، تماماً كمقدار خطورة الإنسان بالنسبة لسائر المكوّنات الأخرى.

ولكن ما هي تلك الوظيفة، ومن أين لي أن أعلمها أو أتبيّنها؟

وهنا يصغي بسمعه إلى الدَّهر، فيتبيَّن من خلاله صوت الرُّسل والأنبياء، ويسمع خطاب الله تعالى إلى الصَّفوة المختارة من خلقه، وعندئذٍ يعلم أنَّه إنما خُلِق ليقيم نفسه على سلوكٍ يجعله مظهراً لألوهيَّة الله في الأرض، ويجد نفسه أمام منهجٍ كاملٍ لهذا السُّلوك، فإذا علم هذا أدرك أنَّه أمام أخطر الاكتشافات التي مرَّ بها كلّها، وألقى عصاه هناك ليشمّر عن ساعد الجدّ في أداء مهمّته والقيام بوظيفته والتزام أوامر الله في عمارة الأرض وسياستها.

إذاً فليست الاكتشافات العلميَّة وقفاً على المؤمنين، بل هي سبيل ميسور للمؤمنين والكافرين على السّواء، وفرق ما بينهم هو هذا الذي ذكرناه فقط، وهو فرق يأتي من وراءِ هذه المكاسب كلّها، اللَّهُمَّ إلَّا أنَّ المؤمن عندما يكتشف وظيفته في الكون ويهتدي إلى المنهج الإلهي الذي اختطّه الله له على هذه الأرض، لا يستطيع أن يتصرَّف إلَّا ضمن سلطان هذا المنهج نفسه لا ينحرف عنه يَمنةً ولا يَسرةً، وهو لذلك لا يستطيع أن يسوّغ لنفسه، مثلاً، إنفاق آلاف الملايين من الدولارات على رحلةٍ فضائيّةٍ كاشفة، وإنَّ مجاعةً كبرى تجتاح قارّةً كالهند يتطوّح فيها الإنسان صريعاً بيد الجوع والمرض!..

٢ ـ ولست أدري ما الذي يجعل بعض البسطاء من النَّاس يتوهَّمون بعد هذا، حرمةَ اختراق شيءٍ من أجواءِ الفضاء ابتغاء مزيدٍ من الكشف العلمي أو يتخيَّلون حرمةَ الوصول إلى كوكبٍ من الكواكب التي من حولنا كالقمر وغيره، وما الذي يفعله الإنسان عندما يوفق إلى ذلك سوى أنَّه قد قرأ سطراً جديداً من كتاب هذا الكون العظيم؟.. وماذا في أن يقرأ الإنسان سطراً جديداً من صفحة الكون؟!..

لعلَّهم إنما يتصوَّرون أنَّ القمر معلّق بالسماءِ الثالثة أو الرَّابعة، كما هو شائع عند كثيرٍ من عوامّ النَّاس، فيتخيَّلون أنَّ على مَن يرتاد الفضاء في رحلةٍ إلى القمر أن يخترق ثلاث أو أربع سماوات، وهو ما لا يتأتّى للإنسان فعله.

ولكنَّ الحقيقة أنَّ الكواكب كلّها منثورة ما بين الأرض والسَّماء الدُّنيا، فالسَّموات جميعها قائمة من خلف هذه الكواكب، أَمَا تر إلى قوله تعالى وهو يوضح هذا إيضاحاً لا لَبس فيه ولا احتمال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

﴿الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، والقمر أقرب الكواكب كلّها إلى الأرض، بل إنها لتكاد تكون لصيقةً بالأرض بالنسبة لبُعد الأرض من الكواكب النَّائية الأخرى.

وإنَّما شاع ذلك الوهم بين عوامّ النَّاس بسبب ما شاع عندهم من تلك الأكذوبة الكبرى التي تُعزى إلى عبد الله بن عبَّاس باسم معراج ابن عبّاس، وهو كتاب يحوي طائفةً من الخرافات والأكاذيب تلقّفها خبيثٌ مُتَقَصِّد من بطون الإسرائيليّات وزاد عليها ما صاغه خيالُه ووهمه، ثمَّ ألصقها مجتمعةً بعبد الله بن عبَّاس، وقد علم كلُّ ذي نظرٍ من سواد النَّاس أنَّ ابن عبّاس لم يدوِّن كتاباً في المعراج، وليس عنده في ذلك غير الذي رواه أصحاب الصّحاح والسُّنن!..

ولكنَّ في النَّاس من يقلبون باطل هذا الكتاب إلى حقّ، أملاً منهم في أن يقلبوا بذلك حقَّ هذا الدِّين إلى باطل، وإن كانوا يعلمون أن ذلك باطل لا شبهة في بطلانه، وأنَّ هذا حقّ لا شكّ في ثبوته.

من هؤلاء النَّاس الدكتور لويس عوض، الذي لا يزال مشرفاً على القسم الأدبي في صحيفة الأهرام القاهريَّة، لقد كتب ذات يومٍ يتحدَّث عن معراج ابن عباسٍ في إطراءٍ وإشادة وتنويهٍ بأهميَّته وخطورته، وكأنّه أثر أدبي أو علمي فذّ، وراح يقارن بينه وبين الكوميديا الإلهية لدانتي، وأخذ يصولُ ويجول في حديثٍ متكلّفٍ مقصود، على عرض صحيفة الأهرام وطولها، كلّ ذلك ليثير الأنظار إلى هذه الخرافة ويخرجها أمام النَّاس على أنها حقّ لا شبهة فيه، فُتخبت له قلوبهم، ثمَّ ينتبهوا إلى مخالفته للواقع واليقيني من الحقائق المحسوسة، فينفجر في بناء العقيدة الإسلاميَّة الراسخة في نفوسهم انفجار القنبلة الموقوتة، علَّه يحدث فيها دماراً أو زلزالاً.

ولويس عوض أوّل من يعلم أنَّ هذا الكتاب الذي لا تتداوله إلّا أيدي الجهلة من عوامِّ النَّاس كتاب مكذوب على ابن عبّاس ليس من سندٍ يربطه به ولا روايةٍ ترتقي إليه، ولكنَّ المهمَّة التي أخذ على عاتقه تحقيقها على صفحات الأهرام تفرض عليه أن يعلم ما يجهل، ويجهل ما يعلم.

* * *

٣ ـ على أنَّ أمر هؤلاءِ الذين يتوهَّمون هذه الأوهام الخرافيَّة عن القمر والسموات، يسيرٌ جدّاً بالنسبة إلى أُناسٍ آخرين..

يطلع عليك واحدٌ من هؤلاءِ الآخرين، فيحمِّلك تبعة ما تعانيه هذه الأُمَّة من التأخّر العلمي الذي حال بينها وبين أن تشقَّ هي الأخرى طريقها إلى كوكبٍ من كواكب الفضاءِ، فلولا هذا الذي لا يزال المسلمون عاكفين عليه من قديمهم الذي لا يتحوَّلون عنه، لما حال بينهم وبين أن يقفزوا قفزةً علميّةً كبرى إلى الفضاء أيّ مانع!..

وتسرّح النظر في هذا الذي جاء ثائراً يقول لك هذا الكلام، وتبحث عن شأنه وعمله واختصاصه في المجتمع، فتطالعك ترجمته، شابّاً إنما يتقن من حياته أوّل ما يتقن، الطريقة المثلى لتبديد الوقت في النوادي والقهاوي وملتقى الأحباب والسمّار وسهر الليل ونوم النّهار، مواصلاً خلال كل ذلك نفخ دخائنه في الجوّ، ومطلقاً سراح فكره وخياله في الحديث عن كلّ ما قد هبّ ويهبّ من حوله، عناه الأمر أو لم يعنه.

كثيرٌ هم، هؤلاءِ الذين يتخذون من ساعات العمر مضغةً يلوكونها بين أشداقهم في جلساتٍ أرائكيَّةٍ حالمة، ثمَّ يثورون فجأةً عندما يسمعون نبأ تجربةٍ فضائيّةٍ جديدة.. يثورون ليتمطّوا في مجالسهم ويديروا في أفواههم هذا الكلام الذي لا يتقنون غيره!..

ولستُ أدري ما الذي يحبسهم ـ وقد تحرَّروا هم من قيود الإسلام وجموده ـ عن الانطلاق في السبيل العلمي المفتوح أمامهم ليلحقوا بالركب وليعلِّموا المسلمين كيف يكون العلم والانطلاق!.

لستُ أدري ما الذي أفاده عكوفهم على مطارح اللهو وزوايا النوادي، وانصرافهم إلى سهر الليل ونوم النّهار، في سبيل المشاريع العلميَّة وإنمائها، في الوقت الذي أضرّ بها الضرر البليغ عكوف المسلمين على حقائق دينهم وإسلامهم؟!.

وهل بقي في إسلام المسلمين اليوم ما يمكن أن ينهض بهم إلى تحقيق أيّ فائدةٍ أو عونٍ، حتى يقطع السبيل أو يغلق الطريق أمام مَن آثر أن يتحرَّر من سلطانه ويبتعد عن منهاجه؟!..

ألم ينته الإسلام إلى النهاية التي أرادها له خصومه المستعمرون منذ آمادٍ طويلة، فطوي عن النَّاس سلطانه، وخمدت في القلوب جذوتُه، وانحسر عن المجتمع أثره، فلم يعد يخشى الغربُ ما ظلَّ يخشاه زمناً طويلاً من خطورة أمره، وأهميَّة شأنه، وعجيب قوّته، وانتهى من تاريخه العظيم كلّه إلى أن انحصر في ركعاتٍ يسيرةٍ تُركع في المساجد، وأصوات تُسمع فوق المآذن، وقرآن يُتلى لتُجمَّل به المجالس؟

أَبَعْدَ أن أصبح إسلامُ المسلمين سجيناً عن الانطلاق والعمل، بعيداً عن القيادة والدّفع، يُحمَّل تبعة تخلّف الأُمَّة عن ركب العلم والحضارة والاختراع، وقد كان بالأمس القريب يمتّع أهله بما لم يشهده التاريخ من فنون العلم والمعرفة والاختراع، ويُفيض منها على الأمم الأخرى التي من حولهم، يوم أن كانت الكلمة إليه، وكان الحكم حكمه، وكان المسلمون جنده!..

سلوا عنّا صفحات التاريخ كلِّها، سلوا أمجاد هذه الأُمَّة بأسرها، سلوا عزَّها الضَّائع ونجمها الآفل: أيُّ يومٍ هذا الذي مَرَّ بتاريخ المسلمين ولم يبعث الإسلام فيهم أروعَ أسباب الاندفاع إلى العلم والحضارة وشتّى نواحي المعرفة والاكتشاف؟!

سلوا عنّا أُولئك الذين ظلَّ الحقدُ على إسلامنا يفري قلوبَهم، سلوا كلمات تشرشل ومذكرات اللورد لويد واعترافات لورانس: هل حسب العدوُّ حساب أيّ قوّةٍ لهذه الأُمَّة إلَّا في إسلامِهَا؟ هل اجتمعت كلمةُ الخصوم المتدابرين على شيءٍ كما اجتمعت على الكيد للإسلام والعمل على شلّ حركته وإنهاءِ قوّته؟

كلّ علماء التاريخ يعلمون أنَّ إسلام المسلمين لو ظلَّ حيًّا في نفوسهم كما كان، يعمل عمله في حياتهم كما هو شأنه، لاستمرّوا صاعدين في نهضتهم العلميَّة المعروفة، ولسجّل التاريخ للمخترعات والاكتشافات العلميَّة ميلاداً أسبق من ميلادها الزّمني المعروف اليوم بما لا يقلّ عن قرنين من الدّهر.

واليوم. . أعيدوا إلى الإسلام حياته التي كانت في النفوسِ، ومكّنوه من أن يعود فيعمل عمله في قيادة المجتمع، واجعلوا إليه حلّ كلِّ مشكلةٍ وعويصة. ثمَّ حمّلوه تبعةَ كلّ تخلُّفٍ وقصور، إن وجدتم عند ذلك أيَّ تخلفٍ أو قصور.



ما هي حقيقة الخَير والشَّرّ؟
النظرية التي سُرِقت من الغزالي

منذ أقدم العصور الإنسانيَّة، يرجع النَّاس في الحكم على مختلف شؤونهم وتصرُّفاتهم، إلى ميزانٍ لا يتبدَّل مع الزَّمن هو: الخير والشَّرّ.

فلقد ظلَّت كلمتهم مجتمعة على هذا الميزان، خلال متفرّقات العصور والقرون كلّها، وعلى طول السُّلَّم الذي تدرَّجت فيه المعارف والعلوم والحضارات صُعُداً.

ولكن ما هو المضمون الذي تلاقت عليه أيدي هؤلاءِ الذين سلفوا مع القرون، عندما تلاقت مجتمعةً على كلمة الشرّ والخير؟

لم تقع أيديهم مجتمعةً على أيِّ مضمونٍ لهاتين الكلمتين، على الرَّغم مِن طول تعلُّقهم بهما وإقامة أنواعٍ كثيرةٍ من السُّلوك عليهما. وإنما تبعثرت أيديهم من وراءِ شعار الخير والشَّرّ، على أمشاجٍ وأخلاطٍ من التصرُّفات المتعارضة والمتناقضة، تتناسخ مع الزمن، ويقوم البعض منها مقام الآخر، كلَّما تطاول أمد هذه الرحلة الإنسانيَّة في فجاج الحياة.

فقد فسَّر الشرَّ والخيرَ قومٌ على ضوءِ ما يدلُّ عليه العُرف. وإنما ينبثق العرف على الغالب، من عادةٍ يسنُّها سلطانٌ قاهر، أو جهل من شأنه أن يولِّد خرافاتٍ باطلة، أو هوى لا يوجد من يوثقه بوثاق العقل. فكان خنق

الطِّفل البريء الضَّعيف البنية في دنٍّ من النبيذ خيراً ذاتيًّا عند قدماءِ الرُّومان، وكان وأد الآباء بناتهم خيراً ذاتيًّا عند بعض قبائل العرب في العصر الجاهلي.

وفسّرها آخرون بقيمة السعادة الشخصيَّة، واعتبروا ذلك حقيقةً ذاتيّةً لكلٍّ مِن الشَّرِّ والخير. وكان فيمن ذهب هذا المذهب قديماً الفيلسوف اليونانيّ أبيقور (٢٣٠ق.م). وكان فيمن نادى به حديثاً الفيلسوف المعروف «هوبز»، ولا جرم أنَّ نزعة الأنانيَّة هي ذروة ما تقوم عليه حقيقة كلٍّ من الشرّ والخير عند هؤلاء.

وقدّرها آخرون بالمنفعة العامَّة لكلّ النوع البشريّ، وكان فيمن استراح لهذا التفسير كلّ من استوارت ميل وبنتام، إلَّا أنَّ المنفعة العامَّة لا يمكنها أن تتّسع لأصناف النَّاس وأشتاتهم دون أن تنقلب ضرراً بالنسبة لجماعات منهم، فبقي هذا التقدير نظريًّا فقط، وأضحت كلمة «المنفعة العامَّة» خيالاً مجرّداً.

* * *

وليس السِّرُّ في اختلاف هؤلاءِ، ضلالهم عن المضمون الذاتي لكلٍّ مِن هاتين الكلمتين، ولكن السِّرَّ في ذلك هو توهُّمُ أنَّ له مضموناً وحقيقةً، مع أنَّه ليس إلَّا مرآةً صافيةً لا يثبت فيها إلَّا صورة ما قد يقابلها. فكان من ذلك أن وصفت كلّ أُمّةٍ حقيقة الشرّ والخير حسبما تراه منعكساً فوق صفحة كلّ منهما، دون أن تعلم أنها إنما تصف بذلك نوازعها وطبيعتها التي انعكست على صفحة كلٍّ منهما.

فالفطرة التي تميل بصاحبها إلى كلّ ما هو لذيذ، هي المحور الذي تُدار عليه كلمتا الشرّ والخير. وعندما تتبدَّل الطبائع، أو تتفاوت قيم

الملاذّ، تتبدَّل تبعاً لذلك الحقيقةُ المزعومةُ لكلٍّ من الخير والشرّ، مع أنَّ الحقيقة ليست هي التي اختلفت، بل هي ليست موجودةً أصلاً، وإنما الذي اختلف هو الطبع أو العلاقة أو العرف.

وعبثاً، حاول المفكِّر البريطاني «بنتام» أن يُقيم أساساً ثابتاً من المنفعة الذاتيَّة، ليقيم عليه صرح القوانين، وليجعله أصلاً راسخاً للشرائع. فقد بحث كثيراً... وفكّر طويلاً... وحاول متكلّفاً... ثمَّ عاد يقول:

«ولقد قلَّ الطَّعن على أصل المنفعة فضلاً عن أنَّه صار معتبراً كأنّه الرابط الجامع بين الأخلاق والسياسة، إلَّا أنَّ شبه الإجماع هذا ظاهريّ فقط. فإنَّ النَّاس اختلفوا اختلافاً كثيراً في فهم المنفعة وتقديرها حقّ قدرها، ولذلك تشعّبت مقدّماتهم وتباعدت نتائجهم»[1].

* * *

ولقد كان على علماءِ الشريعة الإسلاميَّة أن يبحثوا مطوَّلاً في هذا الموضوع، وذلك عندما راحوا يتأمّلون الأساس الذي قامت عليه أحكام الشريعة الإسلاميّة على اختلافها.

فمن المعروف أنَّ هذه الأحكام إنما قامتْ ضماناً لتحقيق مصالح الإنسان، من حيث هو فرد، ومن حيث هو عضو في المجتمع.

ولكن ما هي المصالح؟..

عند هذا السُّؤال تلاقى علماءُ الشريعة الإسلاميَّة وعلماءُ الفلسفة والأخلاق، إلَّا أنَّ علماء الشريعة، شقّوا إلى معرفة الجواب على هذا

(١) «أصول الشرائع»، ١/ ١٧.

السُّؤال طريقاً أسلم، وانتهوا من وراءِ بحثٍ علميّ دقيقٍ إلى أنَّ سمة الحسن والقبح في الأشياءِ اعتباريّ، وإن شئتَ قلتَ: إنهم انتهوا إلى أنَّ الأشياء بحدّ ذاتها لا تتضمّن حقيقة ما يُسمّى بشرٍّ أو خيرٍ.

قالوا: إنَّ «العلاقة» أو الهيئة التركيبية للأشياء مع بعضها، هي التي توصف بكونها خيراً أو شرًّا، فإذا قُطعت العلاقة، أو زالت الهيئة التركيبية، عادت جزئيات الأشياء خاليةً عن أيّ مضمونٍ ذاتيّ لها ممّا يُقال إنَّه الخير أو الشَّرّ، كالقِطَع المتناثرة لآلةٍ محركة أو طابعة، لا توصف الواحدة منها بأيّ فائدةٍ أو نفع، ما دامت أنكاثاً مجتزأة عن أخواتها. فإذا ما تضامَّت إلى بعضها، وشملتها جميعاً الهيئة التركيبيَّة المطلوبة، تجلّى فيها عندئذٍ معنى الحسن أو الخير، منبثقاً من العلاقة القائمة بين تلك القطع المتآلِفة.

أي فالصدق، مثلاً، ليس خيراً من حيث إنه الكلام المطابق للواقع، ولكنَّه خير من حيث إنه ينسجم مع الوضع الاجتماعي القائم على مقتضيات التعاون والثقة بين أعضائه، ومن حيث إنه يؤدّي من أجل ذلك إلى نتائج معيّنة تنسجم مع ذلك الوضع الاجتماعي.

والعدل، ليس هو التوازن الذي ينشده النَّاس ويرونه ذروة الحق والخير، إلَّا لانسجامه مع واقع الحياة الإنسانية المرتبطة بحقوقٍ يتطلبّها الطبع البشري، وواجبات يفتقر إليها المجتمع الإنساني، فحاجة الإنسان إلى المال هي التي تجعل استلابه ظلماً. وحاجة المجتمع إلى ضبط المسؤوليَّة وتنظيم الأسرة هي التي جعلت استلاب الأعراض عدواناً. ولولا هذه الحاجة المستكنة في الطبع أو الآتية من الوضع، لكان العدل أن لا يرتبط الإنسان بعدل.

فإن وجد حافز من وراءِ هذه العلاقات التي مثّلنا لها، إلى عملٍ أو سلوكٍ ما، فإنما هو الطبع المجرّد. والطبع ـ كما تعلم ـ صفة تتلبس الإنسان وليست مضموناً ذاتيًا لشيءٍ ممّا يُسمَّى بالخير أو الشرّ.

ولقد اهتمّ علماء الشريعة الإسلاميَّة، وأقصد منهم بصورةٍ خاصَّة، أُولئك الذين عُنوا بأصول الشريعة الإسلاميَّة ـ بتجلية هذه الحقيقة وإقامة براهين كثيرة عليها، حتى غدت مسألة «**الحسن والقبح**» عنواناً معروفاً لأهمّ بحثٍ من أبحاث **أُصول الدِّين**: «علم الكلام»، **وأصول الفقه**: «منهج البحث والاستنباط في الشريعة الإسلاميَّة».

ولعلَّ أبرع مَن اهتمَّ بكشف هذه الحقيقة وتفنَّن في بيانها وسَوق الأدلَّة عليها، حجَّة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله. فهو الذي سار في طريق الكشف عنها إلى أن وصل إلى القانون النفسي المعروف والمسمَّى **بالإقران، أو الإشراط، أو ردّ الفعل الشرطي**. وهو القانون الذي لا تزال الكثرة من النَّاس تربطه باسم العالم الرّوسي «بافلوف»[١]، وتحسب أنَّه أول مكتشفٍ له ومتنبّه إليه.

---

(١) هو العالِم الفيزيولوجي المعروف، عاش ما بين عام ١٨٤٩ و١٩٣٦ ويتخذ أنصار المادية التاريخية من نظريته التي عُرف بها دستوراً وأساساً لعقيدتهم.
وقد يظن بعض السطحيِّين أنَّه اتخذ منها سلماً لترسيخ الفكرة المادية وتحصينها بسور من الحقائق السايكلوجية، مع أن الرجل كان غافلاً عن هذا كله، ولم يكن أكثر من طبيب قادته تجاربه العلمية إلى اكتشاف هذا القانون الذي اكتشفه من قبله كثير من العلماء في مقدمتهم الإمام الغزالي. وليس بين هذا القانون وفكرة المادية التاريخية إلَّا حبال من التخيل والأوهام.

أوضح الغزالي أنَّ النفس الإنسانيَّة مجبولةٌ على الانسياق وراء الأوهام. وقرَّر أنَّ الأوهام من شأنها أن تعطي كثيراً من الأشياء صفاتٍ غير حقيقيَّة، وذلك بسبب طول اقترانها بما أثبت العقل اتصافه بتلك الصِّفات. وقد سمّى هذه الحالة: (**سبق الوهم إلى العكس**)، وأوضح كيف أنَّ «النفس متى توهَّمت شيئاً، خدمتها الأعضاءُ والأعصاب والقوى التي فيها، فتحركت إلى الجهة المتخيّلة المطلوبة، حتى إذا توهَّمت شيئاً طيِّب المذاق تحلَّبت الأشداق، وانتهضت القوَّة المهيجة فيَّاضةً باللعاب من معادنه»[١].

وأنت ترى أنَّ هذه هي النظريَّة ذاتها التي ضجَّ لها العالم واهتمَّ بها علماءُ النفس عندما قام (بافلوف) بتجربته المشهورة على الكلاب الجائعة، ثمَّ استنتج منها هذا القانون الذي يحسبه بُسطاء النَّاس كشفاً عظيماً من (بافلوف) لم يُسْبَقْ إليه!![٢].

---

(١) «تهافت الفلاسفة»، ص٢٣٥، وانظر: «المستصفى» له أيضاً، ١/ ٥٩.

(٢) في نهاية العام الماضي ١٩٧١، تقدَّم صديقنا الدكتور فائز الحاج ببحث هام يتعلَّق بدراسة هذه النظرية والكشف عن جذورها الأولى، جعل عنوانه: «نظرية سبق الوهم إلى العكس عند الغزالي، مع مقارنة علمية لآراء الفلاسفة المتقدمين والنظريات الإشراطية الاقترانية الحديثة»، واختاره موضوعاً لنَيل شهادة الدكتوراه التي حاز عليها بمرتبة الشرف الأولى.
وقد انتهى في بحثه هذا إلى أن إمام هذه النظرية بحق إنما هو حجة الإسلام الإمام الغزالي، وأنه قد سبق ذلك بافلوف وغيره من علماء الإشراط.
ونحن نأمل أن يُطرح هذا الكتاب الجليل قريباً في المكتبات، وأن يتاح للفكر العلمي النزيه أن يطَّلع عليه.

ثمَّ يبني الغزالي على هذا القانون ما أطال في بيانه علماءُ الشريعة الإسلاميَّة من أنَّ صفة الحسن والقبح، أو الخير والشَّرّ، في الأشياءِ أمرٌ اعتباري. إذ هي لم تأتِ إلَّا لاقترانها بما يميل إليه الطبع، أو بما يتناسق مع وضع التركيب الاجتماعي. فقد أورثها طول هذا الاقتران معنى الحسن أو القبح فيما تتوهَّمه النفس، حتى وإن انفكَّت العلاقة بينهما بعد ذلك، إذ إنها قد رسخت في النفس فهي ماثلة فيها.

إنَّ إنقاذ الغريق مثلاً، من أبرز ما قد يتصوَّره الإنسان عملاً حسناً في ذاته، بقطع النظر عن أيّ ملابسةٍ أو حالةٍ تقترن به. وقد لا يخامر الشكّ إنساناً بأنَّ مَن يُقدم على هذا العمل الإنساني العظيم، إنما ينطلق إليه لما فيه من هذا الحسن أو الخير الذاتي وحده دون التفاتٍ إلى أيّ غرضٍ آخر.

غير أنَّ هذا الإقدام في حقيقته إنما جاء نتيجة دافع آخر اقترن بعمليَّة الإنقاذ هذه، وقد يكون الدافع واضحاً في بعض الأحيان وقد يكون خفيًّا، وقد يخفى جداً حتى لا تكاد تشعر به النفس. المهمّ أنَّ الدافع الحقيقيَّ هو شيءٌ اقترن بعمليَّة الإنقاذ، وليس الإنقاذ ذاته.

ويحلّل الغزالي هذه الدوافع، بدءاً بما قد يكون ظاهراً منها، ثمَّ الأخفى، فالأخفى، فيقول: «إنَّ الدافع إلى إنقاذ الغريق قد يكون الرّغبة في اكتساب الثناء من النَّاس على فعله، وذلك عندما يكون الأمر على مشهدٍ ومرأى منهم، فإن فُرض أنَّه لا يوجد أحد ثمة يمكنه أن يرى عمله هذا، فإنَّ الباعث هو ما قد يتوقّعه من تسامع النَّاس فيما بعد بذلك بالطرق المحتملة، فإن فرضت الواقعة بحالةٍ يستحيل معها أن يسمع أحد من النَّاس بالأمر، فإنَّ الدافع حينئذٍ هو سبق الوهم إلى العكس.

فإنَّ المنقذ قد ألف دائماً اقتران مثل هذا العمل بالإكبار والثناءِ، فتوهّم لطول هذا الإلف أنَّ الثناءَ مقرون به في كلِّ حال، ومن شأن النفس أن تنقاد لهذا الوهم وأن تتأثَّر به دون أيِّ تأمُّلٍ أو اختيار.

ولهذا الدافع الوهمي صورة أُخرى توضح الجانب السَّلبيَّ في الأمر، فإنَّ المنقذ من شأنه، وهو يرى حالة الرجل المشرف على الغرق، أن يقدِّر نفسه في تلك المحنة، ويقدِّر غيره معرضاً عنه وعن إنقاذه، فيستقبحه منه، فيعود ويقدِّر ذلك الاستقباح من المشرف على الهلاك في حقّ نفسه، فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهّم بما يقدم عليه من عمليَّة الإنقاذ. وقد لا يشعر الإنسان بهذه المراحل من التصوُّر والتقدير، ولكنَّها تطوف بوهمه بسرعةٍ خاطفة، ثمَّ تسيطر على نفسه وتنطبع بالتأثير على سائر أعضائه[1].

* * *

والسُّؤال الآن هو:

فإذا كان الأمر هكذا، فما هو الأساس الذي تقوم عليه أحكام الشريعة الإسلاميَّة من حلالٍ وحرامٍ، وفرضٍ ومندوبٍ ومكروه؟

والجواب:

أنَّ الأحكام الشرعيَّة ليست مبنيّةً على طبائع في الأشياءِ ذاتها، وإنما هي استجابة لأمرين اثنين:

أولهما: نوازع الفطرة الإنسانيَّة الأصيلة.

(١) انظر: «المستصفى» للغزالي، ١/ ٥٩ و٦٠.

ثانيهما: العلاقات الإنسانيَّة المتكوّنة من قيام المجتمع الإنساني على الهيئة التركيبيَّة التي نراه عليها.

ولمَّا كانت الفطرة الإنسانيَّة من صنع خالق الإنسان، وكان هذا الائتلاف في كينونة المجتمع الإنساني، بتنظيمه وتقديره، فقد كان هذا الخالق المقدِّر أعلم بالمصلحة التي تغذِّي فطرة الإنسان ولا تفسدها، وأعلم بالشريعة التي تقيم وضعه الاجتماعي على أقوم أساس وأسلم طريق، ثمَّ تحرسه من المخاطر التي تجعل ائتلافه أنكاثاً، وتحيل تركيبه التعاوني إلى تفاعل واحتكاك عدواني.

وتقريراً لهذه الحقيقة يقول الله عزَّ وجلَّ، متحدّثاً عن موقع الشريعة الإسلاميَّة في جملتها من واقع الإنسان: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ويزيد ذلك إيضاحاً بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة].

وتتجلَّى هذه الحقيقة الكبرى بلونٍ آخر تتراءى فيه الرّهبة مع جلالِ الرّبوبيَّة، وذلك في الحديث القُدسيّ الذي يرويه مسلم: «**إنِّي خلقتُ عبادي حُنفاءَ كلّهم، ثمَّ أتتْهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللْتُ لهم، وأَمرتْهُم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً**».

ولمَّا علم أئمَّة الشريعة الإسلاميَّة هذه الحقيقة، عكفوا على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، يتلمَّسون فيهما أُسس المصالح والمفاسد ليقفوا من وراءِ

ذلك على ميزان كلّ من الخير والشرّ في مختلف التصرّفات والأفعال، وذلك طبقاً لما تقتضيه الفطرة السليمة في الإنسان، ولما يستوجبه الحفاظ على المجتمع الإنساني في أفضل أحواله.

وقد دلّ استقراءُ النّصوص في كلّ من الكتاب والسنّة على أنَّ جميع المصالح الإنسانيَّة في هذه الحياة، تتجمّع في كلّيَّات خمس، وأنَّ هذه الكلّيَّات ينبغي أن تترتّب إلى جانب بعضها في سلّم يبدأ بالأهمّ فما دونه على هذا الشكل:

الدِّين، الحياة، العقل، النَّسل، المال.

والسَّبيل إلى تحقيق كلِّ مصلحةٍ من هذه المصالح الكبرى يتدرَّج في ثلاث مراحل، تبدأ بالأهمّ فما دونه، وهي: **الضَّروريَّات، فالحاجيَّات، فالتحسينيَّات.**

ولو بعثت فكركَ أوزاعاً في أقطار الأرض كلّها، وبين الأمم جميعها لما وقفتَ على مصلحةٍ تخرج عن حدود هذه الكلّيَّات. ولو أمعنتَ النظر في أدقّ القوانين انسجاماً وحفاظاً على المصالح المختلفة عند تعارضها، لما رأيت من سبيلٍ يضمن تآلفها دون أن تتخبَّط ببعضها غير هذا السبيل.

وليس مبعث هذا كلّه أعيان هذه المصالح، وإنما هو علاقة الانسجام بينها وبين التركيب الاجتماعي الذي أقام الله تعالى حياة الإنسان عليه في هذه الحياة الدنيا.

وما دامت الفطرة الإنسانيَّة الأصيلة لا تختلف في جوهرها بين عصرٍ وآخر وأُمَّةٍ وأُخرى، وما دام الوضع الاجتماعي الذي ينبثق عن هذه الفطرة وضعاً ثابتاً في جوهره تبعاً لثبات هذه الفطرة، فإنَّ الكلّيَّات المقامة على أساسها ينبغي أن يستمرَّ اعتبارُها وترسخ جذورُها، ما دام الإنسان إنساناً،

وما دامت الدُّنيا التي من حوله هي هذه الدّنيا، وما دامت حاجاته الفطريَّة هي حاجاته ذاتها التي شعر بها منذ أن هبط آدمُ عليه السلام إلى الأرض يتلمَّس أسباب الحياة من فوقِها.

ومهما تطورت الفروع والجزئيَّات، فلا يعدو أن يكون ذلك تنوّعاً في شقّ السبيل إلى هذه المصالح الخمس التي أناط الله تعالى بها سلامةَ الوضع الإنساني في الدُّنيا، وسعادة الأبد في العُقبى.



المَوالي في اللُّغَة والتَّاريخ

دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع أنَّ بعض الباحثين في شؤون التاريخ يفسِّرون كلمة: «الموالي» بما يقابل العرب من الأعاجم بشتى طبقاتهم وأخلاطهم. ويعدّون هذا من بعض معاني الكلمة الاصطلاحيَّة الرّاسخة.

ولا ريب أنَّه لو صحَّ هذا المعنى للكلمة في حالٍ من الأحوال، لاقتضى ذلك أن يكون لتاريخ العرب شأن غير حسنٍ حيال الأعاجم كلّهم مِن فُرسٍ وروم وترك و... إلخ، وذلك لما كان للموالي في تاريخٍ ما، من صورةٍ غير حسنةٍ في بعض الأذهان...

وأنت إذا تنبَّهت إلى أنَّ معظم الذين تبنّوا إشاعةَ هذا المعنى للموالي هم من الأجانب والمستشرقين، من أمثال: غولدزيهر، وفون كريمر، وفان فلوتن، أدركتَ أنَّ الغاية من هذه الإشاعة إنما هي فرض ذلك الاقتضاء على تاريخ العرب، وتسجيل أنهم كانوا في صراعٍ مع الأعاجم، وإقحام الفتح الإسلامي في خدمة هذا السبيل، وإظهاره في صورة السُّلَّم الذي ارتقى العرب منه إلى مركز السِّيادة والسَّيطرة على الأعاجم.

من أجل خطورة هذه النتائج كان لا بدَّ لنا أن نتساءل: هل حقًّا تُطلق كلمة «الموالي» ـ فيما تُطلق عليه من معانٍ ـ على الأعاجم، أي على الأعاجم من حيثُ إنهم كذلك؟

ثمَّ لا بدَّ لنا من إجابةٍ على هذا السُّؤال في تمهُّل وبدقَّةٍ علميَّةٍ أمينة.

وسنقف مِن وراء ذلك على حقيقة الدَّعوى التي قصد إليها المستشرقون، ونعلم هل حقًّا أنَّ الفتح الإسلاميَّ قسم الوحدة الإسلامية إلى طائفتين: السادة العرب وعلى رأسهم صاحب الرّسالة، والموالي وهم ذلك الخليط من الأعاجم الذين فُوِّتت عليهم السِّيادة، فلم يبق لهم منها شيء[1].

وسبيلنا الأوّل في هذا البحث هو أن نرجع إلى اللغة لفهم مجموع ما تقرّره لهذه الكلمة من معان.

وقد تملكنا الحيرة فيما يجب أن نأخذ به إذا رأينا أن للمولى طائفة كبيرة من المعاني، فقد أنهاها الإمام أبو السّعادات الجزري وغيره من أئمَّة اللغة إلى قريبٍ من عشرين معنى وهي: الرَّب، والملك، والسيّد، والمُنعم، والمعتِق، والنَّاصر، والمحِبّ، والتّابع، والجار، وابن العمّ، والحليف، وكلّ من أسلم على يدك، والصِّهر، والعبد، والمنعَم عليه، والعتيق.

غير أنَّنا إذا تجاوزنا هذه الشُّعَب المتفرِّعة إلى أرومة المعنى وجذعه الموحِّد، نجد أنَّ هذه المادّة على اختلاف اشتقاقاتها إنما تعني صلة الإشراف والرعاية بين طرفين.

والوليّ والوالي والمتولِّي والمولى، كلها تتشارك في هذه الدّلالة، وما ورد من هذه المادَّة في القرآن كلّه يعني ذلك، من مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) راجع كتاب: «السيادة العربية»، لفان فلوتن.

إلَّا أنَّ «المولى» و«الولي» يصحّ إطلاقهما على كلٍّ مِن الطَّرفين على حدة.

فيصحّ أن يُراد بهما مَن شملْته هذه الرّعاية، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

على أنَّ لهذا المعنى الشامل جذوراً أبعد وأشمل، وهي ما يُراد بكلمة «الولاية» في الأصل من القرب والدنوّ كما قال صاحب القاموس عند كلامه عن هذه المادَّة. وهو معنى تسري عروقُه في جميع تلك الطَّائفة التي سردناها من المعاني.

ثمَّ إنَّ البحوث الشرعيَّة في باب الرِّقّ جاءت فاستمدَّت اصطلاحاتها من المعنى الشامل العام، وفرَّعتْ له فروعاً من المعاني الخاصَّة، فأصبح من معاني «الولاء» الصِّلة التي تربط السَّيِّد بعتيقِه، وأصبح من معاني المولى: السَّيِّد المالك، والعبد المملوك، والعتيق، والمعتِق، وقد عدّوا الكلمة بسبب ذلك من الأضداد.

وارتبطت بهذه الاصطلاحات التي بدأت شرعيّةً ثُمَّ تكامل اندماجُها في العُرف اللّغويّ فأصبحت لغويَّةً، ارتبطت بها أحكامٌ شرعيَّة خاصَّة من إرث، ودية، وغيرهما...

وجاء العُرف التاريخي هو الآخر فزاد من فروع ذلك الجذع العامّ... وأصبح من معاني الكلمة كل قومٍ من النَّاس ارتبطوا بتبعيَّة أو حلف مع أي فئةٍ أُخرى، أو اصطنعهم سلطانٌ أو أمير أو خليفة. وليس من الضروريّ في شيء أن يكون هؤلاء الموالي من عِرق خاص أو أُمَّةٍ بعينها، بل يكفي لسريان هذه التسمية مجرَّد ارتباطٍ من النَّوع الذي ذكرناه.

ولقد كان في العرب كثيرٌ من الموالي، فلقد كان عبد الله بن إسحاق مولى للحضرميِّين، وكان الحضرميُّون موالي لبني عبد شمس، حتى قال الفرزدق يحتقر عبد الله بن إسحاق:

فلو كانَ عبدُ اللهِ مولى هجوتُهُ ولكنَّ عبدَ اللهِ مولى مواليا

وهذا يدلّنا دلالةً قاطعةً على أنَّ ضِعَة الموالي في نظر العرب لم يكن مصدرُها عِرقاً ولساناً، وإنما هي الدّلالة على الضّعف المستلزم في غالب الأحيان للمتابعة والاحتماء، أو هي ضعة الرّقّ والعبوديَّة إن كان مصدر الولاء ذلك.

على أنَّ الولاء لم يكن في جميع الأحيان مصدر ذلّ، بل كثيراً ما كان يعتبر سبباً من أسباب المجد وطابع فخرٍ واعتزازٍ لأربابه. وهؤلاء، هم الذين يربطهم الولاءُ بالدولة والخلفاء، لا القبائل والأفراد، خصوصاً إذا كان ذلك لصالح أرباب الدّولة أنفسهم، إذ كثيراً ما كان يتبين الخليفة في عصبيته ضعفاً، أو يتوجّس منها خيفةً وشعوراً بعدم الإخلاص له، فيصطنع لنفسه من دونها عصبةً أُخرى يحيطها من حوله عن طريق الولاءِ، كالموالي الأتراك في نهاية العهد العبّاسي والبرامكة من قبل ذلك، فقد كان أمثال هؤلاء يشرفُون بالرّسوخ في ولاءِ الدولة وخدمتها، ولقد تدرَّج كثيرٌ منهم في مراقي الدّولة أيضاً[1].

من هذا الذي ذكرناه، نتبين أنَّ «الولاء» لا علاقة له بالعجمة، لا في معناه اللغويّ العامّ، ولا فيما طرأ عليه من اصطلاحات..

(١) راجع مقدمة ابن خلدون، فصل: (البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع... إلخ).

وأنَّ «الموالي» كان فيهم العرب الأقحاح وفيهم الفرس والرّوم والترك أيضاً.

ومن هذا الذي ذكرناه أيضاً نعلم أن استتباع صورة الضّعة للموالي لم يكن مصدره عجمةً أو عروبةً أو أيّ عرقٍ، ولكنَّ السبب هو ما يدلّ عليه الولاءُ غالباً من الضعف المحوج إلى الحماية، على أنَّه في أحيانٍ كثيرةٍ أُخرى لم يكن كذلك.

بقي أن نتساءل عن السرّ الذي تعلّق بسببه هذا الاسم بالأعاجم، حتى أصبح كثيرٌ من الباحثين المتأخرين ـ خصوصاً المستشرقين ـ يستعملون كلمة «موالي» اسماً فنيًّا لهم!!..

ويقيناً أنَّ سرّ ذلك هو أنَّ عامَّة الموالي في نهاية العهد العبّاسي كانوا خليطاً من الأعاجم، وقد احتلّوا مساحةً واسعةً من صفحات التاريخ بسبب ما لعبوه من أدوار سياسيّةٍ لفتت إليهم الأنظار، حتى أصبح اسم الموالي بعد ذلك يكاد لا ينحطّ إلّا عليهم.

لقد كان هذا السرّ بمثابة ثغرةٍ أو تُكأة عوَّل عليها كثير من المؤرّخين المغرضين فيما استهدفوا إليه من محاولة إيجاد هوَّةٍ عظيمةٍ في قلب الوحدة الإسلاميَّة تفصل بين شطريها العربيّ والعجميّ. وكان هذا هو الدّاعي الذي حملهم على أن يتلقّفوا كلّ أثرٍ عربيّ يحطّ من شأن «الموالي» ليستشهدوا به على أنَّ صراعاً كبيراً كان قائماً بين العرب والأعاجم، وعلى أنَّ الفتح الإسلامي ما كان إلّا وسيلةً للانتصار على الأعاجم وانتزاع سيادتهم التي طالما تمتّعوا بها من قبلهم.

وهم يسهبون في سرد هذه الآثار ما تأتّى لهم ذلك، فيقولون: إنَّ العرب كانوا يقولون: لا يترك الصَّلاةَ إلّا ثلاثٌ: حمارٌ أو كلبٌ

أو مولى، وإنهم تحدَّثوا في موضوعٍ غريبٍ هو: هل ينكح الأعاجمُ نساءنا في الجنّة؟ وأنَّ الموالي أُبعِدوا عن الوظائف النّبيلة وكانوا يُعاقَبون بالوشم على أيديهم[١].

ولا بدَّ أن نحدّثك عن قصَّة هذه الآثار كي تزداد يقيناً بما قلناه، وكي تتبيَّن السبيل المموّه الذي ينتهجه بعضُ المؤرّخين ليتأتَّى لهم أن يصوِّرُوا حقيقة التاريخ حسب آرائهم وأغراضهم.

فنقول:

أوّلاً: لم يؤثَر شيءٌ من مثل هذه النّصوص إلَّا عن «بعض أعراب البادية الجفاة» على حدِّ تعبير المبرد في «الكامل». ولقد كان الأعراب في نظر العرب المتحضرين أقلَّ من العرب شأناً.

ثانياً: إنما أراد هؤلاء الأعراب بالموالي العبيد والعتقاء، أي الذين ربطهم ولاءُ الرّقّ. فقد كانوا كما قال المبرد لا يكرمون الموالي. وسبب ذلك إنَّ اصطناع الأرقّاءِ والموالي إنما هو من مستلزمات الحضر، إذ كان أمراً غير مألوفٍ في البادية. فكان ذلك مع جلافة طبعهم داعياً لاستهجانهم إيَّاهم مع ما كانوا يستهجنونه من مظاهر المدنيَّة والترف.

ثالثاً: هؤلاء الذين نُقشت أيديهم لم يُعاقَبوا بذلك لأنهم كانوا موالي، وإنما صنع بهم الحجّاج ذلك لخروج بعضهم على أمره في قضيَّة البيعة...

---

(١) من كتاب: «التاريخ العباسي» لشاكر مصطفى، وهو ينقل أكثر بحوثه عن فان فلوتن وغولدتسيهر. ولقد كتبنا رداً مطولاً عليه في رسالتنا: «دفاع عن الإسلام والتاريخ».

وقصّة ذلك أنَّ سعيد بن جبير كان رقيقاً لرجلٍ من بني أسد، فاشتراه سعيد بن العاصي، وأعتقه مع مئة عبدٍ من عبيده، فلمَّا خرج هو وثلَّة معه من أمثاله على الحجَّاج وانحازوا إلى ابن الأشعث، غضب عليهم الحجّاج فقتل ابن جبير الذي كان على رأسهم، وشتّت الآخرين في القرى، وأبعدهم عن وظائفهم، وأمر أن ينقش على يد كلٍّ منهم اسمه وقال: «هؤلاء موالٍ وهم علوجٌ يجب أن يعودوا إلى قراهم. . .»، فهذا شيءٌ لا يُستدل به على ما يريدون البتَّة، لأنَّ هؤلاء الموالي إنما كان ولاؤهم رقًّا. . ولأنَّ سبب مصيرهم ذاك هو تحيّزهم لابن الأشعث، لا كونهم موالي أو أعاجم، ولأنَّ العرب ليسوا هم الذين اجتمعوا على هذا التحقير لهم، وإنما الذي صنع ذلك فردٌ واحد هو: الحجَّاج.

رابعاً: وأنت حينما تمعن في قولهم: «ولقد تحدَّث العرب في موضوعٍ غريبٍ هو هل ينكح العجم نساءَ العرب في الجنّة»، تحسب أنَّ جمهرة العرب هم الذين تحدَّثوا في هذا إن لم يكن قاطبتهم، ويخيّل إليك أنَّ علماء الشرع قد كانوا روّادهم في ذلك الموضوع، إذ كان ذلك من اختصاصهم.

ولكن ماذا إن قلت لك إنَّ الجمهرة التي تحدَّثت في هذا الموضوع إنما هي فرد واحد، لا من العرب، بل من أعراب البادية الجفاة؟ فلقد روى المبرد عن الأصمعي قال: زعم أنَّه رأى أعرابيًّا جاء من البادية يقول لصاحبه: أترى هذه العجم تنكح نساءَنا في الجنّة؟ فأجابه: أرى ذلك والله بالأعمال الصّالحة.

فانظر يا أخي القارىء كيف يبتر هؤلاء الحديث عن صادره ووارده، ويزوّرون فيه ويصبغونه بصبغة العموم، كي يتأتّى لهم أن يتقوَّلوا على

العرب ما لم يقولوه، ثمَّ لكي يجنحوا بالتاريخ العربي عن سبيله بمثل هذا الزّمام العنكبوتي الواهي. وإلَّا فمتى كان يُسجَّل تاريخ أُمَّةٍ بأسرها على لسان فردٍ واحدٍ من شذاذها النّادّين الأجلاف الذين حادوا عن سبيلها البيّن المعلوم؟!.

ويجيب هؤلاء حينما يتساءلون عن سرّ تفوّق الأعاجم في العلوم والفنون وبراعتهم في الآداب وشؤون الفكر ـ يجيبون بأنهم لجأوا إلى ذلك ليعوِّضوا لأنفسهم ما فاتهم من المراكز الاجتماعيَّة اللائقة..!

وليتني أعلم، أيّ مفكّرٍ هذا الذي ينطلي عليه هذا الكلام ويصدّق هذا التخيّل المصطنع؟

إذا كان هذا الكلام صحيحاً، فلماذا عزف أبو حنيفة النّعمان عن القضاء على الرّغم من إلحاح المنصور عليه وتهديده إيَّاه بالسّجن إن لم يقبل ذلك؟ ولماذا لم يقبل طاووس بن كيسان مثل ذلك المنصب سوى أيَّام.. ثمَّ أنف واستعلى عليه؟

وبعد، فلو كان لي من الأمر شيء، لما تركت أيَّ باحثٍ يكتب في التّاريخ، ولما أفلتُّ كتاباً فيه يغزو الأسواق إلَّا بعد إجازةٍ بذلك من لجنةٍ مختصَّةٍ أمينة؟ إذ إنَّ بحوث التاريخ هي أسهل ما يمكن الدّسّ فيه والمغالطة بين حقائقه، ولعلَّ هذا هو سرّ تخصّص ثلّة كبيرة من المستشرقين والأجانب ببحوث التاريخ...!

❑ ❑ ❑

التَّيسير والتَّخيير في حياة الإنسان

كنتُ قد عزمتُ أن أكتب هذا الأسبوع مقالاً يتعلّق بالحجّ: أمضي به مع القرّاءِ، في رحلةٍ إلى بيت الله الحرام، بالفكر والوجدان، بعد أن قعدتْ بيَ الأسباب عن الارتحال إليه بالجسم والعيان.

ولا غرو، فليس على مَن فاته الركب، وتخلّف عن السُّرى، إلَّا أن يعلّل النفس بالذكرى، ويمتّع القلب بالحديث عن الدّيار.

تذكَّرتُ والذكرى تهيجُ لذي الجوى ومن حاجةِ المحزونِ أنْ يتذَكَّرا

غير أنَّه صرفني عن الكتابة في هذا الموضوع، ما يصرفُ المسلمَ عن النّوافل والمستحبّات، إلى الفروض والواجبات، عند تعذّر الجمع بينها، وضيق الوقت عن الاتساع لها كلّها.

فقد التقيتُ بفئةٍ من الشبّان، أعرفُ فيهم صدق الإسلام وحسن العقيدة، شكوا إليَّ أنَّ بحث القضاءِ والقدر أو قصَّة التسيير والتّخيير في حياة الإنسان ـ يظلّ يؤرّق تفكيرهم، ويتعب أفئدتهم، وأنهم يصطدمون بين الحين والآخر بمن يحاول التشكيك في عقائدهم، بل ويتحدّاهم أن يكون «لمشكلة»!.. القضاء والقدر حلّ تقبله العقول والأفكار.

والعجيب أنَّ بعضاً من شياطين الإنس، لا يحلو لهم أن يتصيَّدوا

إيمان المؤمنين، إلّا بهذا الشّباك القديم.. مع أنّه شباك أخرق، لا يصلح أن يُمسك على أيّ صيدٍ لأصحابه، اللّهُمّ إلّا أن يُمسك على أفكارٍ قاصيةٍ عن حقيقة العقيدة الإسلاميّة وفهمها على وجهها الصّحيح، فهي تذهب بذلك ضحيّة جهلها بحقيقة الدِّين وأُصوله وحقائقه، أمّا الدِّين نفسه، فيظلّ على كلّ حالٍ، في منعةٍ عن أن يُنال منه، ويظلّ العقل ساجداً لكلّ مبادئه وأحكامه.

وأنا أعلم أنّ القصّة ليست قصّةَ فئةٍ بخصوصها من المسلمين، صادفتْ شبهةً في فهم أمرٍ من أُمورِ الدِّين، وإنما القصّة، قصّة الغزو الفكري الذي يمعن في القصد إلى الحيلولة بين عقول المسلمين وحقائق إسلامهم، بما يمكن إثارته من دُخان الشُّبَه المفتعلة، وغبار الآراء والأفكار الوافدة.

ومسألة التّسيير والتّخيير، التي يتلاعبُ بالحديث عنها بعضهم، بقصد التّضليل، دون فهمٍ لحقيقتها ـ من أهمّ مسائل أُصول الدِّين التي ينبغي أن يدركَها كل مكلّفٍ على وجهها الصّحيح الذي جاءت به شريعة الإسلام.

ولذلك فإنّك لا تجد واحداً من علمائنا السّالفين رضي الله عنهم، كتب في أبحاث العقيدة الإسلاميّة، إلّا وتناول البحث في هذه المسألة بالإيضاح من جميع جهاتها وأطرافها.

ومن الخطأ العجيب أنّ بعض النّاس، ينكرون ـ مع هذا ـ على مَن يسأل في هذا البحث، قصداً إلى كشف غاشية اللبس لديه، ورغبةً في تحصين عقيدته، عن أن تنالها أباطيل الموسوسين والمشكّكين، ويخيفونهم

من الخوض في ذلك، بما يروونه عن رسول الله ﷺ من أنّه قال: «إذا ذُكِر القدر فأمسكوا»[١]!!..

ومع أنَّ الحديث ضعيفٌ لا يرقى إلى صحّة الاستشهاد به لأمرٍ كهذا، فإنَّ ممّا ينبغي معرفته بالبداهة، أنَّ قائل هذا، (سواءٌ أكان في حقيقته حديثاً أو أثراً عن بعض أهل العلم) إنما أراد بهذا القول، زجر النَّاس عن الخوض في دقائق القضاءِ والقدر، بسلاح الفلسفة والجدل البيزنطي الذي ابتلي به المسلمون ـ على غير رضا منهم ـ ردحاً من التاريخ الإسلامي. وهذا النهي حقّ، وهو ليس خاصًّا بمسألة القضاء والقدر، بل عام يشمل غيرها أيضاً من قضايا العقيدة كالغوص في أبحاث ذات الله تعالى وحقيقة صفاته.

أمَّا تعليم المسلمين حقائق عقيدتهم، التي وضعها أمامهم، كلٌّ من كتاب الله وسنة رسوله، فما من ذلك بدّ، وليس لعالمٍ أن يصرف عنها جاهلاً جاء يسعى ابتغاءَ معرفة دينه والتمكّن في عقيدته.

من أجل هذا، طويتُ ما كنتُ بسبيله في موضوع الحجّ، واستبدلت به هذا البحث الذي هو أصل من أهمّ أُصول العقيدة الإسلامية.

---

(١) نص الحديث كما رواه الطبراني: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا». قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف، وقال المناوي نقلاً عن الهيثمي: فيه يزيد بن ربيعة، وهو ضعيف. وذكر الذهبي في ميزان الاعتدال نقلاً عن البخاري أن أحاديث يزيد بن ربيعة مناكير. وقال النسائي عنه: إنه متروك، وذكر ابن رجب وجوهاً عدة في أساليب هذا الحديث، قال: وفي كلها مقال.

وسأمضي مع القارىء في معالجته وبيانه بالمنهج الحواري الذي مضيت فيه مع الفتية الذين تحاورت معهم، فهو أعون على تنسيق مراحل البحث، وأجمعُ لمظانّ الشبهة في هذا الموضوع كما يحسّ به الذين يستشكلونه.

بدأ السَّائل حديثه فيما يستشكله، بقوله: هل الإنسان مخيّر فيما كلّفه الله به أم مسيَّر؟

فقلتُ: إنَّ مِن تصرُّفات الإنسان، ما هو مخيَّر فيه، كالسّعي إلى طعامه وشرابه، والقصد إلى أغراضه وحوائجه، من كلّ ما لا يفعله إلَّا بوحي من إرادتِه وعقله. ومنها ما هو مسيَّر فيه، كحركة الارتعاش وكالوقوع والانزلاق، وما يفعله مكرهاً، من كلّ ما يصدر منه بدون وحي من إرادتِه وعقله.

وفارق الإرادة هذا، فارق جليٌّ بدهي في حياة الإنسان، لا يقبل أيّ جدلٍ أو امتراء. كما أنها حقيقةٌ أثبتها القرآن الكريم للإنسان بصريح العبارة التي لا تقبلُ أيَّ تحريفٍ أو تأويل، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

ومِن أهمِّ شروطِ صحَّة التَّكليف أن يكون المكلّف مختاراً فيما يتعلَّق التكليف به. فلا يبدأ التكليف، إلَّا حيث يتوافر الاختيار، وينتهي حيث يصبح الإنسان مسيَّراً فاقداً لإرادته وطواعيته. وهذا القانون جليٌّ صريح في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**رُفِعَ عن أُمَّتي الخطأُ والنسيانُ وما استُكرهوا عليه**».

قال: فإذا كان كما تقول، فما معنى أنَّ الله قدَّر وقضى على الإنسان كلَّ ما يكسبه من خيرٍ وشرّ؟ وكيف يبقى للإنسان مع ذلك أيّ اختيارٍ في فعل ما يريد؟

قلتُ: ومَنِ الذي أنبأكَ أنَّ معنى القضاء والقدر، سلب الاختيار من العبد، وأنّه وثاق، قيّد اللهُ به الإنسان، حتى لا يملك معه طواعيةً ولا اختياراً؟

القضاءُ والقدر، كلمتان يُعبَّر بهما عن علم الله تعالى للأشياءِ، ووقوعها في الوجود حسب علمه، ليس أكثر.

فالقضاء ـ كما قال علماءُ هذا الشأن رحمهم الله تعالى ـ علم الله جلَّ جلاله بالأشياءِ في الأزل على الصّورة التي ستوجد عليها.

والقدر ـ وجود تلك الأشياء في عالم الظهور على وجهٍ تفصيلي يوافق القضاء السابق.

فعلاقة قضاءِ الله تعالى بالأفعال أو الأشياءِ، ليست سوى علاقة علم بها وكشف لها قبل وقوعها، وهي من لوازم أُلوهيَّة الله تعالى بالبداهة، إذ من صفاته جلَّ جلاله أن يعلم بكلّ ما هو كائن وما سيكون في الوجود. ولو أنَّ الأشياء أو بعضها وُجدت أخيراً على غيرِ الشكل الذي تعلّق به علم الله في الغيب، لانقلب علمُه جهلاً، وذلك محال في ذات الله تعالى كما هو معلوم.

ومن الأمور الواضحة لكل ذي فكرٍ وعقل، أنَّ مجرَّد العلم بوقوع شيءٍ ما، ليس مؤثراً في وجوده، إنما يوجد ذلك الشيء ـ على كلّ حالٍ ـ بسلسلة علله وأسبابه، لا بعلم العالم أو جهل الجاهل، تلك حقيقة من أظهر الظاهرات وأوضح الواضحات.

وإنما مثل قضاءِ الله تعالى في الأشياء ـ ولله المثل الأعلى ـ كمدرس أُوتي فراسةً وخبرةً بحال تلاميذه، ودرجة النشاط والجدّ لدى كلٍّ منهم. فسجّل في دفتر مذاكراته أنَّ فلاناً منهم سيرسب في نهاية العام، وأنَّ الآخر سيفوز وينجح، ثمَّ طوى دفتره، وأقبل إليهم لا يألو جهداً في إرشادهم وتعليمهم ونصحهم، حتى إذا كانت نهاية العام وقع ما كان قد أمّله المدرّس وعلم به: أرأيت لو أنَّ أحدهم اطّلع على ما كان قد سجّله المدرّس لديه في شأن كلٍّ منهم، فراح يزعم أنَّ الأستاذ أجبر تلاميذه بما قد علم من شأنهم، وأنّه سيّرهم بذلك إلى ما انتهوا إليه تسييراً وأرغمهم على ذلك إرغاماً ـ أيكون هذا الكلام مقبولاً في ميزان عقل أيّ عاقل؟!.

وإنما علاقة قضاءِ الله تعالى بالأفعال التخييرية لعباده من هذا القبيل بالضبط والتمام. فهو ليس إلّا علمه بأنه سبحانه سيخلقك عاقلاً، مريداً، مختاراً، لتكون بذلك مكرّماً على المخلوقات كلّها، وأنك ستمارس عقلك وإرادتك واختيارك في مختلف التصرّفات والأفعال، فتختار منها: كذا.. وكذا.. وكذا..

وقد أقبل شيخٌ إلى عليٍّ كرَّم الله وجهه، بعد انصرافه من صفّين، يسأله: أخبرني عن مسيرنا إلى الشام، أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي خلق الحبّة، وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئاً، ولا هبطنا وادياً، ولا علونا تلعةً، إلّا بقضاء الله وقدره.

فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي، ما أرى لي من الأمر شيئاً. فقال له: مه أيها الشيخ!.. عظّم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرّين.

فقال الشيخ: فكيف ساقنا القضاءُ والقدر؟ فقال: ويحك لعلك تعني قضاءً مجبراً، وقدراً قاسراً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولم تأت لائمة لمذنب، ولا مَحْمَدة لمُحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان وجنود الشيطان وشهود الزّور وأهل العمى عن الصواب. إنَّ الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً، وكلّف يُسراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطَع مستكرهاً، ولم يرسل الرّسل إلى خلقِه عبثاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنَّ الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النَّار.

فهذا هو معنى القضاء الذي يجب الإيمان به، ولستُ أدري مصدر الغلط البيّن الذي يقع فيه بعض النَّاس، إذ يتوهّمون أنَّ القضاء يوجّه أفعال النَّاس بسوط الجبر والإلزام، مع أنَّ القضاء ـ كما قلنا ـ علم الله تعالى، وهو لا يتعلّق بفعل الإنسان إلَّا من حيث إنه يؤدّيه بكامل اختياره وإرادته.

قال: إذن فما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣]؟ وفي القرآن الكثير من الآيات الواردة بهذا المعنى، وهي في جملتها تدلّ على أنَّ النَّاس إنما يسعدون ويشقون بهداية الله أو إضلاله إيَّاهم.

قلت: ممَّا لا ريب فيه أنَّ الله يضلّ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء، ويفعل بعباده ما يريد، ولو لم يكن كذلك لكانت قدرتُه مشوبةً بالعجز، ولكانت مشيئته غير صافية عن الجبر، ولا ريب أنَّه مالك هذا الكون كلّه، الأرضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القيامة، والسّموات مطويَّاتٌ بيمينه، لا يُسأل عمّا يَفعل وهم يُسألون، ولو لم يكن كذلك، لكان في الكون ما هو داخل في سلطان

غير سلطانه، ولكان ثمَّة حكم آخر من وراءِ حكمه في الخلائق والعالمين. وتعالى الله إله العالمين عن ذلك كلّه علوّاً كبيراً.

غير أنَّ هذه الحقيقة، لا تُخِلُّ بشيءٍ مما هو ثابت مقرّر، من أنّ الله تعالى جعل الإنسان مخيراً فيما يتعلّق به التكليف من تصرّفاته وأعماله، وأنَّ القضاءَ هو علمه الأزليّ بما سيختاره الإنسان مريداً غير مكره.

وبيان ذلك، أنَّ الله تبارك وتعالى جهَّز جميع المكلّفين من عباده، بقدرٍ مشتركٍ من الطَّاقة والعقل والاختيار، جعله مناط التكليف في حقّهم. فبذلك تتكافأ لديهم فرص المبادرة إلى تطبيق أوامر الله تعالى والتزام شريعته، ويستوون في أنهم جميعاً يتصفون بأصل الأسباب التي تهيئهم للتكليف وتَلَقِّي الأوامر، حتى إنه إذا فقد أحدهم سبباً من هذه الأسباب كالطَّاقة أو العقل أو الاختيار، انقطعتْ عنه تبعة التكاليف واستثني من عموم الجماعة التي يتعلّق بها خطاب التكليف من الله عزّ وجلّ.

ولكنَّ النَّاس بعد أن ينطلقوا من هذا القدر المشترك الذي وضعهم في صفٍّ واحدٍ، فوق صعيد العدالة الإلهيَّة، يختلفون في مدى استعمالهم للأجهزة التي ملَّكهم الله إيَّاها من عقلٍ وإرادةٍ وطاقة، ويسلكون في ذلك طرائق قِدَداً.

فمنهم مَن يفتح عقله لإدراك آيات الله مِن حوله، ويستجمع طاقته لتطبيق أوامره وأحكامه، ويستعمل إرادته للاتجاه نحو جانب الخير، وينظر إلى ما يعتلج في نفسه من الشهوات والأهواء التي تحاول أن تسعى به إلى الشرّ، فيرمق بطرفه السماءَ، ويُقبل على الله في دعاء منكسر يفيض بالعبوديَّة له، أن يعينَه في أمره ويوفّقه للتمسّك بأحكامه.

فمثل هؤلاء، تدركهم ألطافُ الله تعالى وفضله، فيزيد إلى طاقتهم

طاقةً أخرى من توفيقه، ويزيد إلى عقولهم عقلاً آخر من هدايته، ويضع في إرادتهم معنى العزيمة والإصرار.

نجد هذا واضحاً في الكثير من آيات الكتاب الكريم، من مثل قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمَّد: ١٧]، وقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

ومنهم مَن يعمد ـ من أوّل الطريق ـ فيضع عقله في غطاءٍ عن ذكر الله وآياته، ويصرف طاقاته عن القيام بأمر الله وحكمه، ويضع إرادته في أسر شهواته وأهوائه، ويبدو لكلّ من يحاول أن يذكّره بطرفٍ من هدي الله وحكمه، أنَّه مقرّر ـ سلفاً أن لا يفهم شيئاً ممَّا يُلقى إليه، وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فُصّلت: ٥]، فهؤلاء هم الذين يحيق بهم مكرُ الله وعقابه في الدّنيا قبل الآخرة، فيوقعهم في مزيدٍ من الغواية والضّلالة العقليَّة، ويذيب إرادتهم فيما يُضرمه عليهم من سعير الشهوات والأهواء الجانحة، ويبتليهم بمزيدٍ من الانصراف عن موعظة المذكّرين وآيات الله في العالمين.

تجد هذه السُّنَّة الإلهيَّة واضحة أيضاً في الكثير من آيات الكتاب المبين، مثل قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ

قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

وإذاً فإنَّ الله جلّ جلاله يهدي مَن يشاء ويضلّ من يشاءُ، أي إنه لا يُعجزه شيءٌ عن أن يقذف أسباب الهداية الجبريَّة في قلب أضلّ الكافرين والمارقين، وأن يقذف أسباب الضَّلالة في قلب أصلح عباده المؤمنين. ولكنَّه سبحانه، كتب على نفسه ـ تفضُّلاً منه وإحساناً ـ أن لا يُضلَّ من النَّاس إلَّا من تعرّض لأسبابها وصرف عن نفسه وسائل الهداية التي أنعم الله بها عليه، وأن يُقرب أسباب الهداية والتوفيق لكلّ مَن عزم على استجابة أمر الله وتكاليفه، وبسط يد العبوديَّة نحوه يسأله العون والتّأييد.

وهذا كلّه يأتي من وراءِ القدر المشترك الذي منحه لجميع المكلّفين: من أصل الطَّاقة والعقل والإرادة، الذي استقرَّت به حجّة الله على النَّاس في أمر التكليف.

قال: فأخبرني عن ذلك الذي قلتَ عنه: إنَّه وضع عقله في غطاءٍ عن ذكرِ الله وسماع الحقّ وألقى إرادته في إسار شهوته، أليس ما فعله بنفسه بإرادة الله عزّ وجلّ؟

قلتُ له: فأصغ إليَّ بإمعان، لتعلم أنَّ هذا الشِّباك الذي أمضى إبليسُ حياته كلّها، يحمله على ظهره، ليغوي به أفئدة النَّاس، شباك أخرق لا تضبطه مُسكة من عقل، وأنَّى له ذلك؟! ولو خُلق العقل في صورة إنسان من الخلائق، لاكتسى رداء العبوديَّة لله عزّ وجلّ قبل أيّ مخلوقٍ آخر من النَّاس!

إنَّ الله عزَّ وجلّ، حينما خلقك مختاراً، أراد ولا شكّ أن تكون كذلك، أي إنَّ إرادته متعلّقة بإيجاد سرّ «الاختيار» في كيانك، فإذا عمدتَ أنت، واكتسبتَ به إثماً من الآثام، فإنَّ إرادة الله تتعدّى إليه عن طريق أصل الاختيار الذي تولّد منه عملك هذا. ولو كان ما اكتسبته طاعة، لتعدّت إليها الإرادة أيضاً بهذا الطريق ذاته. وتعلّق الإرادة الإلهيَّة بتصرّفاتك ـ على هذا الوجه ـ لا يعني أيّ جبر أو إكراه.

ودعني أضع أمامك، مرّةً أخرى، مثالاً مقرّباً: أرأيتَ لو أنّ رجلاً شكَّ في أمانة خادمه، وأراد أن يختبره، فأعطاه قدراً من المال، وكلّفه أن يذهب به إلى بعض الفقراءِ ليتصدَّق به عليه، وأرسله إلى تلك الوجهة بدون أيّ رقيبٍ يصحبه أو يأسره، اللَّهُمَّ إلّا ما زوَّده به مِن النَّصيحة والتَّحذير، فإنَّ ممّا لا ريب فيه، أنَّ إرادة الرجل إنما تعلّقت أوّلاً وبالذَّات باختباره، أمَّا ما يتولَّد عنه الاختبار بعد ذلك، من خيانة الخادم بسرقة المال، أو أمانته بإعطائه لمن كلّفه بإعطائه له، فإنما تتعدَّى إليه إرادة المختَبِر عن طريق تعلُّقها بجذع الاختبار العامّ الذي لا بدَّ أن تتولَّد منه إحدى هاتين النَّتيجتين، لا أنَّ إرادة السيد تعلّقت مباشرةً بأن يختار الخادم سرقة المال أو المحافظة عليه لأصحابه، إذ لو كان كذلك لتعارض هذا مع ما قصد إليه من أصل الاختبار والتجربة.

وإذاً، فإنَّ الإرادة الإلهيَّة متعلّقة بكلّ ما يمكن أن يكسبه الإنسان من التصرّفات والأعمال، ولكن لا على وجه الجبر والإلزام لواحدٍ معينٍ منها، بل على وجه أن يتخيّر منها ما يشاءُ بمحض ما أودعه لديه من معنى الإرادة والاختيار.

قال: فقد والله زايلني الشكّ، وانجابت عن فكري غمَّة هذا الأمر، وكأنما نشطتُ من عقال. ولكن دعني أسألك هذا السُّؤال الأخير: لا ريب أنَّ الله قادرٌ على أن يهدي جميع عباده، فلماذا لا يهديهم ولا يزيل عقبات الشهوات والأهواء من طريقهم؟

قلتُ: لو فعل، لما كان لتكليفهم معنى، لأنَّ الطَّاعات والعبادات تصبح إذ ذاك من مستلزمات طبائعهم وحاجات عيشِهم، كالطّعام والشّراب، ولما استأهلوا بأعمالهم المبرورة لشيءٍ من الأجر والمثوبة، ولما استقام لهم أن يكونوا أكرم المخلوقات عند الله تعالى، وأن يكون مؤمنوهم أكرم عنده حتى من الملائكة.

ولقد صنّف اللهُ مخلوقاتهِ إلى أنواعٍ وأقسام، فميَّز كلًّا بطبيعة، وركّب في الإنسان من الطّبائع ما جعله أفضلَ مخلوقٍ على الإطلاق. ولله أن يفعل بمخلوقاته ما يشاءُ لا رادَّ لمشيئتهِ وحكمه.

ولمَّا استوفز ليقوم، قلتُ له: على رِسلك، فقد كان كلّ ما سمعتَه صوتَ المنطق والبحث العلمي، وبقي أن تعي من وراءِ ذلك صوتَ العبوديَّة لله عزّ وجلّ.

هبْ ـ أيُّها الأَخ ـ أنَّ الله تبارك وتعالى، لم يشأ إلَّا أن يسوق قسماً من عباده بسياط القسر والإكراه إلى النَّار فيقذفهم فيها عنوةً وابتداءً، ولم يشأ إلَّا أن يسوق القسم الآخر بالوسيلة ذاتها إلى جنّة خُلده، فيكرمهم بها منحةً وابتداءً: أفيوجد في هذا الملكوت كلّه من يستطيع أن يناقشه الحساب، ويقول له: لِمَ؟...

قال: لا.

قلتُ: أفيوجد من وراءِ ملكوت الله كلّه، كونٌ آخر لا يخضعُ لسلطان ربّ العالمين، حتى يلتجىء أحدُنا إليه، ويعلن من هناك استنكار ما يريد أن يستنكرَه من القوانين والأحكام؟ قال: لا. قلتُ: فإذا كان هو وحده مالك المُلك كلّه، أفليس من حقّ المالك أن يتصرَّف بملكِه كما يشاء؟ قال: بلى.

قلتُ له: فتعال يا أُخَيَّ نلزم باب العبوديَّة لربّ الأرباب، فقد كدنا أن نشرد عنه إلى شقاءِ الغواية والاضطراب، تعال.. فلا مفرَّ من الله إلَّا إليه، ولا ملاذ من عذابه إلَّا بالخضوع لسلطانه، ولا عليك ممّن استكبر فوق قمامةٍ من الجهل، أو اعتلى فوق عيدانٍ من الوهم، فسوف يقدم الجميع إلى الله من باب العبوديَّة له صاغرين مطأطئين: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم]، صدق الله العظيم[١].

❑❑❑

(١) عالجنا موضوع القضاء والقدر، وبتحقيق علمي أدق في كتاب «كبرى اليقينيات الكونية»، فارجع إليه إن شئت.. ثم شاء عزَّ وجل أن أُصدر كتاباً جامعاً في هذا الموضوع، هو «الإنسان: مسيراً أم مخيراً»، ولعلَّه يتضمَّن البيان الجامع لأطراف هذا الموضوع.

مسئلتان وجوابُهما

زارني واحدٌ من هؤلاءِ الشبّان الحيارى، الذين تراهم تائهين بين رياحٍ عاصفةٍ من الظروف المحيطة بهم، والأهواء التي تتراقص في نفوسهم، والتقاليد التي تطوفُ حول رؤوسهم، والمنطق الحرّ يظلّ يرمض شعورهم، ويقلق أفكارهم.

جاءني واحدٌ من هؤلاءِ المساكين، وقد ثبتت في عينيه صورة جليّةٌ لهذه الحيرة كلّها، وقال لي: هل أستطيع أن آخُذ من وقتِك قدراً يسيراً لأسألكَ في بعض الأمور التي تُقلقني وتتعلّق بمستقبل حياتي؟

فأقبلتُ عليه قائلاً: إنَّ وقتي أيها الأخ ليس أعزَّ من مستقبل شابّ مثلك، فتفضَّل واسأل فيما تشاء.

ففكّر قليلاً، ثمَّ قال: وأرجو أن لا يُضايقك نوع الأسئلة التي سأعرضُها أو الأسلوب الذي لا أستطيع أن أستعمل غيره في السُّؤال.

فقلتُ له: إنَّ صدري مُتَّسِعٌ لكلّ ما تريدُ أن تسأل فيه وبالأسلوب والطريقة التي تحبّ، ما دمت تصدر في أسئلتك ومشكلاتكَ عن منطقٍ سليمٍ، وفكرٍ طليقٍ حرّ.

فقال لي: إنهما مشكلتان أُريدُ أن أفهم الجواب المقنع عليهما، وكلاهما يتعلّق بالدِّين والعقيدة.

أمَّا المشكلة الأولى: فهي أنَّني أحبّ أن أفهم وجه الحاجة أو الضرورة التي اقتضت أن يتعبَّدنا الله بهذا الدِّين، وأن يُلزمنا بكلّ هذا الذي يتضمّنه من اعتقادات وعبادات وأحكام. وما هو وجه الضرر في أن يترك هذا الإله عبادَه أحراراً يُقيمون حياتهم على الوجه الذي يُريدون، وينظمونها حسب الشكل أو الطريقة التي يحبّون؟ وما هي حاجة الله في أن أحبس نفسي على عبادته العمرَ كلّه، وما الذي يضرّه أو ينقصه لو لم أفعل ذلك؟!

فسألتُه: أواثقٌ أنت من أنّك بدأتَ سؤالك من أوَّل الطريق، وأنّه لا تطوفُ بذهنك مشكلة قبل هذه وأهمّ منها! وبتعبير آخر: هل أنتَ موقنٌ قبل كلّ شيءٍ بوجود الله وأُلوهيّته!

فقال: نعم، وإن كانت ثمَّة شبهة، فإنما هي هذا الذي استشكلتُه وسألتك عنه، أي إنَّ هذه الشبهة وحدها هي التي قد تجعلني أُعيد النّظر في يقيني وإيماني بالله عزّ وجلّ.

فقلتُ له: دعني أوّلاً أُكبر فيك عقلكَ الحرّ... بمقدار ما أحتقر عقولاً أُخرى مكبّلةً بالقيود والأغلال..

إنَّ المشكلة في حياتنا ليست هي هذه المسألة التي تعرضها وتؤرّق ذهنك من أجلها، فما من عويصةٍ إلّا وعند العقل السليم لها حلّ، ولكنَّ المشكلة الكبرى في حياتنا هي «محنة العقل».. هي مشكلة أُولئك الذين يأبون إلَّا أن يُقيّدوا العقل بالأغلال، ثمَّ يقودونه بسياط الشهوات والأماني والأغراض إلى حيث تشاءُ تلك الشهوات والأغراض، وأيّ محنةٍ أعظم من أن تنقلب أشرف حقيقةٍ إنسانيَّةٍ في الكون ألا وهي العقل، فتغدو مكبّلةً بدلاً من أن تكون طليقةً، وتصبح مَقودةً بدلاً من أن تظلّ قائدةً؟!

أمَّا أنَّ الإنسان يستشكل ويملكُ الحرية في التّعبير عمّا يستشكله ولا يفهمه أيًا كانت المشكلة، فذلك شيءٌ طبيعيٌّ، وهو مِن أخصّ مستلزمات الكرامة الإنسانيَّة وحرّيتها.

وأمَّا أن يتّخذ الإنسان من المشكلة سجناً يحبسُ فيه الفكرَ والعقل، ويعتقل فيه حرّية الفكر والمنطق لأيِّ غرضٍ من الأغراضِ، فتلك هي المحنة الكبرى التي تكون الإنسانيَّة نفسها أوَّلَ ضحيَّةٍ لها.

والآن إليك الجواب على مشكلتك هذه:

إنَّ الله عزَّ وجلّ حينما تعلّقتْ إرادتُه بإيجاد هذا الكون بما فيه من مختلف أنواع الموجودات والحيوانات، اقتضت حكمته الباهرة أن يختار الإنسان من بين هذه الكائنات جميعها فيجعله سيّد الكون، وأن يجعل سائر مظاهره وموجوداته قائمة بخدمته، وأن يكل إليه عمارته وأمر تنظيمه، وذلك هو المعنيُّ بالخلافة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فكان أن جهَّز هذا المخلوقَ بمجموعةٍ مِن الصِّفات والملكات التي لا بدَّ منها لتتكامل لديه القدرة على إدارة شأن هذا الكون وتعميره واستخدامه، فبثّ فيه صفة العقل وما يتفرَّع عنها من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وسبر أغوارها والوصول إلى ما ورائها. وبثّ فيه معنى الأنانيَّة وما يتفرَّع عنها من النزوع إلى الأثرة والمنافسة والتملُّك. وبثَّ فيه أسباب القوَّة ومقوّمات التدبير، وما يتفرَّع عنهما من النزوع إلى السّيطرة والعظمة والجاه، ثمَّ بثَّ فيه مجموعةً من العواطف والأشواق والانفعالات، تعتبر متمّمةً لقيمة تلك الصِّفات وفوائدها، كالحبّ والكراهية والغضب ونحو ذلك.

وأنت خبيرٌ أنَّ الإنسان لم يستطع تسخير شيء ممَّا في هذا الكون، أو السّيطرة على شيءٍ من مظاهر الحياة وشؤونها، إلَّا يوم أن جهَّزه الله تعالى بهذه الملكات والصِّفات الخطيرة الهامَّة.

إلَّا أنَّ لهذه الصِّفات شِرَّة كبيرة، ولها آفات عظيمة، وهي أسلحة ذات حدَّين، إن استعملت في أحدهما جاء ذلك بالتنظيم العظيم للكون والخير الوفير للإنسان، وإن استعملت من الحدّ الآخر أو الحدّين معاً، جاءت بالشرّ الوبيل والفوضى الهائلة وأورث الإنسانيَّة شقاءً لا آخر له.

فمن أجل ذلك سمّى الله هذه «الأسلحة» أي الصِّفات التي ائتمن عليها الإنسان، بالأمانة، وبيَّن مدى أهميّتها وعظم شأنها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

ومصدر خطورة هذه الصِّفات، أنها في حقيقتها ليست إلَّا صفات الرّبوبيَّة. فالعلم والقوّة والسلطان والتملّك والجبروت، كلّها مقوّمات للألوهيَّة وصفات للرّبّ جلَّ جلاله. فمن شأنَّ هذه الصِّفات إذا وجدت في الإنسان أن تسكره وتأخذ بلبّه وتنسيه حقيقته وتجعله يتمطَّى إلى مستوى الربوبيَّة، وإن كان الإنسان لا يملكُ منها في الحقيقة إلَّا نماذج وعينات يسيرة جدًّا ومحدودة جدًّا بالنسبة لصفات الله عزَّ وجلَّ.

ومن نتائج الخطورة التي في هذه الصِّفات، أنها تحمل صاحبها على أن يستعمل صفة القوّة في ظلم الآخرين، وأن يُشبع نزوعه إلى السيطرة والسلطان في بسط نفوذه وسلطانه على المستضعفين من الجماعات، وأن يتجه بما لديه من أثرةٍ ونزوعٍ للتملّك إلى أموال غيره يستلبها ويعثو بها، ثمَّ من نتائج ذلك كلّه أن تتسابقَ جماعات من النَّاس بدافع هذه الصِّفات،

في ميدانٍ من الصِّراع الدَّمويّ على السُّلطان والجاه والممتلكات والحكم والقيادة، وإنَّ وقائع التاريخ المضطردة لتدلك على هذا دلالةً واضحة.

وهكذا تنقلب هذه الصِّفات إلى عامل اضطرابٍ وشقاءٍ في حياة الإنسان، وهي إنما ركّبت فيه لتكون عامل سعادةٍ ورقيّ ونظام.

فمن أجل ذلك، كان لا بدَّ من قوَّةٍ أُخرى لها سلطان على مجموع هذه الطّبائع والصِّفات، توجِّهها إلى الوجهة الصّالحة وتسيّرها في الطريق السليم، وتمنع الإنسان من أن يستعمل أسلحتها إلَّا من حدّها المفيد.

فماذا عسى أن تكون هذه القوّة التي هذا شأنها؟..

إنَّ هذه القوّة لا يمكن أن تتمثّل إلَّا في الدِّين، أي في العقيدة الصّحيحة عن الإنسان والكون والحياة، وعمّا وراء ذلك كلّه من المغيّبات.

والعقيدة الصَّحيحة التي يهدي إليها العقل والعلم، هي الإيمان بوجود الله ووحدانيّته، وأن لا سلطان حقيقياً في الكون غير سلطانه، ولا قوة قاهرة غير قوّته، ولا ملك غير ملكه، وكلّ ما وراء ذلك فهو مخلوقٌ لله عزَّ وجلّ يمنحه حين يشاء ويسلبه عندما يشاء، وأنّه الرّقيب على عباده كلّهم وسيبعثهم من بعد الموت فيحاسب كلًّا على ما كسب أو اكتسب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة].

فإذا تأمّل الإنسان في هذا كلّه وآمن به إيماناً جازماً قائماً على أساسٍ من البحث العقلي المتأمّل الحرّ، شعر في أعماق كيانه بأنّه عبدٌ لهذا الإله الواحد العظيم، وأصبحت هذه الصِّفات الخطيرة التي يتمتّع بها، أقلّ من أن تتجاوز به حدّ عبوديّته لله عزّ وجل، وما هي إلَّا أن تنقلب فتصبح وسيلةً

عظمى لسعادته من حيث إنه فرد، ولسعادة بني جنسه من حيث الجماعة، وتقوم بين النَّاس وشائج الأخوة والمساواة أمام عبوديتهم للخالق جلّ جلاله بعد أن كانت تقوم بينهم مسابقات ومنافسات غير شريفة في ميدان تتصادم فيه القوى، وتتقارع فيه الأسنَّة، ويقع المستضعف فيه ضحيّةً لنزوات القويّ وسكرة جنونه.

وحينئذٍ تغدو نزعة التملّك في الإنسان وسيلة طبيعيَّة لإقامة حياةٍ عادلة رخيَّة فوق أرضٍ يقوم فيها العمران، وتخضرّ في أنحائها الجنان، وتتكاثر في جنباتها الخيرات. وتصبح نزعة العلم والإدراك نوراً وهّاجاً ينكشف به المزيد من خدمات الكون لهذا الإنسان، وقبساً هادياً يذكّر الإنسان دائماً بحقيقة الذّات الإلهيَّة، ويحذّره من أن ينسى حدود عبوديّته فيتجاوزها. وتصبح نزعة القوَّة والبطش سبيلاً إلى حراسة الحقوق وحفظ العدالة والدّفاع عن العقيدة والمُثل الفاضلة.

وإنّ وقائع التاريخ ونماذج الحياة الإنسانيَّة التي قامت على هذه الأرض، لأكبر دليلٍ على هذه الحقيقة البدهيَّة الواضحة.

وتأمّل في هذه الآية من كتاب الله المبين، تجدها تحدّثك عن كلّ هذا الذي ذكرته، باختصار ووضوح، وتأمّل في قوله وهو يقصّ علينا خبر إرسال موسى عليه الصَّلاة والسَّلام إلى فرعون: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

وانظر إلى هذا النموذج التطبيقي الذي تمَّ فعلاً ببعثة موسى عليه السّلام، ودخول من دخل على يديه في الإسلام:

هؤلاءِ سحرة فرعون، كانوا يعيشون عبيداً خاضعين له، قد سلخ منهم إنسانيتهم وعزَّتهم التي فطرهم الله عليها، فحياتهم بكلّ ما فيها ليست إلَّا عنواناً ودليلاً على سلطانه وعزّته وجبروته، تأمّل، تجد هذا كلّه واضحاً فيما صوّره القرآن من ضعفهم ومهانتهم عندما أمرهم فرعون بأن يُظهروا من سحرهم أمام موسى ما يملأ قلبَه رعباً ويردّه عن الدّعوة التي جاءهم بها، انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، فهم، فيما يحسبون، إنما يتحرَّكون بقوَّته ويغلبون بعزَّته وهم ليسوا إلَّا ظلًّا لسلطانه.

فلمَّا نظروا إلى ما جاءهم به موسى، وعلموا أنَّه ليس بسحر، وإنما هو الحقّ الذي يؤمن به الحسّ ويصدّقه العقل، ودخل الإسلام قلوبهم، نظروا فأبصروا فرعون على حقيقته: بشراً من النَّاس مثلهم لا يعلو عليهم بأيَّة زيادة، ونظروا إلى نفوسهم فأبصروا ما لها من الكرامة والحريَّة والعزَّة التي فطر النَّاس كلّهم عليها، فأعلنوا أمام فرعون عن حرّيتهم هذه بانخلاعهم عن التبعيَّة له وخروجهم عن العبوديّة الزّائفة لسلطانه إلى العبوديَّة الحقيقيَّة لله تعالى.

ولمَّا توعَّدهم بالتَّعذيب والصَّلب والهلاك، أجابه السحرة الذين كانوا يقولون له منذ دقائق فقط بكلِّ ذُلٍّ وخضوع: بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون ـ أجابوه من مركز متسام رفيع: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه].

وبكلمةٍ موجزة نقول: إنَّ شأن العقيدة الإسلاميَّة وتوابعها أنها تنزل بالمتألِّهين والمتكبِّرين من عليائهم وجبروتهم، وتحجزهم عن التَّطاول على

الآخرين. وأنها ترتفع بالدّهماءِ والمستضعفين عن مناخ الذلّ والصّغر المتلبِّس بهم، وتطلقهم فوق صعيد الحرّيَّة والكرامة، وتعيد إلى كيانهم مشاعر العزّ والإباء. وبذلك يلتقي هؤلاءِ وأُولئك عند حدودٍ عادلةٍ متساوية، لا تدع لهذا الجانب أو ذاك أيّ فرصةٍ لاستغلال أو أيّ وسيلةٍ لاستعباد.

فمن هنا كانت حاجة الإنسانيَّة كلّها إلى أن تدين لبارئها عزَّ وجلّ بالاعتقاد الجازم بوجوده ووحدانيّته، وتلك هي الحكمة في أن يلزم الله عباده بالدِّينونة له والتزام شريعته وعامَّة أحكامه، أي إنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس هو المحتاج إلى شيءٍ من هذه الطَّاعة والعبادة، ولكن سعادتنا الدّنيويَّة ـ فضلاً عن الأخرويَّة ـ هي التي تُحوجنا وتَضطرّنا إلى ذلك.

على أنَّه ينبغي أن لا ننسى أنّنا عبيدٌ لله عزّ وجلّ بالجبر والفطرة والطبيعة، فالشأن المنسجم مع هذه الحقيقة أن نكون عبيداً له بالسُّلوك والقصد والاختيار. وصدق الله ربّ العالمين إذ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذّاريات].

قال الشابّ: فقد استوعبتُ هذا الذي تقول واقتنعتُ به، ولكن بقي إشكالٌ آخر أُحب أن أعرف الجواب عنه:

لا شكَّ بأنَّ الله عز وجل متّصفٌ بالعدالة المطلقة والرّحمة الغامرة، غير أننا نجد بين عباده في هذه الحياة أُناساً يتقطّع الكبد لما هم فيه من البلاء والمصائب، دون أيّ جريرة أو جريمة ارتكبوها، ونجد في مقابلهم آخرين يسبحون في بحار من النّعيم دون أن يتمتّعوا بأيّ خصائص

أو خدماتٍ تؤهّلهم لذلك، فكيف أستطيع أن أتصوّر عدالة الله عزّ وجلّ في هذا المظهر[١].

فقلتُ له: مرةً أُخرى أُحب أن أتأكّد من أنّك مؤمنٌ بوجود الله تعالى قبل كلّ شيءٍ، فإنّي أعلم أنَّ في الملاحدة مَن يسوقون بين يدي إلحادهم هذه الشُّبُهة دليلاً على كفرانهم بالله عزَّ وجلّ، فمثل هؤلاءِ النَّاس لا يُجدي معهم البحث في هذه الشُّبْهة، لأنهم يُلحدون في ذات الله تعالى بدون حاجةٍ إلى الاعتماد عليها، أي إنهم إنما يناقشون في هذا الأمر دعماً للباطل الذي استقرّ في نفوسهم من قبل، لا أنَّ الباطل أصبح يحومُ حول نفوسهم بسبب هذه المشكلة ذاتها.

فقال: بل أنا مؤمنٌ، ولكني مُستشكل.

قلتُ فإليك الجواب: إنَّ جملةَ ما قد تراه من المصائب والنكبات المتلبّسة ببعض النَّاس في هذا المجتمع تنقسم إلى قسمين:

مصائب كسبيَّة، لوضع المجتمع ونظامه أثر فيها، ومصائب قسريَّة ليس للمجتمع أو النَّاس أيّ سلطانٍ عليها.

فأمَّا الكسبيَّة، فإنَّ مردّ المشكلة فيها إلى ما كنّا نذكره جواباً عن شبهتكَ الأولى: فهي إنما تشكّل دليلاً عمليًّا آخر على مدى حاجة المجتمع إلى التمسّك بشرعة الإسلام وعدم الخروج على نظامه.

لقد شاء الله عزّ وجلّ أن تكون شريعته هي مظهر عدالته فوق هذه

---

(١) ظهر لنا كتاب مستقل أخيراً في الإجابة على هذا السؤال، وعنوانه: الإنسان وعدالة الله في الأرض.

الأرض، في الحياة الدّنيا، واقتضتْ حكمةُ الله عزّ وجلّ أن يكون الإنسانُ هو الخليفة في تحقيقها وتنفيذها.

وهذه الشريعة، تحمل في طيّها الدّواء لكلّ ما قد تراه من المصائب الكسبيَّة التي ينفثها المجتمعُ وباءً في كثيرٍ من النَّاس، كالفقر والاستعباد والظُّلم، وكثير من المصائب التي تحيق بالأسَر والأولاد... فيوم تطبّق أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة بدءاً من العقيدة السَّليمة، فالعبادة الخالصة الرَّشيدة، فالأحكام التشريعيَّة المتعلّقة بتنظيم المجتمع، نقول: يوم تطبّق شريعة الله بهذا الشكل فإنّك لن تجد من حولك أيّ مظهرٍ للفاقة والعوز أو الاستعباد والظلم أو المصائب المختلفة.

ولئن كانت المجتمعات التي نعيش فيها اليوم تحمل ـ ويا للأسف ـ الدّليل السّلبي على ما نقول، فإنّك لتجد في كثيرٍ من المجتمعات التي خلتْ ومضَتْ من قبلِنا الدّليل الإيجابي المشرق على ما أقول. ولو رحتُ لأنثر لك صفحاتٍ من وقائع المجتمعات الغابرة التي إنما نعيش اليوم في ظلّ أمجادها ونتفيَّأُ بقايا ظلالها، لطال بنا الحديث ولاقتضى ذلك أن نفتح موضوعاً مستقلاً في التاريخ.

لقد أقامنا الله عزَّ وجلّ إلى أجلٍ محدودٍ فوق هذه الأرض، وجهَّزنا بالدّواءِ النَّاجع والتعليمات المفيدة لكلٍّ ما قد يُصادفنا فيها من مرضٍ ومُصيبة وبلاءٍ، وأمرنا أن نستعمل هذا الدّواء لمقاومة تلك المصائب، فعمدنا إلى الدّواءِ فألقيناه وراءَنا ظهريًّا وعمدنا إلى صحيفة التعليمات فألقينا بها وراءَ حواجز القرون والتاريخ، فكان أمراً طبيعيًّا بعد ذلك أن نلتفت فنجد أمراضاً تستفحل دون أن نجدَ علاجاً لها، ومصائب تتكاثر دون أن نملكَ وسيلةً للتغلّب عليها، ففيم التأفّف والضَّجر ممّا كنّا نحن

السبب في أمره، وفيم الصّراخ والبحث عن عدالة السماء وقد تنزَّلت علينا عدالة السماءِ مجسّدةً في شكل دينٍ ونظامٍ وتشريعٍ فانسلخنا عن مضمونها واكتفينا منها بالاسم والعنوان والغلاف.

وأمَّا المصائب القسريَّة التي لا دخل للنّاس والمجتمع فيها، كالآفات والعاهات ونقص الأنفس والثّمرات، فاعلم أنَّ الأمر فيها تابعٌ للسنّة التي أقام الله عليها طبيعة هذه المرحلة من الحياة، ونقول: هذه المرحلة، لأنَّ حياتنا فوق هذا الكوكب الأرضي مرحلة قصيرة أُولى، هي ليست ممّا وراءها أكثر من توطئةٍ ومقدّمةٍ وتمهيد.

وقد أوضح الله عزّ وجلّ هذا في صريح تبيانه إذ قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وحينما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة].

والحكمة في هذه الإرادة الإلهيَّة، أنَّ نظام الشريعة الإسلاميَّة في مجموعها، إنما يقوم على أساس العبوديَّة المحضة لله عزّ وجلّ، فبدون أن يرتدي الإنسان رداءَ العبوديَّة الخالصة لله عزّ وجلّ، لن يستطيع تحقيق أحكامه وتشريعاته، والعبوديّةُ لله عزّ وجلّ إنما تقوم على اجتياز امتحاناتٍ في الفقر والغنى والعسر واليسر والمنشط والمكره.

وهنا ينبغي أن تعلم أنَّ من الخطأ أن تتصوَّر بأنَّ البلاءَ إنما هو في المصائب فقط، فالغنى ابتلاءٌ والفقر ابتلاء، والعافية ابتلاءٌ والمرض ابتلاء، والمطلوب من المسلم أن يكون شكوراً في حالة الغنى والعافية، صبوراً في حالة الفقر والمرض، ومن الخطأ أن نتصوّر أنَّ الشكر أيسر من

الصَّبر، وأنَّ الثاني أشقّ من الأوَّل، بل الذين تنزلق أقدامهم بسبب الغفلة عن الشكر أكثر بكثير ممّن يعجزون عن الصَّبر.

ثُمَّ إنَّ كلًّا من الحالين عبادةٌ شرعها الله عزّ وجلّ، لنستأهل بها أسباب رضوانه في الحياة الباقية الأخرى.

ومع ذلك، فإنّك إذا تأمّلت، علمتَ أنَّ هذه المشكلة ليست مشكلةً إلَّا في أذهان أو في حياة مَن حُرموا نعمة الإيمان بالله عزّ وجلّ، فهم الذين يتصوّرونها وهم الذين تترعرع المشكلة في حياتهم، فيمضون يردّدونها ويهتمّون بالحديث عنها.

أمَّا المؤمن فهو في الحقيقة في حرزٍ حصينٍ يُبعِدُهُ عن هذه المشكلات كلّها، إذ الإيمان هو ينبوع الرضا في حياة الإنسان، فمهما أُوذي المؤمن وأصابه العنت، فإنَّه يذكر دائماً قول ربّه جلّ جلاله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]. فينغمس فؤادهُ في لجّةٍ من الصَّبر الجميل والرضا عن الله عزَّ وجلّ.

وكم من فقيرٍ متربٍ ذي عيالٍ وأولاد، يعيش من إيمانه بالله عزّ وجلّ في سعادةٍ لا يلقاها ولا يحسّ بها كثيرٌ من أصحاب الثروات الطَّائلة مهما فتّشوا عنها بين مظاهر الترف والرّاحة والنعيم، وكم من ثريٍّ مُعافى في بدنه وأهله ما أغنتْه ثروته وعافيته شيئاً من عذاب نفسهِ وضيق قلبه، فعاش يحسدُ البسمة على فم الفقراء والمنكوبين، ثمَّ مات مختنقاً وسط ضبابٍ من أحاسيس الكرب والشّقاءِ الأليم.

دع الخلق يا أُخيَّ للخالق!.. ولا تحكم على النَّاس بالسّعادة والشقاء بمقياس ما تبصره عيناك أو تلمسه يداك، فألطافُ الإله خفيَّة،

تنسكب في الأفئدة عن طريق لا تُبصره عيناك، ولا تسمعه أُذناك، ولا يُحسُّ به شُعورك.

ثمَّ إنَّ هذه الدّنيا إنما تعدّ مظهراً للسّعادة أو الشّقاء في نظر مَن رآها قصّةً لحياةٍ كاملةٍ!.. وهيهات أن تكون كذلك.. إنما هي مجرّد معبرٍ إلى حياة الخلود، فهي جزءٌ يسير من قصّة حياةٍ أبديّةٍ طويلة، وهي رقعة صغيرة في لوحةٍ كبرى لمنظرٍ شاملٍ عظيم.

فمن ذا الذي يُبصر الفصل الأوّل من القصّة على مسرحٍ، ثمَّ يسرع فيحكم عليها من خلال ذلك الفصل بالفساد أو الاضطراب أو فقد العدالة في مفهومها ووحيها!. ومن ذا الذي يدنو فيحملق في رقعةٍ صغيرةٍ من لوحةٍ عظيمةٍ أبدعتها ريشة فنان، فيحكم عليها من خلال ما يبصره فيها من الخطوط المتموّجة والألوان المتداخلة؟!

سوف يتكامل مرور النَّاس على معبر هذه الدّنيا التي نراها، وسوف يقوم النَّاس لربّ العالمين، وستتكامل حينئذٍ عناصر القصّة، فما من منكوبٍ صابرٍ مسلمٍ كنت تشفق عليه في الدّنيا إلّا وتتمنّى أن لو كنت مكانه في الآخرة، وما من سعيدٍ منعمٍ مسرفٍ على نفسِه في الدّنيا إلّا وتشفق على ما هو فيه من بؤس في الآخرة، وسوف تسمع صوت الحقيقة يملأ سمع الزَّمان والمكان:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].



البحث عن الحقيقة
بين المنهج العلميّ والدِّيني

لكي يأتي حديثنا عن هذه المسألة دقيقاً وواضحاً في آنٍ واحد، يجب البدء بالإجابة عن هذا السُّؤال:

هل من فرقٍ بين المنهجين: العلمي والدِّيني، لدى البحث عن أية حقيقة؟

والجواب يتوقّف على معرفة المقصود بالعلم.

فإن أردت بهذه الكلمة معناها اللغوي والمنطقي العام، وهو: إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع، فلا ينبغي توهّم أي فرقٍ بين المنهجين، بل الفنون المختلفة كلّها، ليست، في هذه الحال، إلّا فروعاً شتى تلتقي تحت هذه الكلمة الجامعة: العلم. فما التاريخ واللغة والدِّين والفلسفة والطبيعيَّات وغيرها من الفنون إلَّا علوماً تُدرس ابتغاء إدراك حقائقها على ما هي عليه في الواقع.

أمَّا إن أردتَ بالكلمة معناها الاصطلاحي الحديث، وهو: البحث في تحليل الموجودات الخاضعة لإحدى الحواسِّ البشريَّة، فلا جرم أن ثمة فرقاً بين المنهجين، لدى محاولة الوصول إلى حقيقةٍ ما، بقطع النظر عمّا سنجده بينهما من التلاقي والتلازم.

إنَّ العلم، في هذه الحال، إنما هو الوصول إلى تحليل موجودٍ مّا، وإدراك عناصره إدراكاً صادقاً بميزان من الحسّ المجرّد. أمَّا البحث العلمي فهو يعني محاولة الوصول إلى هذا الإدراك بالوسائل التجريبيَّة الخاضعة للحواسّ.

وتبقى «النظرية» كلمة ذات دلالةٍ على كل المدركات الكلِّيَّة المطلقة التي تخلّفت عن درجة العلْم، وظلّت خاضعةً لمزيدٍ من الدّراسة والبحث.

أمَّا عن المشكلة التي تسوقنا إلى دراسة هذا البحث، فهي مشكلة فريقٍ من النَّاس، يقفُ أحدهم على منصَّة التدريس في مدرسةٍ أو يجلس متصدّراً للبحث في محفلٍ أو مجتمعٍ، ثمَّ يمضي يقرِّر ـ في طمأنينةٍ واعتداد بالنفس ووثوق بالفكر ـ ما يُسمى بنظريَّة التسلسل المادِّيّ مثلاً، أو فرضيَّة عامل الصّدفة في وجود الكون، أو فرضيَّة النّشوءِ والارتقاءِ، فإذا ما سأله تلميذ أمامه أو مستمعٌ ممّن حوله: ولكنَّ الإسلام يخالف هذا الذي تقرّره، ويحكم في المسألة بعكس ما تقول ـ أسرع فأجابه في غير مبالاة:

نحن إنما نبحث في العلم، ولا شأن لنا بما يقرّره الدِّين!..

تلك هي المشكلة التي تحوجنا إلى دراسة هذا البحث، دراسةً دقيقة، رغم أنها لا ترقى من الأهميَّة إلى الدرجة التي تستأهل منّا كلّ هذا الاهتمام.

والحقيقة التي لا أُخفيها عن القارىء، هي أنني أذهب في تقديس الحقيقة العلميَّة إلى أبعد ممّا يذهب إليه مثل هذا المتحدّث. فأنا لا أكتفي بأن أقول عن الدِّين الذي يختلف عن الحقيقة العلميَّة الثابتة: لا شأن لي

به، بل لا بدَّ من أن أكشف عن استنكاري له وجحودي به، في جنب الحقيقة العلميَّة التي لا أملك إلَّا التشبّث بها والاعتماد عليها.

ولا معنى لذلك الاحترام (الغيبي) للدّين الذي لا ينطلق من نقطة الاعتماد على العقل الكامل والحقيقة الثابتة، بل لست أفهم لذلك الاحترام أيّ معنى غير معنى النفاق والمصانعة والرّياء.

ولا يمكنني ـ ما دمتُ واحداً من العقلاء الذين يفرض العقل عليهم منهج البحث ـ أن أفهم ما يقوله أمثال وليم جيمس من أنَّ العقيدة قد تأتي خاضعةً لما تمليه الإرادة وحدها، وأنَّ الإنسان يمكنه في كثيرٍ من الأحيان أن يجعل الحقيقة نفسها خاضعة لعقيدته[1]!..

ولكن ألا ينبغي أن نتساءل ـ وفاءً بحقّ البحث العلمي ـ عن مدى

---

(١) يقول وليم جيمس: إن كثيراً من الاعتقادات يكفي في السبيل إليها مجرد الرغبة في الحيطة والحذر... فالمسائل الغيبية الدِّينية قد لا نملك البرهان العلمي التجريبي عليها، ولكنا في الوقت نفسه لا نملك البرهان العلمي على نقاضها، إلَّا أن إنكارنا لهذه المسائل ـ على فرض صحتها وأحقيتها ـ يعرضنا للشقاء الأبدي. وإذا كان لا مندوحة لنا من اختيار أحد طرفي الإيمان أو عدمه، وكلاهما لا برهان علمياً عليه فإن اختيار الإيمان أدعى إلى الطمأنينة وأقرب إلى ما يقره كل من النفس والعقل من مبدأ الحيطة والحذر.
ومرد نظرية جيمس هذه إلى ما قام من صراع بين طبيعة كثير من مسائل الدِّين المسيحي والحقائق العلمية جعل علماء الاجتماع والفلسفة والأخلاق في حيرة من كيفية الخروج من المأزق واختيار السبيل الأمثل الذي يوفق لهم بين منهج العلم والفطرة المتطلعة إلى الدِّين، فلقد آثروا التوفيق بهذا الشكل الذي انتهجه جيمس وكثير من أمثاله. (انظر: «إرادة الاعتقاد» لوليم جيمس، والعقل والدِّين له أيضاً).

تقدير هذا المتحدّث نفسه للحقيقة العلميَّة التي يُزهىٰ بين طلَّابه أو زملائه بالحديث عنها؟.

إنَّ البحث في فرضيَّة مبدأ النشوء والارتقاء، أو فكرة التسلسل المادّي، أو عامل الصّدفة في إيجاد الكون ـ لا يدخل شيءٌ منه ضمن دائرة البحث العلمي أصلاً، فضلاً عن أن يكتسب الحكم فيه معنى الحقيقة أو النظريَّة العلميَّة[1].

فالعلم (بمعناه الخاصّ الذي ذكرناه) لا شأن له إلَّا بتحليل الموجودات الماثلة أمامنا، على أن تكون وسيلة التّحليل هي: التجربة والمشاهدة، لا الإدراك والفكر (المطلق).

وتصوّر مثل هذه النّظريَّات التي يظلّ بعض النَّاس يلوكونها شعاراً لإبداءِ نزعةٍ فكريّةٍ لا أكثر ليس في حقيقته إلَّا اعتقاداً بأمرٍ غيبيٍّ مطلق، ليس له من وجودٍ محسوسٍ أمامنا الآن. ومهما حاولتَ أن تتفلسف في سبيل استخراج الشواهد والبراهين على ذلك، فلن تتجاوز دائرة البحث التاريخيّ المجرّد، وهيهات أن يكون للحديث عن التاريخ وتحقيقاته أدنى مساسٍ بالبحث العلمي وتحليلاته.

وتسألني: فكيف توهّم هذا الباحث مع ذلك أنَّه إنما يبحث في الحقائق العلميَّة بطرائقها التجريبيَّة؟

---

(١) ينبغي أن يظل القارىء الكريم متذكراً أن المعني بالعلم هنا معناه الاصطلاحي الحديث الذي يحاجج به خصوم الدِّين. وهو البحث في الموجودات المحسوسة تحليلاً وتكييفاً، وبالوسائل التجريبية المشاهدة.

والجواب: أنَّ السبب هو ما قد وقع فيه، فكره، من خلطٍ بين كلٍّ من دليلي التجربة والاستنتاج.

وما من ريبٍ أنَّ على من يريد أن يحترم العلم ويتبجّح بنسبة نفسه إليه، أن يُدرك قبل كلّ شيءٍ ما هو معروف وواضح من الفرق العظيم بين كلٍّ من دليلي التجربة والاستنتاج.

فالعلم الذي يتولّد عن طريق التجربة، هو النتيجة التي يحسّ بها الباحث بممارسة موضع العلم نفسه، تحليلاً وتكييفاً ومقارنةً. ولا ينبغي للعالم (ما دام ملتزماً بمبدئه التجريبي) أن يُلقي البال إلى شيءٍ من المستلزمات التي تطوف حول موضوعه الذي يبحث فيه بالذات.

فالعلم الذي تستخرجه التجربة لدى اصطدام رأس أحدهم بالجدار مثلاً، إنما هو: وجود الاصطدام، ووجود الألم المدرك من ورائه، ووجود الصّلابة المدركة أيضاً. أمّا استلزام ذلك لوجود الحائط وأنّه قائمٌ من حجر أو لبن أو اسمنت، فهو من المستنتجات التي لا تدخل في دائرة النتيجة العلميَّة لتجربة ذلك الاصطدام.

أمّا تلك المدركات التي نتوصّل إليها بواسطة الاستنتاج، فهي تشمل كلّ ما قد يتخيّله الذّهن من التقديرات لأمورٍ غائبةٍ عنّا أو سابقةٍ على عصرنا، عن طريق تجميع النّتائج والآثار المحيطة بها أو المتخلّفة من ورائها.

وتتفاوت درجات اللزوم بين هذه النتائج وتلك المغيّبات، قوّةً وضعفاً، تفاوتاً كبيراً، حسب مدى وفرة الشروط العقليَّة الضروريَّة للزوم الحتمي في كلّ مسألةٍ بخصوصها.

ومن أجل ذلك يقسم علماءُ المنطق درجات اللزوم بين شيئين إلى ثلاث درجات: **أقواها**: اللّزوم البيّن بالمعنى الأخصّ، **وثانيها**: اللزوم البين بالمعنى الأعمّ، **وأدناها**: اللزوم غير البين.

وما دون هذه الدرجة يعدّ لزومات وهميَّة لا تستند إلى أكثر من دليل الاحتمال.

فإذا أدركتَ الفرق الجلي بين المنهجين، علمتَ أنَّ شيئاً ممّا يتنطَّع به المتعالمون، من الحديث عن مادِّيَّة الكون أو التطوّر والارتقاء، أو غير ذلك ممّا يطوف به ويشبهه لا يدخل في دائرة البحث العلمي ولا يدنو إليها.

فصاحب نظريَّة النشوء والارتقاء مثلاً، إنما يستنتجها من تلك المستحاثات المكتشفة في بعض طبقات الأرض بعد سلسلة من الفروض الوهميَّة أو التقديريَّة الأخرى. وصاحب فرضيَّة التسلسل المادّي إنما يستنتجها من فرضيّةٍ تاريخيَّة أُخرى لم يرها ولم يعاصرها ولم تدخل بتاتاً تحت مجهر بحثه وتجربته.

وهكذا نجد أنّنا مضطرّون إلى تسفيه هذه الفرضيَّات، بالسِّلاح العلمي ذاته الذي يشهره ذلك المتنطّع على الدِّين إذ يقول: إننا نبحث في العلم ولا شأن لنا بما يقرّره الدِّين!..

* * *

تلك هي المشكلة التي تسوقنا، كما قلت، إلى دراسة هذا البحث.

غير أنَّ علينا أن نتساءل مرّةً أُخرى بين يدي بحثنا: هل المدركات اليقينيَّة لا سبيل إليها إلّا عن طريق البحث العلمي بمعناه الحديث؟ وبتعبيرٍ

آخر: هل يعني العلماءُ ـ الذين لا يؤمنون في تحليل مسائلهم العلميَّة إلَّا بالبحث التجريبي المحسوس، من أمثال (هيوم) وغيره ـ أنَّ العقل لا يستيقن من الموجودات إلَّا ما وفد إليه عن طريق هذا العلم وحده؟!

لا ريب أنَّ أحداً من العلماءِ لم يحتقر عقله إلى هذا الحدّ، ولم يقل شيئاً من هذا الكلام ولا قريباً منه.

فإنَّ هيوم مثلاً، وهو من أشدّ المتحمّسين للتمسّك بالطريقة التجريبيَّة في البحث العلمي، لا يمكن أن يزعم بأنّه يشكّ في وجود الجدار الذي اصطدم به رأسه، لمجرّد أنَّ التجربة لم تلامس إلَّا الصّدمة والألم والإحساس بالصّلابة، ولا يمكن أن يزعم بأنّه غير مستيقنٍ بوجود أُستاذٍ يُلقي على طلابّه محاضرةً في التاريخ في القاعة المجاورة التي يسمع منها صوته وحديثه، ولا يمكن أن يشكّ في براعة المهندس الذي أقام صرح إشبيلية، وفي روعة فنّ ذلك الذي نقش جدرانه، ولا يمكن أن يتجاهل إعجابه بعبقريَّة ذاك الذي ألّف تلك الألحان المفضّلة التي يطرب لها!!.

أجل، إنَّ هذه الحقائق من أَوضح المدركات اليقينيَّة عند هيوم وغيره من العقلاء، على الرغم من أنها لم تستقرّ في اليقين عن طريق التجربة والمشاهدة، بل عن طريق الاستنتاج ليس إلَّا.

والمهمُّ أن تعلم أنَّ هذه الحقيقة المسلَّمة، لا تتناقض إطلاقاً، مع ما يلتزمه أصحاب المدرسة التجريبيَّة من ضرورة أخذ الأحكام العلميَّة عن طريق التجربة والمشاهدة فقط.

ذلك لأنَّ أحداً منهم لم يزعم أنَّ العلم (باصطلاحه الخاصّ) هو وحده السبيل إلى المدركات اليقينيَّة، حتى يستلزم ذلك القول بأنَّ المدركات كلّها لا تكون يقينيَّة إلَّا إذا جاءت بواسطة التجربة والحسّ.

وإنما الحقيقة هي أنهم جعلوا كلمة (العلم) اصطلاحاً على البحث في الأشياء المشاهدة تحليلاً وتكييفاً، لفهم حقائقها على ما هي عليه.

وإنَّ من طبيعة هذا البحث أنَّه لا تُفهم الحقائق العلميَّة الخاضعة له على سبيل اليقين إلَّا بواسطة التجربة والمشاهدة، فاشترطوا لعدّ المدركات المأخوذة من هذه الأشياء (المشاهدة بالذات) مدركات يقينيَّة، أن تمرّ بسبيل التجربة المشاهدة.

أمَّا الأشياء والأمور الأخرى التي لم تدخل تحت موضوعات (هذا العلم) أصلاً فإنَّ لها طريقتها الخاصَّة بها في البحث والنّظر، وإذا كان الاصطلاح الحديث لكلمة العلم لم يعد يشملها، فليس ذلك دليلاً على أنها لم تجد لنفسها سبيلاً إلى الإدراك اليقيني منذ ذلك التاريخ.

إنَّ البقّال الذي يمارس التجارة في متجره لا يستطيع أن يُثبت للأشياء التي عنده أيّ قيمةٍ من حيث الكمّ، إلَّا حسبما يثبته ميزانه المعتمد لديه. غير أنَّ ميزانه هذا لا يُعطينا أيّ حكم حول زنة بضعة مثاقيل من الذهب أو البلاتين مثلاً، فهل يعني ذلك أنَّه ساقط عن درجة الاعتبار في نظر البقّال؟!.

إنَّ المسألة ليست إلَّا تصنيفاً للأجهزة التي يتمّ بها الكشف عن حقائق الأشياء حسب تنوّع هذه الأشياء نفسها.

وهنا يجب أن أُطلعك على الفرق بين التفكير الدِّيني كما يفرضه الإسلام والتفكير العلمي المطلق كما يمارسه الباحثون خارج دائرة الإسلام.

إنَّ من أُولى شرائط العقيدة الإسلاميَّة، في سائر مسائلها الكليَّة والجزئيَّة، أن تقوم على أساسٍ من اليقين العقلي الصّحيح.

وفي تقرير هذا المبدأ يتّجه الخطاب الإلهي إلى الإنسان قائلاً:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

والتزاماً بهذه الفريضة المحتومة، وضع علماءُ الإسلام منهجاً للبحث من شأنه أن يضمن للباحث تجنّب الوقوع في أيّ لَبسٍ أو تخبّط أو وهم، حيال ما يريد أن يصل إليه من إدراكٍ يقيني أو (علم مطلق) كما يُعبر الاصطلاح الحديث.

ولهذا (المنهج) قصّة طويلة وتحليل واسع المدى وطويل الذّيل، وحسبك أن تعلم أنَّ الفكر الغربي لو استجمع كلّ عزمه وإمكاناته للتمسّك بمنهجٍ مثله ولِوضْعه موضع التنفيذ، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا عَجزاً في الملكة الفكريَّة، وإنما فقراً إلى الدافع الذي يستسهل الأعباء الثقيلة له(١).

فمن ركائز هذا المنهج، تصنيف درجات الاستنتاج إلى مراتبه الثّلاث، كما قلنا، والاعتماد على المرتبة الأولى منها فقط، وهو (اللزوم البيّن بالمعنى الأخصّ).

ومن ركائزه الأساسيَّة أيضاً تصنيف كلّ ما قد يتلقّاه الإنسان من أبحاثٍ إلى نوعين لا ثالث لهما: خبرٌ وادّعاء.

أمَّا الخبر، فلا بدّ لقبوله ضمن المعتقدات العلميَّة من توفّر الشروط المعروفة لصحّة النّقل، وهي وجود رابطة السّند بين النَّاقل ومصدر الخبر، واتصاله اتصالاً تامّاً، وتألّف حلقاته من رواةٍ ثقاتٍ عدولٍ ضابطين بشهادة

---

(١) استوفينا شرح هذا المنهج في كتاب: «كبرى اليقينات الكونية».

مَن يعلمهم من الثقات. ثمَّ لا بدَّ فيه بعد ذلك من التواتر، وهو أن يتوفّر على نقل ذلك الخبر جمعٌ يستحيل تواطؤهم على الكذب عن جمع مثله إلى مصدر الخبر.

وأمّا الادّعاء: فلا بدَّ لقبوله من توفّر مقوّمات الصّحَّة فيه، وهي لا تعدو أن تكون دليلاً من أدلّة العلم والمشاهدة، أو دليلاً لزوميًّا **بمعناه الأخصّ**.

وتحقيقاً لجملة هذا المعنى، وضع علماءُ الإسلام تلك القاعدة الذّهبيَّة التي لا ترقى إلى تصوّرها أفكارُ كثيرٍ من الذين يتنطّعون اليوم باسم العلم وما هم منه في شيءٍ، وهي:

إن كنت ناقلاً فالصّحة، أو مُدّعياً فالدَّليل(١).

ومن ركائزه، التقدير المطلق لكلّ ما قام البحث فيه على المشاهدة والتجربة، ممّا ينطبق على كافّة البحوث والاكتشافات العلميَّة التي يتوصَّل إليها الباحثون من وراءِ تجاربهم وأبحاثهم.

هذا عن خلاصة المنهج الإسلامي للبحث عن الحقيقة.

أمّا منهج الآخرين، فحسبك أن تعلم أنَّ شيئاً من الركائز التي ذكرناها، غير معتدٍّ به لديهم، وحسبك أن تقرأ كتاباً في التاريخ أو علم النّفس أو الأخلاق أو الفلسفة المادّيَّة للوجود، لواحدٍ ممن لم يربط نفسه

(١) هذا المعنى الذي نلخصه هنا في بضعة أسطر، بسطه علماء الإسلام في فنون واسعة متعددة، كفن مصطلح الحديث، والرجال، والجرح والتعديل وآداب البحث. وهي فنون لا تخطر في بال أدعياء المنهجية من الغربيين ومن لف لفَّهم، فضلاً عن أن ترقى إلى الانضباط بها والارتباط بمنهجها.

بالمنهج الإسلامي في البحث، لترى الصّور المذهلة من الاستنتاجات الوهمية التي لا تقف عند الدرجة الثالثة ولا الرّابعة من مراتب اللزوم.

والغريب العجيب المذهل أن تظلَّ هذه الطريقة، مع هذا، طريقة (علميَّة) مقدّسة، عند ذوي العقول التقليديَّة، من أبناء جلدتنا، يعضّ عليها بالنواجذ والأضراس والأنياب!.



الرِّق في الإسلام شريعة باقية ولكن...

. . ولكن ما معنى كونه شريعةً، وما معنى أنها باقية؟

تلك فقط هي المشكلة. . وهي ـ كما ترى ـ مشكلة تتعلّق بفهم موقف الإسلام من الرّق، لا بموقف الإسلام نفسه.

فلو فهم المستشكلون معنى كون الرّق في بعض صوره مشروعاً، ومعنى كون هذه الشرعة باقية مستمرّة، لما رأوا في هذه المسألة أيّ شبهة تحتاج إلى نظر فيها أو كشفٍ عنها، ولما رأوا أيّ ثُلمةٍ يمكن أن ينفذ منها سوءٌ إلى حقيقة الإسلام ونظامه.

وكم من مشكلةٍ يحسبها بعض الباحثين مشكلةً في الإسلام وحكمه، وهي ليست أكثر من مشكلةِ جهلهم بحقيقة الإسلام وحكمه!. .

وقد انتهى الأمر ببعض المسلمين في هذا العصر إلى حدّ أنهم يريدون أن يعلموا كلّ شيءٍ عن الإسلام، وكلّ شيءٍ عن نظامه وطبيعته، دون أن يتحرَّك أحدهم عن مجلسه الأرائكي الحالم، ودون أن تكلّفه لفهم كلّ ذلك إلّا بقراءة ما طاب له من الجرائد والمجلّات وما لفَّ لفّها، ممّا خفَّ حملُه في اليد وقلّت مؤونتُه على الفكر!. .

ولكن الإسلام لن ينزل إلى حضيض هؤلاءِ أبداً، وما يتخيّلونه منه نازلاً إلى مستواهم لاحقاً برغباتهم، ليس في أكثر الأحيان إلّا زيفاً

وباطلاً، خيّل إليهم جهلُهم أنَّه الإسلام وما هو بذلك. وما يضرّ الإسلامَ شيئاً أن يكون في النَّاس مَن لا يعلم حقيقته، ولكن ذلك إنما يضرّ بهم أنفسهم الضّرر كلّه.

* * *

ومسألة الرّقّ في حكم الإسلام، واحدةٌ من المسائل الكثيرة التي يشتهي بعض النَّاس أن يقول فيها برأيه. يزعم أنَّه إنما يدافع بذلك عن الإسلام ويكشف عن حقيقته، إن كان مسلماً، أو يخيّل إليه أنَّه ينال بذلك من سلطانه ويضعف من قوّته إن كان ملحداً!..

ذاك يقول: إنَّ الإسلام قضى على الرّقّ، فلا رقّ في شريعة الإسلام أصلاً.

وهذا يقول: إنَّ الإسلام يتبنَّى الرّقّ ويبيحه دون أن يحسب لحرية الإنسان أيّ حساب!..

وكلا القولين خلط باطل، لا علاقة له بشيءٍ ممّا تقضي به شرعة الإسلام.

ودعني أُوجز لك خلاصة الحكم في هذه المسألة، وعليك أن تتوسّع أو تتعمَّق في ذلك عن طريق الرّجوع إلى المراجع (القديمة) المختصَّة، إن أحببت أن تقف على مزيدٍ من التّفصيل في الأمر:

عمد الإسلام إلى ما كان معروفاً في العالم، عند بعثة خاتم الأنبياء محمَّد عليه الصَّلاة والسّلام، من أنواع الرّقّ وأسبابه، فأقرَّ منها ما كان مصدره الحرب والأسر ضمن قيودٍ وشروطٍ مخصوصة، وألغى سائرها ممّا كان مصدره القرصنة أو المراباة أو نحو ذلك.

والدّليل، ما أقدم عليه رسول الله ﷺ من ضرب الرّقّ على أسرى الحرب وذراريه في كثيرٍ من الغزوات، مثل غزوة بني قريظة، وحنين، وخيبر، مع إقرار القرآن له على ذلك.

ومن بدهيّات الإسلام، أنّه لا ينبغي إهمال ما تقضي به السنّة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ، بحجّة أنَّ القرآن لم يصرّح بما صرّحتْ به السنّة النبويَّة. إذ من المعلوم ضرورة أنَّ السنّة الصّحيحة مصدرٌ مستقلٌّ من مصادر الشريعة الإسلاميَّة.

على أنَّ القرآن قد أوضح مشروعيَّة الاسترقاق، عندما أمر بإعتاق الرّقاب تكفيراً للحنث في اليمين أو الوقوع في الظِّهار أو نحو ذلك. . إذ لا شكَّ أنَّ الأمر بالإعتاق، في حالاتٍ مخصوصة، فرع عن إقرار الرّقّ قبل ذلك، ولو كان أصل الاسترقاق في كتاب الله تعالى غير مشروع لما كان الإعتاق كفّارةً بحال، بل لكان الإعتاق عندئذٍ ضرورةً لا بدَّ منها بالنّسبة لكلّ مَن كان تحت يده رقيق، سواءٌ ارتكب شيئاً من موجبات الكفارة أو لم يرتكب.

* * *

ولكن ما معنى أنَّ الإسلام قد شرع الاسترقاق من هذا الوجه؟ . .

هذا ما يجب فهمه بدقّةٍ، وهذا هو الأمر الذي يغيبُ عن بال كثيرٍ من المتسائلين والباحثين! . . ولولا ذلك، لعلموا أنَّ حكم الإسلام في الرّقّ من أهمّ البراهين على عظمة الإسلام وخلوده، وعلى أنَّه الشريعة الإلهيَّة الصّالحة لكلّ زمان ومكان.

تنقسم جملةُ الأمور المشروعة في الإسلام إلى قسمين:

قسم تقوم شرعتُه على أساسٍ مطلقٍ من حكم الإباحة أو الوجوب أو النّدب، يُخاطب به النَّاس جميعاً بوصف كونهم أفراداً وجماعات، فهي مشروعات دوريَّة متكرِّرة في كلّ زمانٍ وعصر، تتعلّق بكلّ فردٍ من المسلمين على حدة، ليس لنبيٍّ ولا لحاكمٍ أو سلطانٍ أن يُغير منها، أو يقضي بها على بعض النَّاس دون بعض، أوَ في بعض العصور دون الأخرى. ويمثَّل لهذا القسم بالواجبات والمندوبات الدِّينيَّة المختلفة، وبالمباحات التي لا يعترضها أو يشوبها شيءٌ من المحرّمات كالطّعام والشّراب.

وقسم آخر تقوم شرعته على أساسٍ من إعطاء الشّارع جلّ جلاله الصَّلاحيَّة للحاكم المسلم أن يقضي فيه بما يرى أنَّه الخير والمصلحة للمسلمين عامّةً، ضمن دائرة محدودةٍ لا يتجاوزها.

ويسمّى هذا الحكم بحكم الإمامة أو السياسة الشرعيَّة.

والأمور التي اقتضت حكمة الباري جلّ جلاله أن يتعلّق بها هذا النوع من التشريع، هي تلك التي يختلف أثرها في المجتمع ما بين عصر وآخر أو بلدةٍ وأُخرى، ويتأثّر وجه المصلحة فيها بطوارىء الظروف والأحوال، ويمثَّل لهذا القسم بإعلان حالة الحرب والسّلم، وإتلاف أشجار العدوّ ومختلف ممتلكاتهم أو تركها دون أن تُمسّ بأذى، كما يمثّل له أيضاً بالسياسة التي ينبغي أن تتّبع بشأن الأسرى من قتلٍ أو استرقاق أو منّ أو فداء. كما يمثّل لها بأمور كثيرة أُخرى منها ما هو متّفق عليه أنَّه من هذا النوع، ومنها ما هو محلّ خلافٍ بين الأئمّة، ولا مجال لسردها والحديث عنها في هذا المقام.

فالمشروعيَّة، بالنسبة لهذا القسم الثاني، لا تعني الإباحة المطلقة أو الوجوب المطلق، على نحو ما أوضحناه بالنسبة للقسم الأوّل، وإنما هي تعني نوعاً من الصّلاحيَّة يخوّلها الشارع جلّ جلاله لمن كانت بيده السلطة من رسولٍ أو خليفة أو رئيس، بالنسبة لأمورٍ قد تختلف وجه المصلحة في معالجتها مع اختلاف الظّروف، وتبعاً لما قد يُفاجأ به المسلمون من طوارىء. . وواجب صاحب السّلطة حيال هذه الأمور تطبيق ما تقتضيه المصلحة حسب كلّ زمانٍ ومكان، في حدود الدائرة التي حدَّها له الشارع.

ويُقابل هذا القسم في الشريعة الإسلاميَّة، ما يُسمّى بقانون الطّوارىء، أو الأحكام العرفيَّة، فيما يصطلح عليه علماءُ القانون.

فالقانون الذي تنشر الدولة نصّه في المجتمع وبين أيدي الأفراد، ويُعملُ به في الأحوال الطّبيعيَّة العامَّة، ويتقاضى النَّاس بموجبه، ويترافع المحامون والمدَّعون على أساسه، هذا القانون يُطوى ويعلّق عن التنفيذ، عند طروءِ أيّ حادثٍ غير طبيعيّ، حيث يخوّل الدستور صاحب السلطة العليا في الحكم، صلاحيّةً مطلقةً للحكم بما يشاءه هو ضمن مجال غير محدود، لا ترسمه إلَّا كلمة المصلحة والضرورة، وهي كلمة لا يضع مسمّاها أحدٌ غيره!. .

وربما قضى الحاكم الأعلى في هذه الأحوال بأقضيةٍ لو عُرضت على القانون وظروفه الطّبيعيَّة، لاعتبرت غايةً في الوحشيَّة والهمجيَّة والإجرام. ولكنَّها بالنسبة لظروفها الخاصَّة، بالنسبة لما تستظلّ به من كلمة «الأحكام العرفيَّة» تُعتبر علاجاً طبيعيًّا صحيحاً لا يُعقّب عليه بأيّ استنكارٍ أو نقد!. .

وعندما أمرنا الحاكم الحقيقي جلّ جلاله بأن نتحوَّل عن كلّ حكم وقانونٍ إلى حكمه وقانونه، وضَعنا أمام شريعةٍ رائعةٍ عُظمى صالحةٍ لكلّ زمانٍ ومكان. ومعنى ذلك أنها صالحة في الظروف والأحوال الطبيعية التي يعتمد فيها النَّاس على قانونهم العامّ، وصالحة في الأحوال والظّروف الطَّارئة التي يُهرع فيها الحكّام إلى قانون الطّوارىء.

فكيف تكون شريعةُ الله جلَّ جلاله صالحةً لهاتين الحالتين؟..

أمَّا الرّسول عليه الصَّلاة والسّلام، فليس باقياً في النَّاس ما تعاقبت القرون، حتى يكون سبيل ذلك وحياً يتنزّل عليه يأمره: أَنْ عَلّقِ الشريعةَ وأحكامَها العامَّة الآن للظّروف والأحوال الطَّارئة، لكي تستقبل أحكاماً استثنائيّةً أُخرى صالحةً للظّرف الطَّارىء الذي يمرّ به النَّاس.

وأمَّا الحكّام والخلفاء من بعده، فليس لأحدٍ منهم سلطة أيّ تشريع، لا التشريع العامّ ولا التّشريع المتعلّق بالطّوارىء والظّروف الاستثنائيَّة.

إذاً فما السّبيل؟..

السّبيل هو أن تحوي نصوص الشّريعة نفسها أحكاماً تبليغيّةً دائمةً يمارسها الفرد والمجموع، لا تتبدَّل ولا تُنسخ إلى يوم القيامة، ثمَّ أن تحوي إلى جانب ذلك نصوصاً أُخرى، تتضمن أحكاماً يُخاطَب بها الأئمَّة والحكّام، يُعطَون بموجبها صلاحيَّاتٍ معيّنة، ضمن موازين من المصلحة الشرعيَّة الدّقيقة، وذلك كي يُواجهوا بها طوارىء الأحوال وتقلّبات الظّروف، فلا يجدوا معها ما يضطرّهم إلى التحوّل عن حكم الله إلى أهواءِ النَّاس وآراءِ المغرضين.

وهكذا، فالشّريعة الإسلاميَّة بقسميها اللذين شرحناهما حاوية لكلٍّ

من القانون الدّوري العامّ وقانون الطّوارئ، وهذا أروع مظهرٍ من مظاهر مرونته وخلوده وصلاحيّته لكلّ عصرٍ وفي كلّ حال.

إذا علمتَ هذا، نقول: إنَّ مسألة الاسترقاق عن طريق الأسر، مسألة يُناط وجه المصلحة فيها بمقتضيات الحرب والسّلام وسياسة الأمم المتعادية بعضها تجاه بعضها، أي لا يمكن لدولةٍ ما أن تقطع فيها بأمرٍ إلّا على ضوءِ ما تلتزم به الدّول الأخرى تجاهها.

وربما أمكن أن تجتمع جميع الدّول في عصرٍ من العصور على ميثاقٍ بيّنٍ تتواضع عليه وتسير على نهجه، كما هو الحال في عصرنا هذا، ولكن ليس من المضمون أن لا يأتي الغد القريب أو البعيد بظروفٍ تُلغى فيه جميع هذه المواثيق والاتّفاقيَّات، وتظهر على مسرح الدّنيا دول وحكومات تستبيح لنفسها كلّ ما تصوّرها لها أخيلة الشرّ والإجرام، ولا تُقيم للكرامة والحرّيَّة الإنسانيَّة أيَّ وزن.

وقد تبحث الأمرَ دولٌ عاقلة إذ ذاك، فترى أنَّ التهديد بالمعاملة بالمثل، هو وحده أنجع الوسائل السياسيَّة لكبح جماح البغاة والأشرار، ولصدّهم عن اقتحام أبواب الشرّ التي يتخيّلون أنها قد لا يمكن أن تنفتح إلّا على خصومهم. ومعلومٌ أنَّ هذه السياسة معتبرة اعتباراً تامّاً من خلال ما تُجمع الدّول جميعاً عليه اليوم، وهو مبدأ المعاملة بالمثل فيما يتعلّق بأسرى الحرب.

إذاً فمن المحتمل أن تجد الدّولة نفسها ذات يوم من عمر الزّمن ـ مهما بَعُد الاحتمال أو قرُب ـ أمام ضرورة استعمال هذا السّلاح أو التّلويح به أو اعتماده في سياسة الحروب، ردعاً لمن قد يتصوّر أنَّه وحده الذي يستطيع أن يُهدّد الآخرين بهذا السّلاح ويستعلي عليهم بسلطانه.

وقد تكون احتمالات هذه الظّروف قليلة، وقد يكون تصوّر ذلك داخلاً في دائرة الحيطة المجرّدة: (والإسلام حريصٌ على ذلك في كلّ ما يشرعه)، ولكنَّه على كلٍّ احتمال قائم وأمر ممكن التصوّر والوقوع. ولا بدَّ للشرائع العالميَّة التي يُراد لها أن تعيش صالحةً إلى أبعد مدى ممكن من الزّمن، من تقدير هذا الاحتمال واقعاً ووضع الحلول له سلفاً.

فأمّا حلّ ذلك من وجهة نظر القوانين الوضعيَّة، فأمرٌ ميسور لا يدعو إلى أيّ تأمُّلٍ أو جهد، إذ في ما تخوّله أحكام الطوارىء التي يعلنها الحاكم الأعلى عند مداهمة أي حالةٍ استثنائيَّة ـ ما يتّسع لحلّ هذه المشكلة وكلّ ما يماثلها.

إنَّ القانون العادل في تلك الحال، هو كلّ ما يرى ذاك الحاكم الفرد أنَّه المصلحة وأنّه الضّمانة لتحقيق النّظام والعدل. وقد يقدم (باسم هذه الظّروف) شخص واحد على أنواع من الإجرام والقتل وهتك الأعراض والحرمات، بأبشع صورةٍ وأشنع مظهر، دون أن تجد قانوناً داخليًّا أو دوليًّا أو ميثاقاً لهيئة أُمم أو مفكراً قانونيًّا حرّاً، يتقدَّم لمعارضة ذلك التصرّف الفردي أو نقده بالغاً من الوحشيَّة ما بلغ!...

هذا هو الحلّ عن طريق النّظم والقوانين الوضعيَّة.

أمَّا الحلّ الذي تقدّمه الشريعة الإسلاميَّة، فهو أنها ـ كما قلنا ـ تميّز مثل هذه المسائل التي يختلف وجه المصلحة فيها بتأثير الطّوارىء والظّروف الاستثنائيَّة، عن سائر الأحكام الشرعيَّة الثابتة، وتشرع لها أحكاماً خاصَّةً بها، تُسمَّى بأحكام الإمامة أو السياسة الشرعيَّة.

ثمَّ إنَّ الشريعة تعطي الحاكم المسلم صلاحيَّات معيّنة في معالجتها ضمن شروطٍ معروفة محدّدة، وعلى أساسٍ من ضوابط المصلحة الشرعيَّة

التي تراعي دائماً كرامة الإنسان وحرّيته ومصالحه الدّنيويَّة والأخرويَّة، فهو مكلّف في مثل هذه الحالات الطَّارئة باتّباع ما يراه من المصلحة، بحيث لو تحوَّل عنها إلى سبيلٍ آخر، كان آثماً معرّضاً نفسه لعقوبةٍ إلهيّةٍ صارمة.

وعلى هذا، فما دام من الممكن أن يأتي الزّمن بحالة (ولو على وجه النّدرة) يجد المسلمون فيها خصوماً لهم يسترقون أسراهم عند الحروب، وما دام من الممكن أن يجد المسلمون إذ ذاك أن لا سبيل تردع أُولئك الخصوم إلّا على أساسٍ من سياسة المعاملة بالمثل، وما دام الإسلام ديناً صالحاً لكلّ زمانٍ ومكانٍ وحالةٍ طارئة. إذاً، لا بدَّ من أن يستجيب الإسلام لمقتضيات المصلحة في هذه الحالة، فيشرّع أحكاماً احتياطيّةً لضمانها، كما يستجيب لذلك سائر القوانين الوضعيَّة عن طريق إعلان حالة الطوارىء وتحكيم رأي الفرد!...

ومن أعجب العجب، أن تجد عاقلاً، يزعم أنَّ له درايةً بطبيعة الأنظمة والقوانين، ثمَّ ينكر هذا الذي نقول، أو يجهل أنَّه من أبسط مقوّمات المرونة والاستمرار لأيّ شرعةٍ أو قانونٍ!..

وأعجب من ذلك، أن تجد عاقلاً يسوّغ كلّ ما يقدم عليه فرد من النَّاس من ألوان الجرائم والجنايات المختلفة التي ينزلها ظلماً وعدواناً بآلاف أو ملايين البشر بحجّة (الطوارىء)، ثمَّ لا يسوغ أقل من ذلك بكثير، ضمن شروطٍ وضوابط من المصلحة الخاصَّة والعامَّة تمليها الرّقابة الإلهيَّة على الحاكم المسلم، للطّوارىء ذاتها، ولعين تلك الأسباب!...

ودعني أفرض لك هذه الحالة التالية، ثمَّ اسألْ دعاةَ المثاليَّة المصطنعة، عن موقفهم تجاهها وعن مصير مثاليّتهم أمامها:

افرض أنَّ حرباً قامت بيننا وبين دولةٍ باغيةٍ شرسة، وأُتيح لها أن تضرب الأسر على طائفةٍ من رعايانا، ثُمَّ لم يطبْ لها إلَّا أن تضرب الرّقّ عليهم أو على بعضهم (وهذا فرض لا ينبغي لأي قانونٍ متكاملٍ شاملٍ أن يغفل عنه فلا يضعه في الحسبان)، وكان لهم بالمقابل جماعات من الأسرى تحت أيدينا ـ فما الذي سيفعله دعاة الإنسانيَّة الزّائفة إذ ذاك لو صحّ لهم أن يكونوا في مركز السّلطة والحكم؟..

وإذا ما لاح لهم أنَّ التلويح بالمعاملة بالمثل هو أنجع وسيلةٍ لشلّ حركة العدوان وإخماد ضروراته، فأين يضعون إنسانيّتهم المزعومة من هذه الضرورة ومقتضياتها؟!...

إنّني على يقينٍ بأنَّ هجوم هؤلاء (الإنسانيّين) على الإسلام، يكون أقسى وأشد فيما لو لم يحسب تشريعه العظيم لهذه الحالة أيّ حساب، ولم يعطِ الحاكِم أيّ مفتاحٍ لمعالجة مثل هذه المشكلة.

وإنّني لأستطيع أن أتخيّل الصّورة التي كان لا بدَّ لها أن ترتسم إذ ذاك.

لا بدَّ أن يقول (الإنسانيّون) في تلك الحالة عن أعدائهم، وقد أرغتْ وأزبدت الكلمات بين أشداقهم:

أو قد فعلها الأوغاد؟!.. إذن سنسترقّ نحن أيضاً الرّقاب.. ونهتك الأعراض.. ونفعل ونترك!..

فإذا قال قائلٌ منهم: صبراً أيها الزّملاء، ليس لكم أن تتجاوزوا حدود الحرّيَّة الإنسانيَّة بحال، إنَّ الإسلام لا يجيز الاسترقاق لأيّ سبب، انقضَّ (الإنسانيّون) عليه في غضبةٍ صاعقةٍ ما مثلها!.. وراحوا ينشرون كلمات السّخط على الإسلام بدون حساب، وأخذوا يتّهمونه بعدم

الصّلاحيَّة. . وأخذ المفكِّرون والنّقّاد منهم يتخذون من هذه الواقعة والحالة بعينها دليلاً واقعيًا على عدم صلاحيَّة الحكم الإسلامي لكلّ عصر، وعدم قدرته على استيعاب حاجات النَّاس والاستجابة لمصالحهم أثناء الطّوارىء! . . .

* * *

أُدخلْ أيّ صيدليّةٍ من صيدليَّات العالم، تجدْ بين الزّجاجات والعقاقير المنثورة على الجدران، جاماً صغيراً قد صُبغ باللون الأحمر، ونُقشت فوقه كلمة: (سموم)! . . ومهما طفتَ في الدّنيا، فلن تجد عاقلاً يمسك بتلابيب الصّيدلاني يتّهمه بالجناية والإجرام لأنّه قد هيّأ للمرضى سموماً قاتلةً بدلاً من الأدوية الشّافية.

ذلك لأنَّ أيَّ عاقلٍ يعلم بأنَّ المريض قد يؤدّي به الأمر في بعض الأحوال إلى ضرورة استعمال نوعٍ من السّموم على أساسٍ من استشارة الطبيب، بمقادير معيّنة وضمن ظروفٍ محدّدة.

ومهما كانت هذه الحالة نادرة، فإنَّ الصّيدليَّة لا تكون شاملةً وافية مستجيبة لمختلف الظّروف والأحوال إلّا إذا كان لهذه السّموم ركنٌ خاصٌّ متميّز فيها. . . ونُقش عليه باللون الأحمر: سموم.



ما معنى قولُهُم:
حيثُما وُجِدَت المصلحة فثمَّ شرع الله؟

ـ ١ ـ

تتكرّر في حياتنا الدِّينيَّة والاجتماعيَّة اليوم، بعض الكلمات والشّعارات المعيّنة، منها ما هو صحيح في ذاته، ولكنَّه يحمَّل من المفاهيم والدلالات ما ينبىء عن غير معناه الأصلي الصّحيح. ومنها ما لا يستقرّ على أيّ مفهومٍ صحيحٍ أو دلالةٍ مقبولة، وإنما هو من ابتداعات التوجيهات الخفيَّة، بغية استخدامِها في إيحاءاتٍ معيّنةٍ من شأنها أن تلبس على المسلمين حقائق دينهم بباطل غيره.

فمن أمثلة القسم الأوّل قولهم: تتبدَّل الأحكام بتبدّل الأزمان، **وقولهم:** حيثما وُجدت المصلحة فثمّ شرع الله، **وقولهم:** العرف محكم.

ومن القسم الثاني إطلاق كلمة: تراث الآباءِ والأجداد، أو: القيم الرّوحيَّة أو: التقاليد الإسلاميَّة، على ما يتضمّنه ديننا الحنيف من الأوليات الاعتقاديَّة، أو النّظم التشريعية، أو المبادىء الأخلاقيَّة.

وليس من شكٍّ في أنَّ تجلية هذه الأمور، ووضعها في مكانها الصّحيح، من أهمّ ما يتوقّف عليه الوعي الإسلامي في هذا العصر،

بل هو من أهمّ ما يتوقّف عليه إمكان التمسّك بحقائق الإسلام الكليّة وفهمُ مبادئه الإجماليَّة.

وسأتناول في هذا البحث تحليل واحدةٍ من هذه الكلمات، وهي قولهم: «**حيثما وُجدت المصلحة فثمّ شرع الله**»، قاصداً إبراز وجه الحقّ في هذه القاعدة، وإيضاح المعنى الباطل الذي تسخّر من أجله، واستجلاء الوسائل المعوجّة التي يتمّ بواسطتها خلط الحقّ بكثيرٍ من الباطل.

حيثما وجدت المصلحة فثمّ شرع الله: قاعدةٌ لا ريب فيها ولا غبار عليها، ومعناها: أنَّ أحكام الشريعة الإسلاميَّة، قائمةٌ في جملتها وتفصيلها على ما تقتضيه مصالح العباد. وهو معنى بدهي الثّبوت، دلّ عليه الاستقراء التّام لأحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها. فحيثما سمعت نداء الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾. فتأمّل وصيَّته بعد ندائه ـ كما يقول العزّ بن عبد السّلام ـ؛ فإنك لا تجد إلَّا خيراً يحثّك عليه، أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحثّ والزّجر.

ومصلحة الإنسان كلّ ما ينسجمُ مع فطرته الصّافية الأولى، سواء من حيث كونه فرداً مستقلاً بنفسه، أو من حيث كونه عضواً في الجماعة الإنسانيَّة.

وليس من خلاف بين الباحثين ـ مهما اختلفتْ وجهاتهم ـ في أنَّ «المصلحة» قائمةٌ على هذا المعنى الكلّي، كما أنَّه ليس من خلافٍ بين الباحثين أنَّ الإنسان مدنيٌّ بطبعه، فلا بدَّ أن تكون مصالحه ذات وجهين: وجه يتّصل به من حيث كونه فرداً مستقلاً له حاجاته الخاصة به، ووجهٍ آخر يتّصل به من حيث كونه جزءاً من الهيكل الإنسانيّ العام، ليس من خلافٍ

بين الباحثين في هذا المبدأ الإجمالي، سواءٌ منهم مَن كان ميَّالاً إلى ما يُسَمَّى بالمذهب الفردي أو مَنْ كان متأثِّراً بالمذهب الجماعي.

هذا بالنسبة للمعنى الكلّي القائم في الذّهن، أمَّا عندما يُراد تفسير ذلك بجزئيَّات الأمور والقضايا فمعظمُها يقع تحت البحث والخلاف ـ ويتردّد بين المصلحة والمفسدة، حسب اختلاف النَّاس في ميولهم وعاداتهم وما نشَّأتهم عليه مجتمعاتهم من المبادىء والأفكار، فربّ سلوكٍ معيّن يعدّ لدى بعض المجتمعات مصلحة جديرة بالدّعوة إليها على حين يُعدّ في مجتمعاتٍ أُخرى رذيلةً يجدر حربها والتحذير منها.

وربّ عملٍ من الأعمال كان يُعَدّ لدى بعض النَّاس في وقت ما مفسدة محرّمة، ثُمَّ غدا هذا العمل نفسه بعد حينٍ من الزّمن مصلحةً هامّةً ومشروعةً عندهم.

ولم يستطع علماءُ الأخلاق أن يضعوا للمصلحة معنى محدّداً جوهريًّا تتخلّص به من هذه النسبيَّة، على الرّغم من محاولاتهم وبحوثهم الطّويلة، بل آلتْ بحوثهم كلّها إلى خدمة وتقرير هذا الواقع في حياة النَّاس والإيمان بعدم إمكان ربط النَّاس عن طريق موازين أخلاقيَّة فلسفيَّة مجرّدة، بمعنى جوهري دائم لمسمّى المنفعة أو المصلحة.

يقول الدكتور محمَّد يوسف موسى في كتابه: مباحث في فلسفة الأخلاق:

«كلٌّ منّا له مثلُه الأعلى، هذا مثله رجل مغترفٌ من لذائذ الحياة ويجد سبيل المعيشة الرّاضية أمامه موفوراً، وذاك مثلُه الأعلى إنسانٌ كمل عقله وأخذ بأوفر حظٍّ من الفنون والعلوم حتى صار نابغة، وآخر مثله الأعلى عمر في شجاعته وعدله.. وليس في وسع الأخلاقيّ أن يرسم لكلّ

امرئٍ مثلاً يناسبه، فإنَّ ذلك يختلف باختلاف البيئة والتربية والأشخاص ونوع الحياة التي يحيونها».

وحينما حاول بعضهم أن يحدّد للمصلحة مفهوماً معيّناً عن طريق الموازين الأخلاقيَّة، وقع في شركٍ عظيم من الدّور والاضطراب لا مخرج منه، وذلك مثل صنيع ستوارت ميل حينما عرّف المنفعة بأنها ما من شأنه أن يكون مرغوباً فيه، وفي الوقت نفسِه جعلها ـ بهذا التّعريف ـ معياراً لما يجب أن يرغب فيه النَّاس![1].

ومن أهمّ أسباب هذا الاضطراب الذي وقع فيه علماءُ الأخلاق، تصوّرهم ميزان المصلحة قائماً على أساس الحياة الدّنيا وحدها، وهذا من شأنه أن يقطع الوسيلة إلى وضع غايةٍ واحدةٍ لتدبير حياة الإنسان وتنظيمها وإلزام النَّاس بمقتضاها، وإقناعهم بأهميّتها.

إذ ما الذي يحجز أرباب السياسة عن تحقيق مآربهم الشخصيَّة، وما الذي يُخيف أصحاب الأطماع والمنافع الشخصيَّة من الإحاطة بالصّالح العامّ في سبيل تحقيق مآربهم الخاصّة، وهم يعللون أنَّ الموازين التي وضعها علماءُ الأخلاق ـ على اختلافهم ـ إنما استلهموها من الحياة التي يعيشونها، وهذه الحياة ليست سوى إناءٍ كبيرٍ يملؤه هؤلاء الذين يظلّون يموجون فيه من ساسةٍ وتجّار وحكّام... إلخ.

وإذا كان الأمر كذلك فإنّ من خداع الإنسان لنفسِه أن يرتبط بقيودٍ هو الذي صاغها وأن يُلقي بها إلى مَن جاء يسعى إليه ليوثقه بها.

---

(١) راجع كتاب: «ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية» لكاتب هذا البحث ص٣٢، طبع دار الفارابي بدمشق.

من أجل هذا كانت نصوصُ الشّريعة الإسلاميَّة هي وحدها المرجع في تحديد مسمّى المصلحة وضبط جزئيَّاتها، ذلك لأنَّ الفاطر الحكيم جلَّ جلاله أدرى بما فطر عليه عباده وبما تقتضيه فطرتهم الإنسانيَّة الأصيلة من التشريعات والأحكام، ولأنَّ المعيار الزَّماني للمصلحة في الشريعة الإسلاميَّة مكوّن من الدّنيا والآخرة معاً، بل قائمٌ على اعتبار الحياة الدّنيا وسيلة للسّعادة في الحياة الآخرة، وبذلك ترتبط مختلف مظاهر الحياة الدّنيا بغايةٍ أساسيّةٍ واحدة، هي تسخير منافعها وملاذّها من أجل نيل المنافع والملاذّ الخالدة يوم القيامة في ظلّ رضوان الله عزّ وجلّ، فلا تنتشر مقاصد النَّاس في الدّنيا بين أغراضٍ وأهواءٍ مُتدابرة متعارضة، بل تلتقي على صراطٍ واحدٍ بيّنٍ في ثمراته وغاياتِه.

والذي يترتّب على هذه الحقيقة الهامَّة، هو أن تكون الشريعة هي المحكَّمة في تفسير جزئيَّات المصلحة في قولنا: «حيثما وُجدت المصلحة فثمَّ شرعُ الله»، إذ الشريعة لم تُحِلْ أحكامها إلى مبدأ المصالح فقط، بل حدَّدتْ معنى المصالح أيضاً ورتّبت درجاتها المتفاوتة على أساسٍ ينتظم مع الفطرة الإنسانيَّة وحوائجِها الفرديَّة والاجتماعيَّة.

وإذاً فلا ينبغي أن تفسّر المصلحة التي يسير معها شرعُ الله تعالى، على ضوءِ تلك المذاهب والآراءِ المتدابرة التي تترّدد فيما بينها وساوسُ علماء الفلسفة والأخلاق. كما لا ينبغي أن تفسّر هذه المصلحة بما تتطلّع إليه أهواءُ النَّاس وشهواتهم وأغراضهم وسياساتهم. إذ لو كان الأمر كذلك، لذابتْ حقائق الشريعة الإسلاميَّة وسط هذه الأمواج المتلاطمة المتعارضة من الأفكار والأهواء والأغراض التي قلّما تسير في هذا العصر بغير دافعٍ من التّقليد الأعمى والعصبيَّة الجاهليَّة.

ولا يجوز أن نتوهّم بأنَّ نصوص الشريعة الإسلاميَّة محكومةٌ بسير المصالح بناءً على هذه القاعدة، كما قد يظنّ بعض الجهّال، حيث يذهبون إلى تقييد النّصوص أو تخصيصها أو توقيفها، كلّما تراءت لهم المصلحة في غير الطّريق الذي تختطّه تلك النّصوص، مقتنعين من جميع الوسائل الاجتهاديَّة بوسيلةٍ واحدةٍ تنطوي في آنٍ واحدٍ على منتهى الزّيف ومنتهى الغرابة.

ووسيلتهم لا تعدو أن تكون قضيّةً منطقيّةً زائفة، إذ يشيرون إلى كلّ هذا الذي تسفُّه علينا رياحُ الغرب والشّرق من المفاسد والموبقات المختلفة قائلين: هذه مصالح، ثُمَّ يتحوّلون إلى فقه الإسلام وأُصوله قائلين: والمصالح معتبرة في الإسلام، ثمَّ يجمعون المقدّمتين إلى بعضهما برباطٍ غير شرعيٍّ ويستولدون منهما نتيجةً من سفاحٍ، فيقولون: فكلّ هذا الذي يفِدُ إلينا من الغرب أو الشرق مصالح معتبرة في الإسلام.

ولا ريب أنَّ الهدف من وراءِ سلوك مثل هذه الوسيلة ليس هو الاجتهاد الصَّحيح في الإسلام، ولا التبيّن للمصالح الحقيقيَّة المرعيَّة في تشريعه، وإنما الهدف، هو التلصّص إلى داخله وتفريغه من سائر مبادئه وحقائقه، ثمَّ حشوه بكلّ ما يُراد جلبه إلى المسلمين من النّظم والأخلاق والقوانين الفاسدة، لكي تقدَّم إلى عامَّة المسلمين وهي مخبوءة في إهاب الإسلام مكسوّة بثيابه وشاراته، فتجد بذلك منهم حسن الاستقبال والترحيب، حتى إذا استقرَّت فيما بينهم واطمأنّت إلى مكانها من أرضهم، مزّقوا الإهاب المخبوءة فيه، وألقوا القناع والشّارات المزوّرة بها وخرجوا على النَّاس بحقيقتها العارية. وتلك هي أحدث وسيلةٍ للكيد بالمسلمين والقضاءِ على إسلامِهم!..

ولقد فرغ علماءُ الأصول منذ أمدٍ بعيدٍ من بيان حقيقةٍ بدهيّةٍ واضحة، هي أنَّ النصوص الشرعيَّة هي التي تضبط حقيقة المصالح، وليس اسم المصالح هو الذي يتحكّم في تفسير أو تقييد النّصوص.

والدَّليل الذي لا يقبل النّقض على ذلك، هو أنَّ قولنا: «حيثما وُجدت المصلحة فثمَّ شرعُ الله»، إنما هو قاعدة كليَّة استُخلصتْ من تتبّع مجموع جزئيَّات الأحكام المأخوذة من النّصوص الشرعيَّة، أي إننا رأينا لدى تتبّع الأحكام الجزئيَّة المختلفة قدراً كليًّا مشتركاً بينها هو القصد إلى مراعاة مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم.

فتحقيق شرع الله لمصالح العباد معنى كلّيّ. والأحكام التفصيليَّة المنوطة بأدلّتها من النّصوص الشّرعيَّة جزئياتٌ له. وبما أنَّ الكلّي لا يتقوَّم إلَّا ضمن جزئيَّاته، فقد كان لا بدَّ لاعتبار المصلحة في أمرٍ ما من أن يدعمَه دليلٌ من الأدلة الشّرعيَّة التّفصيليَّة، أو أن يُدعم بفقد ما يخالفه على الأقلّ، وإلَّا لبطل دليل الاستقراءِ الذي قام به البرهان على جريان الأحكام وفق المصالح، وإذن تبطل قيمة المصالح نفسها من حيث إنها معنى كلّي مبثوث في جزئيَّات الأحكام.

وبتعبيرٍ آخر نقول: لو صحّ أن تكون الشريعة الإسلاميَّة بأدلّتها ونصوصها محكومةً بخِبرات النَّاس وأفكارهم وتجاربهم الشخصيَّة، لما صحَّ أنَّ المصلحة فيها فرع لها فهي محكومة بنصوصها ضبطاً، ومتوقِّفة عليها وجوداً.

لا بدَّ إذاً من عرض خبرات النَّاس وتجاربهم على نصوص الشريعة وأحكامها الثابتة. فإن كان بينهما اتّفاق أُخذ بها وكان النّصّ هو الحَكَم في ذلك. وإن وُجد بينهما تعارض وجب إهمال تلك المصلحة، لا على معنى

أنَّ الشارع قد أهمل هنا مصلحةً للنّاس دلّتْ عليها تجاربهم وخبراتهم، بل على معنى أنَّ تقدير هؤلاء النَّاس لهذه المصلحة لا بدَّ أن يكون قد داخله نوعٌ من الخلل والفساد في البحث، فنحن نتّهم تقدير النَّاس، ولا نتّهم نصوص الشّريعة، كيف وإنَّ أحكام النَّاس لا تخلو في الغالب عن شائبة الهوى والأغراض.

أمَّا إن وجدنا نصوص الشريعة غير متعرّضة لهذه التجارب والخِبرات سلباً ولا إيجاباً، فإنَّه يؤخذ بها وتصبح معتمدةً في حياة النَّاس، وتتأسّس عليها الأحكام الشرعيَّة التي ربطها الشّارع بالظّروف والمصالح القائمة على مثل تلك الخبرات.

وهذا ما يُسمَّى بالمصالح المرسلة، وهي في جملتها مصالح مقبولة باتّفاق علماء التشريع، ولكن لا ينبغي أن يسلك بها مسلك التحكّم بالنّصوص الشرعيَّة، عن طريق التخصيص أو التّقييد لها بشكلٍ من الأشكال، كما سنشرح ذلك في البحث التالي.



المصالح المرسلة لا أَثر لها في النّصوصِ تخصيصاً ولا تفسيراً

ـ ٢ ـ

ترتبط كلمة «المصالح المرسلَة» في أذهان كثيرٍ من النَّاس، بالمذهب المالكيّ، إذ يحسبون أنها من المميّزات الاجتهاديَّة له، وأنَّ بعضاً من أئمة المذاهب الأخرى ـ خصوصاً الإمام الشافعي ـ لا يعتدّ بها. والحقيقة أنَّ «المصالح المرسلة» مصدرٌ فرعيّ من مصادر الشريعة الإسلاميَّة التي لا خلاف في شأنها بين المذاهب الأربعة.

ويظنّ بعض الباحثين أنّ دليل «المصالح المرسلة» هذا، لا يعتمده القائلون به من أجل تشريع الأحكام الاجتهاديَّة بموجبه فحسب، بل هو معتمد أيضاً من أجل تخصيص أو تقييد النّصوص به أيضاً!.. والحقيقة أنَّ أحداً من أئمَّة المذاهب الأربعة لم يقل إنَّ المصالح المرسلة وحدها تخصّص عامّاً، أو تقيّد مطلقاً، أو تتحكّم بأيّ نصٍّ شرعيٍّ ثابت، بوجهٍ من الوجوه.

هاتان حقيقتان أُحبُّ أن أُوضحهما للقرّاءِ في هذا البحث، بعد أن بيّنتُ موجزاً لمعنى المصلحة في نظر الشريعة الإسلاميَّة وعند علماءِ الأخلاق، في البحث السَّابق، وبعد أن أوضحتُ بأنَّ سير المصالح في الشريعة الإسلاميَّة محكومٌ بالنّصوص وليس العكس.

أمَّا بيان الحقيقة الأولى فهو أنَّ اسم المصالح المُرسَلة يتضمّن معنى اجتهاديًّا لم يختلفْ حوله أحدٌ من الأئمَّة الأربعة، بل لا يسع أحداً من المجتهدين أن ينكره أو يزعم إمكان التخلّص من سلطانه والحكم بموجبه.

أمَّا أنَّه يتضمّن معنى اجتهاديًّا لم يختلف حوله أحد من الأئمَّة، فلأنَّ كلمة «المصالح المرسلة» إنما تعني مصالح داخلة في عموم المقاصد الخمسة التي هي مجموعة أسس المصالح الإنسانيَّة كلّها[1]، ولكنَّها خارجةٌ في الوقت نفسه عن عموم أيّ نصٍّ أو إطلاقه من نصوص الكتاب أو السّنّة سلباً أو إيجاباً، وخالية عن أيّ وصفٍ معتبرٍ يربطها بأصلٍ جزئيٍّ قريب تُقاس عليه بموجبه.

ومثل هذه المصالح، مكان اعتبارٍ من جميع الأئمَّة المجتهدين وأصحابهم، غير أنَّ حيثيَّة هذا الاعتبار، أينبغي أن تكون مستقلّةً في الشّكل عن المصادر الاجتهاديَّة الأخرى، أم لا ينبغي أن يكون لها مظهرٌ استقلالي ما دام بالإمكان أن يوسع لها مجال بين مدلولات الأقيسة وأنواعها؟

هذا وحده ما يمكن أن يقال إنَّ الأئمَّة اختلفوا فيه. فقد رأت المالكيَّة أن يُقعَّدَ لمثل هذه المصالح المرسلة قواعد اجتهاديَّة خاصَّةٌ بها، تنال منها مقوّمات مصدرٍ اجتهاديّ فرعي خاصّ، ويُطلق عليه اسم «المصالح المرسلة»، ورأت الحنفية أن تتلاقى جزئيَّات هذه المصالح كلّها تحت اسمٍ مميّز هو «الاستحسان».

---

(١) هذه المقاصد الخمسة هي على الترتيب: حفظ الدِّين، الحياة، العقل، النسل، المال.

أمّا الإمام الشافعي والإمام أحمد ابن حنبل رحمهما الله، فقد كانا يريان أنَّ الأخذ بهذه المصالح أو الاعتداد بها، لا ينبغي أن يكون شيئاً يعجز اسم القياس عن الدّلالة عليه، ومن المعلوم لكلّ باحثٍ أنَّ اسم القياس كان عند الشافعيّ وأحمد رحمهما الله رديفاً للاجتهاد الصّحيح. فلم يكن القياس حينئذٍ ذا دلالةٍ ضيّقةٍ على نحو ما اصطلح عليه علماءُ الأصول فيما بعد.

يقول الشافعي رحمه الله في كتابه الرّسالة: «الاجتهاد أبداً لا يكون إلّا على طلب شيءٍ، وطلب الشيء لا يكون إلّا بدلائل، والدّلائل هي القياس[١]»، ومعلوم أنَّ الاستصلاح إنما هو من قبيل الاجتهاد على طلب شيءٍ والبحث عنه بدلائل معيّنة، لما قلنا من أنّه داخل في المقاصد الخمسة للشّارع لاحقٌ بالمعهود من أحكامه وقواعده، فهو بذلك يعدّ لوناً من ألوان القياس عنده رحمه الله.

وقد كرَّر الشافعي هذا المعنى نفسه في مكانٍ آخر من رسالته فقال: «وقد يمتنع بعضهم أن يُسمّي القياسَ إلّا ما كان يحتمل أن يشبّه بما احتمل أن يكون فيه شبه من معنيين مختلفين، فصرّفه على أن يقيسه على أحدهما دون الآخر. ويقول غيرهم من أهل العلم: ما عدا النصّ من الكتاب أو السنّة فكان في معناه فهو القياس، والله أعلم»[٢].

ويتحدَّث الأستاذ أبو زهرة في كتابه: أحمد ابن حنبل، عن أخذه رحمه الله بالمصالح المرسلة والأدلّة على ذلك ثمَّ يقول: «ولكنَّه لم يذكره

---

(١) الرسالة، ص٥٠٠.
(٢) الرسالة، ص٥١٦.

عند ذكر أُصوله، لأنّه يرى أنّه داخل في باب القياس الصَّحيح»[١]، ومعلوم أنَّ الإمام أحمد رحمه الله قد اعتمد في الكثير من اجتهاداته الفقهيَّة على أُصول الشّافعي وقواعده.

ومن تأمّل كتاب الأمّ للشافعي، وخاصَّةً الجزء السَّادس والسَّابع منه، وقف على الكثير من اجتهاداته الرّائعة التي يحكِّم فيها دلالات القواعد الشرعيَّة العامَّة والمصالح الملائمة لمقاصد الشارع الحكيم، دون أن يتقيَّد بأصلٍ جزئي يقيس عليه.

فهو الذي يرى في باب الشفعة أنَّ الرجل إذا اشترى داراً وبنى فيها بناءً أو غرس شجراً، ثمَّ جاء صاحب شفعةٍ يطالب بما له من حق الشفعة فيها فليس له إلّا أحد أمرين: أن يأخذ الأرض ويؤدّي إلى المشتري ثمنها وقيمة البناء الذي أقامه عليها، أو أن يدع حقّه في الشّفعة ويمضي. فليس له أن يتّخذ من حقّه في الشّفعة مسوّغاً لإجبار المشتري على الهدم أو القلع دون أن يغرم له قيمة ذلك كاملةً غير منقوصة[٢]، ذلك لأنَّ السنّة التي درجتْ عليها طبيعة المصالح في الشريعة الإسلاميَّة هي سنّة الانسجام والتآلُف بين مختلف المصالح الجزئيَّة الفرديَّة، وإلّا لعادت المصالح حرباً على بعضها.

وهو الذي يقول في مبحث العارية: إذا أعار الرّجل رجلاً بقعةً من الأرض يبني فيها بناءً، فبناه، لم يكن لصاحب البقعة أن يخرجه من بنائه حتى يعطيه قيمته قائماً يوم يخرجه. ولو وقّت له وقتاً وقال أعرتكها عشر

---

(١) ابن حنبل، ص٢٩٧.
(٢) الأم، ٧/ ٩٩.

سنين وأذنتُ لك في البناء مطلقاً كان الحكم كذلك[١].

وللشافعي رحمه الله بيانٌ رائع في تخريج الاجتهاد على هذا الأساس، فهو يقول: قد ثبتت أُصول معلّلة اتفق القايسون على عللها، فأنا أتخذ هذه العلل معتصمي، وأجعل الاستدلالات قريبةً منها، وإن لم تكن أعيانها، حتى كأنَّ أُصول الاستدلال معتبر بها، واعتبار المعنى بالمعنى تقريباً أولى من اعتبار صورةٍ بصورة بمعنى جامع، فإنَّ متعلّق الخصم من صورة الأصل معناها لا حكمها.

وأمَّا ما ذكرناه من أنَّ أحداً من المجتهدين لا يسعه التخلّص من القول بالمصالح المرسلة، فلذلك لأنَّ هذا التخلّص ضرب من المحال العقلي البيّن.

ذلك لأنَّ موقف المجتهد أمام المصلحة المرسلة متردّد بين ثلاثة مذاهب لا رابع لها بحال:

أحدها: أن يرى أنها خالية عن أي حكم يتعلّق بها، وذلك مخالفٌ لما اتّفق عليه المسلمون من أنَّه لا يمكن أن تعرى واقعة ما من حكمٍ شرعيٍّ يتعلّق بها مهما اتسعت الوقائع وتكاثرت، فهو مذهب باطل بالبداهة.

ثانيها: أن يعتبرها ويرتّب عليها حكماً يلائمها.

ثالثها: أن يلغيها، وهذا يعني بالبداهة أن يرتب على الإلغاء حكماً يلائمه.

---

(١) الأم، ٧/ ١٣٧.

ومعلوم أن كلاًّ من هذين المذهبين إنما هو أخذ بما لا دليل له، وقول بما لا شاهد عليه من نصٍّ أو قياس، إذ كما أنَّه لا شاهد يدلّ على الاعتبار، فلا شاهد يدل على الإلغاء أيضاً، ولا ريب أنَّ الميل إلى أحد الطرفين ترجيح بدون مرجّح، إلّا مع الاستناد إلى عمومات الأدلّة والقرائن.

وواضح أنَّ عمومات الأدلّة في المصالح المرسلة هي وحدها مناط الاعتبار لها والأخذ بها. وإذن فإنَّ كلا هذين المذهبين إنما هو أخذ بالمرسل[١].

* * *

وأمَّا بيان الحقيقة الثانية، وهي أنَّ المصالح المرسلة لا يمكن أن يخصّص بها عموم نصّ ولا أن يقيّد بها إطلاقه، فذلك من أهمّ ما يجب تجليته وإيضاحه.

ونقول: إنَّ ذلك من أهمّ ما يجب تجليته وإيضاحه لا من حيث إنَّ المسألة معقّدة أو منوطة بالشّبه والأدلّة المتعارضة، فلا تعقيد في الأمر ولا شبهة فيه، ولا يوجد أيّ تعارضٍ بين دلائله وأُصول البحث فيه.

ولكنّا نقول ذلك، من حيث إنَّ كثيراً من الباحثين في عصرنا هذا يذهبون إلى إعطاءِ «المصالح المرسلة» أكثر من صلاحياتها الطّبيعيَّة والمعقولة، إذ يرون أنها دليلٌ يمكن الاعتماد عليه في تخصيص النّصوص العامَّة وتقييد المطلقة بها، ثُمَّ لا يقنعون بأن يعدُّوا هذا مذهباً اجتهاديًّا

---

(١) انظر تفصيل هذا البحث في كتاب: «ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية» للمؤلف، ص٤٠٨.

لهم، بل يلصقونه بأئمَّة المذاهب كالإمام مالك وغيره، ويتلقّفون لدعواهم هذه أمثلةً مختلفة يوهم ظاهرها أنها دليلٌ على صدق ما توهَّموه.

والواقع أنَّ أحداً من الأئمَّة الأربعة لم يقل ـ لا في أُصوله وقواعده، ولا في جزئيَّات فتاواه واجتهاداته ـ بأنَّ المصلحة المرسلة تخصّص عامّاً أو تقيّد مطلقاً، وكل ما تلقفه بعضهم ممّا أوهم ظاهره أنَّه تخصيص أو تقييد للنصّ بالمصلحة، هو في الحقيقة قائمٌ على أساس غير الذي توهموه.

وقبل أن أُوضح هذه المسألة بالأدلّة التي تكشف حقيقة موقف الأئمَّة من المصالح المرسلة من حيث علاقتها بالنّصّ تقييداً أو تخصيصاً، لا بدَّ من أن أتساءل في عجبٍ لا ينتهي: كيف يمكن لإنسانٍ عرف معنى المصالح المرسلة، أن يتصوَّر أيّ تعارضٍ قد يقوم بينها وبين أيّ نصٍّ من الكتاب أو السنّة حتى يمكن له تصوّر التخصيص أو التّقييد بينهما بعد ذلك؟! . . .

من المعلوم بالبداهة أنَّ المصالح المرسلة هي تلك التي لم يكن لها من الكتاب أو السنّة شاهد يؤيّدها ولا دليل يعارضها، ولذا سُمِّيت بالمرسلة.

ومن المعلوم أنَّ التخصيص والتّقييد، كلّ منهما فرع عن قيام معارضةٍ جزئيّةٍ بين دليلين صحيحين، أي إنَّ تخصيص المصلحة المرسلة لعموم نصٍّ ما، إنما هو نتيجة تعارض قام بينهما، فكيف تكون تلك المصلحة مع ذلك مرسلة، وكيف تكون مع ذلك دليلاً صحيحاً يخصِّص ويقيّد به مع أنَّ أبرز مقوّمات حقيقته لم يوجد؟! . . لا جرم إذن، أنَّ تعرُّض المصلحة المرسلة لتخصيص النصّ أو تقييده إنما هو إبطالٌ لحقيقتها وكشفٌ لزيفها.

أمَّا إلصاق هذا التصوّر المستحيل باجتهاد بعض الأئمَّة، والاستدلال على ذلك بتلقف بعض جزئيَّات الأمثلة، فإنما مصدره خطيئة هامَّة كبرى في طريقة الاستدلال والبحث.

وصورة هذه الخطيئة، أن أطلع على حكمٍ اجتهادي لإمام من الأئمَّة، لم يذكر مَدركه ودليله عليه، فأتقوَّل على لسانه مدركاً أو دليلاً معيناً على ذلك الحكم دون وجود برهانٍ على أنَّ ذلك الإمام إنما اعتمد هذا الدّليل، سوى أنَّ نفسي قد استجازته وأنَّ فكري قد اطمأنَّ إليه. ومثل هذه الخطيئة يدخل ضمن ما يسميه علماءُ البحث: «دليل أعمّ من المدعي».

فمن الخطأ البيّن الذي لا يُغتفر، أن أطّلِع على حكمٍ في مذهب الإمام مالك مثلاً، ينطوي ظاهره على تخصيصٍ أو تقييدٍ لنصٍّ ما من أجل مصلحةٍ مجرَّدة، فأمضي قائلاً: إنَّ مالكاً قد خصَّص النصّ بالاستصلاح، مع أنَّ من الممكن أن يكون معتمده في هذا الحُكم دليلاً آخر من قياس أو نصّ غيره أو عمل أهل المدينة، ومعلوم أنَّ مثل هذه الأدلّة تقوى على تخصيص العامّ وتقييد المطلق، إنَّ هذا لا جرم، يعدّ تقوّلاً على لسان المجتهد، وإنطاقاً له بما لم ينطق به، وهو إذن احتجاج بدليلٍ باطل على قاعدة تشريعيّةٍ خطيرة.

وهذه نماذج من تلك الأحكام أعرضها أمام القارىء.

قال بعض الباحثين: إنَّ مالكاً رحمه الله كان لا يبالي أن يخصّص النّصوص بالمصالح المرسلة، والدّليل على ذلك أنّه كان يرى أن لا يحلّف المدّعَى عليه في الخصومات إلّا إذا كانت بينه وبين المدّعِي مخالطة، كي لا يتجرَّأ السّفهاءُ على الفضلاءِ فيجرّوهم إلى مواقف التّهم بدعاوى كاذبة، مع مخالفة ذلك لنصّ الحديث: **«البيّنة على المدَّعي واليمين على مَن أنكر»**.

ولو أمعن الباحث في دليل مالك على هذا الحكم، لعلم أنَّ المخصّص في نظره لنصّ الحديث ليس هو المصلحة المرسلة كما توهّم، وإنما هو عمل أهل المدينة، ومعلوم أنَّه رحمه الله ينزّل عمل أهل المدينة في عصره منزلة الحديث المرفوع ويقدّمه على كثير من أخبار الآحاد، فقد روى في الموطأ هذا الحكم عن عمر بن عبد العزيز، وقال الزرقاني في ذلك: وبه قال فقهاء المدينة السّبعة، وقد ذكر ابن القيم هذه المسألة في كتابه «الطرق الحكمية» تحت عنوان مذهب أهل المدينة في الدّعاوى، فلا علاقة لدليله هذا بالمصالح المرسلة مطلقاً.

وقال بعض الباحثين أيضاً: إنَّ مالكاً أفتى بعدم وجوب رضاع الزّوجة الشريفة لابنها، مع أنّ الآية تقول: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وما ذلك إلّا تخصيص منه للنّص بالمصلحة المرسلة.

والحقيقة أنَّ المالكيَّة حكَّموا الآية في هذه المسألة تحكيماً تامّاً دون أن يخصّصوها بأيّ مصلحةٍ، ولكنَّهم قالوا ـ كغيرهم ـ إنَّ الآية لا تدلّ على وجوب الرّضاع على الأمّ، إذ لو أُريد منها الدّلالة على ذلك لقال: وعلى الوالدات إرضاع أولادهنّ، كما قال بعد ذلك: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ومع هذا فقد احتاط المالكيَّة، فلم يشاؤوا أن يقولوا كالشّافعية: إنَّ الآية ظاهرةٌ في بيان أنَّ الرّضاع حقٌّ لها لا واجب عليها، بل قالوا إنها مجملة تحتمل الوجوب وغيره. وهنا لم يجدوا ـ للخروج من الإجمال ـ إلّا أن يحكِّموا العرف في ترجيح أحد الاحتمالين، ورأوا أنَّ العرف يقضي في الزّوجة الرفيعة الرّتبة أن لا تُجبر على الرّضاع ـ إذا امتنعت لسببٍ

ما (إلّا عند الضرورة) أمّا مَن دونها فتجبر على الرّضاع ـ لأنَّ عرف أهل المدينة كان يقضي به.

فموقع العرف من نص الآية إذاً، موقع تبيين لمجمل لا موقع تخصيص لعام. فلو تأمّل هذا الباحث في مدرك المالكيَّة واستدلالهم، لعلم أنَّ المسألة لا علاقة لها بتخصيص النصّ بالمرسل.

وكتب بعض الباحثين يقول: إنه حتى التّابعون ذهبوا إلى تخصيص النّصوص بالمصالح المرسلَة، فقد منعوا خروج النساء إلى المساجد، مع ما صحَّ من قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «ائذَنوا للنِّساء باللَّيلِ إلى المساجد»، وما علّة ذلك إلّا خوف الفتنة وهو من المصالح المرسلة.

والحقيقة أنَّ هذا ليس من الاستصلاح في شيءٍ، لأنَّ النبيَّ ﷺ أذن للنّساء في الاختلاف إلى المساجد، ومنعهنَّ في الوقت ذاته من التبرّج والزّينة وإثارة الفتنة. فإذا تعلّق بصورةٍ واحدةٍ كلّ من مناطي الإذن والمنع، قدّم المنع عملاً بقاعدة: «درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح»، فالإذن للنّساء بالخروج إنما هو بناءً على النصّ الدّالّ على ذلك، ومنْعهنَّ من الخروج هو أيضاً بناءً على النصّ الدالّ على ذلك، ولكلٍّ من الحُكمين مناطه وسببه.

وتسرَّع بعض الباحثين فكتب يقول: إنَّ من أمثلة تخصيص النصّ بالمصلحة المرسلة ما ذهب إليه الحنفيَّة من ترك التغريب في حدّ الزّنا مع ثبوت النصّ من السنة على التغريب.

والحقيقة أنَّ الحنفيَّة لم يخطر في بالهم ـ وهم يقولون هذا الكلام ـ موضوع المصالح المرسلة إطلاقاً، إذ المسألة ليست من ذلك في شيء، وإنما هي متعلّقة بالقاعدة المعروفة في أُصول المذهب الحنفي، من أنَّ

الزّيادة على النصّ نسخ، ولا يجوز للنصّ النَّاسخ أن يكون أدنى رتبة في القوّة من المنسوخ، وقد ثبت في نصّ الكتاب أنَّ الحدّ للزّاني غير المحصن إنما هو الجلد دون تعرّضٍ للتّغريب، فلو أخذوا بالحديث الدّالّ على التغريب أيضاً لاقتضى ذلك ـ على مذهبهم ـ نسخ المتواتر بالآحاد وهو غير جائزٍ عندهم. فذهبوا إلى أنّ التغريب تعزير، وأنَّ ما فعله رسول الله ﷺ من ذلك إنما كان تصرّفاً من حيث السياسة الشرعية. فالتغريب من بعده منوطٌ برأي الإمام وحكمه.

وراح بعضهم يتقوّل على عمر بن الخطّاب نفسه أنَّه خصَّص النّصوص بالمصالح، واستدلّوا على ذلك بما ذهب إليه من عدم قطع يد السَّارق عام المجاعة، والقول بقتل الجماعة بقتلهم الواحد، والحكم بجعل الطّلاق الثلاث في كلمةٍ واحدة ثلاثاً.

ولو أمعن هؤلاء الباحثون في مدرك هذه الأحكام عند عمر رضي الله عنه لعلموا أنَّه بريءٌ من هذه التهمة، ولأدركوا بالنّظر في هذه المسائل نفسها مدى تمسّك عمر بالنصّ والاحتكام إليه، وعدم الخروج عليه.

ويطول بنا الكلام لو تحدَّثنا عن مدرك عمر في هذه الأحكام، ولا أحسب إلَّا أنَّه يحتاج إلى فصلٍ مستقلّ برأسه، وقد فصّلتُ البحث في ذلك كلّه في كتابي «ضوابط المصلحة» فليرجع إليه مَن أراد التفصيل.

وعلى كلٍّ فنحن إنما عرضنا أمثلةً ولم نستقص جزئيَّات.. وما لم نذكره من الأمثلة مثل الذي ذكرناه تماماً.

* * *

وبعد، فقد أحببتُ أن أوضح هاتين الحقيقتين، لأنتهي بالقارىء إلى القصد في أمر المصالح المرسلة والاستصلاح بموجبها.

فمن الخطأ في البحث والتطرّف في الفكر أن نتصوّرها دليلاً مختلفاً فيه عند أئمَّة المذاهب، وأنَّ بعضهم كالإمام الشافعي أنكرها ولم يقل بها. وأغلبُ الظنّ أنَّ هؤلاء إنما شبهت عليهم الحقيقة بسبب موقف الشافعي من الاستحسان. وهذا وهمٌ واضح، لا ينبغي أن يسري إلى فكرٍ استنار بقبسٍ من العلم.

ومن الخطأ أيضاً في البحث، والإفراط في التساهل الممقوت أن يقال بأنَّ المصالح المرسلة تقوى على تخصيص النّصوص العامَّة. فهذا لو صحَّ ـ وهو غير صحيح لا في العقل ولا في النّقل كما بيَّنا ـ لكان في ذلك ضمانة للقضاءِ على أعظم ركنين من أركان الشريعة الإسلاميَّة وهما الكتاب والسنّة، فأيّ بوتقةٍ أقدر على إذابة وتمييع نصوصهما من بوتقة المصالح، إذ تُعطى صلاحيةَ التّلاعب بالنّصوص تخصيصاً وتقييداً؟!

ومرَّةً أُخرى أعود فأقول: إنَّه لا يكفي في الاستدلال على أنَّ إماماً من الأئمَّة قد خصّص نصًّا، أن تجده أفتى بحكم تصوّرتَ في ذهنك أنَّه إنما اعتمد فيه على المصلحة، وخصّص بذلك نصًّا من الكتاب والسنّة.

بل لا بدَّ ليتمَّ الاستدلال، من أن تجده قد نصّ على أنَّ دليله في هذه الفتوى المخالفة لعموم النصّ إنما هو المصلحة المرسلة.

وأنتَ لن تجد هذا في كلام أحدٍ من الأئمَّة إطلاقاً.



القِيَم الرُّوحيَّة:
ما مكان هذه التَّسمية في الواقع الإسلامي؟

الدِّين الإسلامي في جملته، عقيدة، وعبادة، وتشريعٌ سلوكيّ واجتماعيّ. وهو بشعبه الثلاث هذه، يعود بالفائدة والمصلحة على المسلم في كلا حياتيه: الدّنيويَّة والأخرويَّة، من حيث إنَّه كائن ذو جسم وروح.

فأمَّا أنَّ إسلام المسلم ينطوي على مصلحة دنيويّةٍ له من حيث إنَّه مسلم، فهو حقٌّ واضح لا يحتاج إلى طول بيانٍ وشرح. وحسبك أن تعلم أنَّ الشريعة إنما قامت لحفظ حياة النَّاس وعقولهم وأنسابهم وأموالهم، من حيث إنهم أفراد مستقلّون عن بعضهم، ومن حيث إنهم أعضاء في مجتمعٍ إنسانيّ يحتاج إلى مقوّمات الصَّلاح والسّعادة.

وبدهي أنَّ مردّ الصّلاح والسّعادة لأفراد المسلمين ومجتمعهم ليس إلى أرواحهم فقط، بل إلى كينونتهم البشريَّة نفسها، بكلّ ما تقوم عليه من غرائز وطباع وصفات، ولذلك قامت الشريعة الإسلاميَّة على معالجة كل الوظائف المختلفة وجميع الحاجات المتنوّعة التي تنعكس من معنى البشرية الكاملة للإنسان.

وأمَّا أنَّ إسلام المسلم ينطوي على مصلحةٍ أُخرويَّة له، من حيث إنَّه كائن ذو جسمٍ وروحٍ أيضاً، فذلك أيضاً لا يحتاج إلى طول شرحٍ وبيان.

إذ إنَّ الأساس الأوَّل للعقيدة الإسلاميَّة قائمٌ على الإيمان باليوم الآخر، أي الإيمان بحشر الأجساد الإنسانيَّة كلّها وتلاقي ذرّاتها التائهة الضَّائعة في طوايا التراب، وعودة أرواحها إليها ثانيةً، لتستقبل حياةً خالدة، لها كلّ مقوّمات الحياة الأولى: الجسميَّة والرّوحيَّة، ولينال كلٌّ جزاءَهُ على ما قدَّم، كاملاً غير منقوص، إن خيراً فخير أو شرّاً فشرّ.

فمردّ سعادة الإنسان في آخرته بسبب اتّباعه الإسلام، إلى الجسم والرّوح معاً، ومردّ شقاءِ الإنسان في آخرتِه بسبب إعراضه عن الإسلام في دنياه، إلى الجسم والرّوح معاً.

إن كان النّعيم.. فإنَّه لنَعيم الجسد والرّوح معاً، وإن كان العذاب، فإنَّه لَعذاب الجسد والرّوح معاً. ولحكمةٍ باهرة تتعلّق بتأكيد هذه الحقيقة يتناول الوصفُ القرآني لنعيم الجنّة بيان جزئيَّاته الماديَّة المنثورة التي قد لا يتنبّه الخاطر إلى حاجة وصفها، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ [الواقعة].

ولحكمةٍ باهرةٍ مثلها، يتناول الوصفُ القرآنيّ صفة عذاب الجحيم بالأسلوب ذاته، فيقول مثلاً: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة]، ويقول بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة].

فالبيان القرآني في هذا، إنما ينطق بأجلى وسائل التعبير القاطعة، بأنَّ هذا الذي تُوعَدون به من نعيم، أو تُتَوعَّدون به من عذاب، ليس شيئاً روحانيًّا مجَرَّداً، يطوفُ بمشاعر روحيَّة أو وهميَّة مجرَّدة، بل هي الحقيقة الماديَّة المحسوسة، تغشى جسوماً ماديّةً محسوسة، التأمتْ أجزاؤها بعد تفرُّق، وتضامَّتْ ذرّاتها بعد ضيعةٍ وشتات.

فإذا كانت هذه هي ثمرة إسلام المسلم في حياته الآخرة، فهي إذاً من نوع ما يجنيه من ثمرات إسلامه في حياته الدّنيا نفسها، كلّ ما هنالك من فرقٍ، هو المدّة الزّمنيَّة الفاصلة بين الحياتين سواءٌ طالتْ أو قصُرَت.

فالإسلام إذاً، إنما هو شرعٌ أقامه الله لذوي العقول السّليمة، لتحقيق حاجاتهم الإنسانيَّة كلّها في معاشهم ومعادهم. وهو بذلك يصافح الجسم قبل أن يُلاقي الرّوح، بل لا يتعرّفُ إلى الرّوح ومطالبها إلَّا بشهادة الجسم وإقراره، سواءٌ فيما يتعلّق من ذلك بالمعاش الدّنيويّ أو بالمعاد الأخرويّ.

وإذاً.. فمن أين جاءت كلمة «القيم الرّوحيَّة» لتجعل من نفسها تعبيراً شاملاً لكلّ ما ينطوي عليه الإسلام من المبادىء والأحكام؟!.. وكيف وجدت السبيل حتى التصقت بهذه المبادىء والأحكام على الرّغم مما بينهما من منافاة ظاهرة، وتعارُض واضح؟!.

لقد تسرّبت هذه الكلمة إلينا من حيث تسرّبت كلمة «التقاليد الإسلاميَّة» و«رجال الدِّين» وغيرها من التعبيرات التي تسلّلت إلينا في غفلةٍ من الانتباه إلى ما وراءها وإلى مَن يقودها، ثمَّ في غفلةٍ أيضاً عن تبصّر هويّتها وحقيقتِها!..

التعبير عن مبادىء الإسلام وأحكامه بالقيم الرّوحيَّة، تسمية اقتضتها طريقة الغزو الفكري الذي يهدفُ إلى سلخ النّظم والأحكام الإسلاميَّة عن المجتمع الإسلامي.

فهو أوّلاً، التعبير الفني المنسجم مع ما يستلزمه بثُّ الشكّ في أمر الحياة الآخرة وحشر الأجساد ونشورها مرّةً أُخرى بعد الموت. ولا ريب أنَّ هذه الحقيقة إذا آلت إلى أن تصبح وهماً مشكوكاً فيه، فإنَّ معظم الالتزامات الدِّينية التي يلاحظ فيها المصلحة الأخرويَّة، مثل معظم أنواع العبادات، تؤول إلى طقوسٍ شكليّةٍ مجرَّدة، كلّ ما يتوخّى منها نشر ظلالٍ من الطمأنينة الوهميَّة حول الرّوح، ومعالجة النّفس البشريَّة بهدهدةٍ شاعريَّة «فنِّيَّة» تريح أعصاب صاحبها من وطأة الحقائق المتصارعة المؤلمة، بين كلّ حينٍ وآخر.

وهو ثانياً، يمهّد السبيل ويهيء الأذهان لفهم أنَّ الإسلام إنْ هو إلَّا مجموعة من الممارسات الرّوحيَّة التي اصطلح الآباء والأجداد على تقويمها وتقديسها، ولا شأن له وراءَ ذلك بشيءٍ. فالنّظم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والأحكام والقوانين التي من شأنها أن تنظّم علاقة النَّاس بعضهم ببعضهم وتكفل لهم العدالة الفرديَّة والاجتماعيَّة كلّ ذلك ممّا لا شأن للإسلام به، لأنّه لا علاقة لشيءٍ من ذلك بالقيم الرّوحيَّة!.

والحقيقة، إنَّ الذي يُراد بالإسلام من وراءِ ذلك، هو أن يؤول إلى فنّ!.

فكما أن الشعر، والأدب، والرّسم، والنّحت، والموسيقى ـ كلّ ذلك أوجه مختلفة من الفنّ الذي يُراد به كما يقولون: خلق أجواءٍ خياليَّة جميلة أمام الرّوح كي تسبح فيها وتحلّق صُعُداً في طبقاتها، فتسعد بأمن

هذا الخيال واتّساعه، وتطمئنّ في نسماته الرخيَّة وظلاله الآمنة، بعيدة عن ضوضاء الواقع وآلامه ـ نقول: كما تُحلّلُ الفنون المختلفة وتُقوّم على هذا الأساس، فإنما يُراد بالإسلام أيضاً أن يقوَّم ويحلَّل من هذه الوجهة نفسها، أي من حيث إنَّه مرفِّه نفسي معين، يريح الأعصاب وينفض عنها من آثار الضّيق والإرهاق اللذين لا بدَّ أن تستلزمهما مشكلات الحياة وحاجاتها.

وهذه النظرة، من شأنها أن تحيل سبيل قداسة الدِّين وتعظيم شعائره، إلى هذا المصدر فقط، فقداستُه نابعةٌ من وجه الحاجة إليه، والحاجةُ إليه ـ فيما يراه مروِّجو «القيم الرّوحيَّة» ـ ليست إلَّا هذا الذي ذكرناه. ثمَّ إنَّ هذه النظرة تعدّ من الحلول الرّائعة لمن يُنكر حقيقة الدِّين ومصدره الحقيقي، ولكنَّه لا يريد أن يواجه الآخرين بعقيدته هذه كي لا يُثير ردود الفعل في نفوسهم، فحسْبُ الدِّين إذاً أن يكون لحناً روحانيًّا حالماً يبثّ ألواناً هادئةً من الطّمأنينة في النّفس!..

ثمَّ إنَّ هذا التقويم الغريب للإسلام وأحكامه، إنما جاء هو الآخر ـ ككثيرٍ من الأفكار الوافدة الأخرى ـ عن طريق عوامل التقليد المجرّدة.

ففي أوربا، عادت مقوّمات الرفاهيَّة والتحرّر المطلق إلى أسباب للقلق والضَّجر النفسي، وغدت أجواء الترف والنَّعيم المادّي الذي لم يعد يقف عند حدّ، مصدر ضيق وتوتّر في الأعصاب، حتى راح علماؤهم ومفكّروهم يحيلون كثيراً من الأمراض المتفشّية، وكثيراً من أسباب الانتحار الرّائج لديهم اليوم، إلى هذه الظّاهرة وحدها.

وعندما فكّروا في مخلصٍ من بوادر هذا الشّقاء رأوا أنَّ تنمية المشاعر الدِّينية ممّا يجدر به أن يخفّف من وطأة هذا الضّيق والعذاب النّفسي!.

والدِّين هناك لا يمتدّ ظلّه إلى أكثر من الأخيلة والأحاسيس النّفسية المجرّدة، فلا هو يملك سلطاناً على ما وراء ذلك، ولا هم يُريدون أن يملكَ أيّ سلطانٍ خارج حدوده النفسيَّة هذه، ولكنَّهم اعتمدوه قيمةً روحيّةً قد تساعد في تخفيف الآلام النفسيَّة التي يتعرّض لها الإنسان الأوربي خلال مغامراته واندماجه وسط أمواجٍ عاتية من الإباحيَّة واللذَّة المطلقة.. ولا عليهم أن يكون ذلك الدِّين حقيقةً مُنزلةً إليهم من لدن خالق الكون، أو وهماً جسّدته الحاجة إليه والاستفادة منه!..

وهذا ما حدا بأمثال وليم جيمس أن يضع نظريّته ـ «البراجماتزم/ الذّرائع» ـ عن الدِّين وقيمته وأهميّته الاجتماعيَّة. فهو يدعو إلى التمسّك بكلّ ما من شأنه أن يُحقّق غايةً سليمةً ويُساهم في حلّ كلّ مشكلةٍ عويصة، حتى ولو كان الأمر المتمسَّك به باطلاً في جوهره، بل لا يهم أن يكون حقًّا أو باطلاً ما دام أنَّه يحقّق نفعاً مرغوباً فيه.

ومن أجل ذلك فقد كان جيمس هذا، يهتمّ بالشعائر والعقيدة الدِّينيَّة باعتبارها ظاهرة من هذا النوع، وكان يرى وجوب انصباغ النَّاس بالتديّن ـ على هذا المعنى ـ حتى ولو عجز العقل النظريّ عن أن يقيم الدّليل المنطقي على أنَّ ذلك حقّ[1].

---

(١) انظر كتاب: «البراجماتزم» لوليم جيمس، و«المنفعة العامة» للدكتور توفيق الطويل.

وقد تكوّنت للأخذ بهذه النّظريَّة مدرسةٌ أوربية نادى بها أمثال جان جاك روسو، وكانْت، وجيمس، وغيرهم.

ولقد انتقلت أصداءُ هذه المدرسة إلينا، فتلقفّها أُولئك الذين يضيقون ذرعاً بالدِّين من حيث هو دين، تلقّفوا هذه النظريَّة لا شعوراً منهم بالحاجة التي شعر بها أرباب هذه النظريَّة في أوربا، من ضرورة اعتماده على أنَّه ظلال نفسيّةٍ مريحةٍ ومنعشة. . بل شعوراً منهم بالحاجة والميل إلى بتره والقضاءِ عليه. ولكن ما السّبيل؟. . السبيلُ أن يُذاب في حمضٍ معيّنٍ اسمه «القيم الرّوحيَّة».

غير أنَّ الإسلام في حقيقته وكما يعلمه كلّ عاقل، عقيدةٌ وعبادة وضوابط سلوكيَّة واجتماعيَّة، وهو بفروعه الثلاثة هذه، إنما يبني مجتمعاً ويكوِّن أُمةً ويؤسّس حضارةً ويضع قانوناً، ويربِّي نفوساً.

وإذا كان عمله الأخير هذا ــ وهو تربية النّفوس ــ يُطلق عليه في بعض الأحيان: تربية روحيَّة، فإنما مآل ذلك وجدواه أن تنطلق هذه النّفوس التي رُبيت تربيتها الرّوحيَّة هذه، فتتعاون في بناءِ مجتمعٍ إنسانيٍّ متمدين تُضمنُ فيه المنفعةُ والسّعادة لجميع أفراده.

فتربية النفوس على المحبّة والتواضع ونبذ التباغض والكبر والحسد والرّياء والنّفاق، كلّ ذلك جعل من الإسلام أساساً تمهيديًّا لا بدَّ منه لإقامة مجتمعٍ منسجمٍ سعيد لا مضطرب متشاكس.

❑ ❑ ❑

الإسلام بين العقلِ والقلب
أو الاقتناع والحب

خلق الله الإنسان، وجهّزه بحقيقتين عظيمتين، هما: العقل والقلب، وأقام كلاًّ منهما على وظيفةٍ لا يتأتّى أن يقوم بها غيره، ولا يصلح من دون تحقيقها شيءٌ من أمر الدّنيا أو الآخرة.

أمَّا العقل، فوظيفته أن يُقبل على الأشياء فيدركها على حقيقتها، وأن يستدلّ بظواهر الأمور على ما ورائها، وأن يتوصَّل من وراءِ ذلك إلى معرفة الله عزّ وجلّ، وإلى الإيمان بوحدانيّته وربوبيّته المُطلقة.

وأمَّا القلب، فوظيفته أن يسير من وراءِ هدي العقل، فيحبّ الخير الذي أثبت العقل أنَّه خير، ويكره الشرّ الذي أثبت العقل أنَّه شرّ، ويجعل ملاك ذلك كلّه في سبيل مرضاة الله عزّ وجلّ واتّباع شرعه.

ولا بدَّ لعمارة الكون وتحقيق النّظام فيه، من عمل كلٍّ من هذين الجهازين، فلولا العقل لامتزجت نزواتُ النّفس وأهواؤها بخفقات القلب وعواطفه، وتلاقى السّفل والعلو على إيقاد شرٍّ مستطيرٍ من شأنه أن يفسد كلّ شيء: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ولولا القلبُ، لما وجد الخير إلَّا في دُنيا الوهم والخيال، ولظلَّ بنيان الفضائل والمُثل العليا مجرّد رسومٍ وخطوطٍ على الورق، أو كلماتٍ وجملٍ حلوة على الشّفاه..

فالعقل إذاً هو القدرة الكاشفة والمخطّطة، والقلب هو القوّة الدافعة والمحركة. ولا بدَّ في كلّ عملٍ أو بناءٍ من التّخطيط المنظّم له أوّلاً، ثمَّ الأداة المنفّذة له ثانياً.

ونظراً إلى أنَّ الإسلام هو جامع الفضائل كلّها، فقد كان لا بدَّ للقيام بعمله هذا من الاعتماد على كلا هذين الجهازين العظيمين. فمن أجل ذلك جاء الإسلام يخاطب العقل والقلب معاً: يخاطب العقل ليدركَ ويتدبَّر، ويخاطب القلب ليحبّ ويتأثّر.

وإنَّك لتجد آيات الكتاب المبين تتّجه إلى تحريك نياط القلب في الوقت الذي تتّجه فيه إلى إيقاظ مدارك العقل، وذلك لينهض كلٌّ بعمله، وليُسهم كلٌّ منهما في تحقيق إنسانيَّة الإنسان، ثمَّ في إقامته على صعيدٍ من العبوديَّة التّامة لله عزّ وجلّ.

وإنَّك لتجد ذلك أيضاً في أحاديث رسول الله ﷺ، فقد كان يأبى عليه الصّلاة والسّلام دائماً إلَّا أن يقرن الإيمان العقلي بالمحبّة القلبيَّة. ألم تسمعه يقول في الحديث المتّفق عليه: «**لا يؤمنُ أحدكُم حتى أكونَ أَحبَّ إليه من مالِه وولدِه والنَّاسِ أجمعين**».

وفي الحديث الآخر المتّفق عليه أيضاً: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبّه إلَّا لله، وأن يكره أَنْ يعودَ في الكُفر، بعدَ أن أنقذَه اللهُ منه، كما يكره أن يُقذفَ في النَّار**».

ثُمَّ إنّك تجد هذا المعنى أيضاً ممثّلاً فيما اتّفق عليه جمهور علماءِ المسلمين من أنَّ الإيمان يزيد وينقُص، وأنَّ المسلم مطالبٌ بالعمل على تقوية إيمانه وزيادته.

وبدهيّ أنَّ مجال هذه الزّيادة لا يمكن أن يكون العقل، ذلك لأنَّ العقلَ إذا ارتقى في إدراك الشيءِ إلى درجة التّصديق والإذعان، فقد وصل إلى النّهاية التي لا يمكنُ أن يتجاوزها، إذ الإدراك للشيءِ لا يعدو أن يكونَ تصوّراً أو تصديقاً، والتّصديق نهايةٌ عقليةٌ عليا لا تقبل التفاوت والتشكيك، لا جرم إذاً أنَّ التّصديق العقلي غير قابلٍ لأيّ زيادةٍ أو نقصان.

ولكنَّ مجال هذه الزّيادة إنما هو القلب.. ففي القلب سُلّمٌ من العواطف لا تكاد تتناهى درجاتُه، وفيه وَقُود هائل من الأشواق العارمة لا يقوى على وصفه أيّ قلمٍ أو بيانٍ. ففي هذه البوتقة ينضج الإيمان ويترعرع، وفيه تتوالد معجزات الإيمان التي طالما سمعنا بها قديماً وأجدبت منها حياتُنا حديثاً.

وانظر إلى البيان الإلهي، كيف يصوّر هذا المجال القلبي لتقوية الإيمان وزيادته، تأمّل في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات]، وأنت خبيرٌ أنَّ كلمتيْ: حَبَّبَ وزَيَّنَ إنما يعرفهما قاموسُ القلوب، فهما يأتيان من وراءِ يقين العقل وإذعانه.

ثُمَّ إنَّ هذه المحبّة ليس معناها الحقيقي الاتباع والسُّلوك العملي، كما قد يتصَّور بعضُ النَّاس، بل هي مستعملة في معناها الحقيقي نفسه، فليس الاتباع إلَّا أثراً من آثارها.

وكيف تكون محبَّة الله ورسوله هي الاتباع العملي؟

إنَّ الاتباع نفسه يحتاج من وراءِ اليقين العقلي إلى محبَّةٍ قلبيّةٍ دافعة. . ومن البداهة بمكانٍ أنَّ شيئاً من صُور التّضحيات الرّائعة التي قدَّمها الصّحابة بالنفس أو المال لم يكن المحبّة نفسها، وإنما كان أثراً من آثار المحبّة العارمة التي فاضت بها قلوبهم، وإلّا كان مجرّد التّصديق بشيءٍ ما هو وحده سرّ التّضحية في سبيله، وإذاً لكان من اللازم العقلي أن يتساوى المسلمون كلّهم في صفة البذل والتضحية والفداء. ومَن الذي يقول هذا؟. . ومّن الذي زعم أنَّ المسائل العقلانيَّة[1]، وحدها من شأنها أن تؤثّر في العواطف والقلوب؟ وهل سمع أحدٌ من النَّاس أنَّ رجلاً ضحَّى بحياته إيماناً منه بقاعدةٍ رياضيَّةٍ أو مسألةٍ من مسائل الجبر؟. .

وكم كان جان جاك روسو على حقٍّ يوم أخذ يسخر ممّن يظنّ أنَّ الإيمان ـ المجرّد ـ بالفضيلة يُعتبر انتصاراً لها وتحقيقاً لمبادئها. إنَّه يقول: «كم قيل وأُعيد القول عن الرّغبة في إقامة الفضيلة على العقل وحده، ويا له من أساسٍ متين. . أيّ أساسٍ هذا؟. . إنَّ الفضيلة كما يقولون هي النّظام، ولكن هل يستطيع الإيمان بالنِّظام أن يتغلَّب على مسرتي الخاصّة؟ إنَّ هذا المبدأ المزعوم ليس إلّا لعباً بالألفاظ، فالرّذيلة هي حبّ النظام بشكلٍ مختلف».

وانظر، فلقد أدركت أمريكا يوماً ما، ما في الخمر من الأضرار الجسيمة المختلفة، وآمنتْ بذلك إيماناً عقلانيًّا قائماً على مختلف الأدلّة

---

(١) لعلَّ البعض يقول: إن هذه النسبة إلى العقل غير صحيحة في اللغة، والتسمية الصحيحة: عقلي. ولكني لا أجد غير كلمة (عقلاني) تدل في هذا الباب على المعنى الذي أريد، فلتشفع للكلمة دلالتها ووحيها.

التجريبيَّة والعلميَّة القاطعة، وأقدمت الحكومة الأمريكيَّة بناءً على ذلك على إصدار قانونٍ بتحريم الخمر. .

ولكن ما الذي تمّ بعد ذلك؟. لم تمض فترةٌ حتى أخذت رؤوس أُولئك المقننين أنفسهم تتمايل من ألم الحرمان. . ثمَّ ما هو إلَّا أن عادوا فنكصوا على أعقابهم، ومزَّقوا القانون الذي كانوا قد أصدروه، وراحوا يعكفون على أقداحهم يترعونها من جديد. .

أمَّا في المدينة المنوّرة، وقبل أربعة عشر قرناً، حيثُ جماعة من الأمّيِّين قامت حياتهم منذ أمدٍ طويل على الخمر والشمس والماء والهواء، يقتاتون دنان الخمر كما يقتات النَّاس زكائب الحنطة، فقد وقعت المعجزة هناك بسرّ آيةٍ واحدة لم تزد على بضع كلمات. ما كاد أُولئك المؤمنون يسمعونها، ويسمعون قول ربهم جلّ جلاله في ختامها: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، حتى أُريقت الدّنان، وحُطِّمت الأقداح، **وتعالت الصّيحات: انتهينا ياربّ.**

وفي ساعةٍ واحدةٍ تحوّلت الخمر من عنصرٍ من عناصر الحياة كانت ضرورتها من ضرورة الشمس والماء والهواء، إلى رجسٍ مستقذرٍ شنيع. وفي ساعةٍ واحدة نُسخت عادة متمكّنة أصيلة، كأن لم تكن بالأمس، وكأن لم تكن لها جذور بعيدة راسخة.

فما الفرق بين أمريكا التي آمنتْ عن تجربةٍ ودراية وعلم، وبين أصحاب رسول الله ﷺ الذين استقبلوا الأمر تلقّياً وآمنوا به غيباً؟. .

هنالك، يقين فكري أعزل، لا تشايعه النّفس، ولا يؤيّده الهوى. وهنا شيءٌ وقر في القلب بعد أن استقرَّ في الفكر. والقلب ـ كما تعلم ـ سيد هذا الكيان الإنساني كلّه، يقوده كما يحب، وفي السبيل التي يريد.

ثمَّ إنَّ القلب كالمرآة، لا يمكن أن يخلو من صورة تظهر على صفحتها. . فإمَّا أن تثبت فيه صور من عكر الدّنيا وأهوائها، وإمَّا أن يشرق بالمحبّة الإلهية الصّادقة. وإذا فاض القلب بعكر الشهوات والأهواء، فهيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملاً لصاحبه على أيّ عملٍ من أعمال التضحية أو الفداء.

ولعلّك تسألني الآن: فما هو السّبيل إلى تزكية القلب وغرس المحبّة الإلهيَّة فيه حتى يزداد بذلك الإيمان، وتتوفّر مقوّمات التضحية والبذل والجهاد؟

والجواب: إنَّ لك يا أخي المسلم إلى ذلك سبلاً كثيرة.

فمن أهمّ هذه السبل أن تخلو إلى نفسك بين كلّ فترةٍ وأُخرى مدّةً من الزّمن، تتأمّل فيها بنفسك وحقيقتها ومَنشئها، ومدى حاجتها إلى عناية الله وتوفيقه، في كلّ لحظةٍ من لحظات الحياة، وفي النّعم المتنوعة الكثيرة التي يُكرمك الله بها في سائر أحوالك وتقلباتك، ثمَّ في النَّاس، ومدى ضعفهم أمام الخالق عزّ وجلّ، وعدم أيّ فائدة من وراء مدحهم أو قدحهم أو الاعتماد عليهم، ثُمَّ أن تتفكر في مدى عظمة الخالق جلَّ جلاله، وفي مظاهر آلائه ورعايته المختلفة التي لا تُحصى، وكيف أسبغ عليك رداء ستره، فحجز عن النَّاس عيوبك، وأبقاها سرّاً بينك وبينه، ثمَّ أشاع فيهم مناقبك وفضائلك دون قصدٍ منك إلى ذلك. ثُمَّ أن تُتبع ذلك بالإكثار من ذكره، وتسبيحه بالقلب واللسان، والإكثار من تلاوة القرآن.

ومن أهمّ هذه السبل أيضاً أن تُكثر من التأمّل في سيرة المصطفى عليه الصَّلاة والسّلام، وأخلاقه، وطريقة حياته، ومُعاملته للنّاس، فإنَّ ذلك

كلّه جزء من مظهر نبوّته عليه الصّلاة والسّلام، ومن شأن التأمّل في ذلك تقوية الإيمان وترسيخه في القلب.

ثمَّ إنَّ القلب من شأنه أن يخفق بحبّ الفضائل، والمُثل العليا. ومهما بحثت فإنّك لن تجد الفضيلة والمُثل العليا ومظاهر الرّقّة والجمال النفسي والخُلقي مجتمعةً كلّها في كيانٍ واحد، إلّا كيان أفضل المخلوقات محمّد عليه الصّلاة والسّلام. فلا غرو أن يكون مهوى أفئدة المفكّرين والمتأمّلين، وقدوة جميع العقلاءِ المنصفين.

ومن أهمّ هذه السبل أيضاً، الإكثار من العبادات عامّةً والصّلوات خاصّة، والاستقامة عليها في خشيةٍ وحضور، فذلك هو الغذاء الذي يُبقي على العقيدة وينمّيها ويقوّي جذورها في النّفس والقلب.

ولا والله لن تتساقط الآفات المختلفة التي تتعلّق بالنّفس، ولن يحيا القلب بنور المحبّة والعرفان إلّا بعد أن يزداد التعبّد والتبتّل في حياة المسلم، حتى يمتدَّ أثرهما إلى النفس والقلب فيهزّهما هزّاً، ويدفعهما مدّاً وجزراً، بين طرفي الخوف والرّجاء، فعند ذلك تتساقط تلك الآفات العالقة بالنفس، وتتبدَّد تلك الغاشية الممتدَّة على صفحة القلب.

فإذا سار المسلم في هذا السبيل، وتهيّأ له القيام بهذه المهامّ، نبتت له من ذلك في قلبه محبةٌ إلهيَّة عارمة، تجعله لا يخشى أيّ عظيم، ويحتقر كلّ مغريةٍ من المغريات، ويستهين بكلّ إيذاءٍ وعذاب، ويستعلي فوق كلّ إذلالٍ أو استهزاء.

ولعمري تلك هي العدّة الكبرى التي جهّز الله بها حبيبه محمّداً عليه الصّلاة والسّلام، للقيام بأعباءِ الدّعوة الإسلاميّة، وهي العدّة التي ينبغي أن يتسلّح بها من بعده كلّ مسلم.

أُريد أن أضع يدك يا قارئي الكريم بعد هذا الذي ذكرت، على مكمن الدّاء العُضال في حياتنا الإسلاميَّة اليوم:

إنَّ داءنا المستحكم العضال، أننا مسلمون بالفكر والعقل، لا بالحبّ والقلب، أي إننا نمارس إسلاماً عقلانيًّا مجرّداً بعيداً عن جواذب القلب ومؤثّراته.

ومثل هذا النّوع من الحياة الإسلاميَّة قد يُثمر ثروةً فكريّةً عظيمة، أو مكتبةً إسلاميّةً واسعة، ولكنَّه لن يُثمر أبداً السعادة الإسلاميَّة المنشودة.

إنَّ أقلَّ تجسيدٍ لهذه الحقيقة التي أقولها، أنّك قد تجتمع مثلاً بجماعةٍ من المسلمين لهم مركز الصّدارة في الفكر والقيادة الإسلاميَّة في المكان الذي يوجدون فيه، ويبدأ الحديث بينهم عن الإسلام، وكيفيَّة الدّعوة إليه، والنّهوض به، وواجب المسلمين في هذا العصر؛ ويغوصون في هذا الحديث في نشاطٍ ولذّةٍ وحماس، ويتعالى صوت مؤذّنٍ على مقربةٍ منهم يؤذّن للصَّلاة، والحديث لا يزال موصولاً! وينتهي صوت الأذان، ويذوب في ضوضاءِ الحديث وصخبه!.

ويمتدّ وقت طويل بعد ذلك، والقوم مشغولون عن الاستجابة للأذان، والقيام إلى الصّلاة، بالحديث عن الإسلام والاهتمام بشأنه، ويوشك وقت الصَّلاة أن يخرج والقوم لا يزالون في شغلهم وحديثهم. وأخيراً يقترح أحدهم استراحة دقائق ليقوموا إلى الصَّلاة.. وتبدأ صلاة سريعة، قد لا تزيد على ركعات الفرض وحده، وتتأمّل في مظهر صلاتهم، فلا تشكّ أنَّ كلّ واحدٍ منهم منصرف بتفكيره إلى الحديث الذي قاموا لتوهّم عنه!

وما هو إلَّا أن يسلِّموا يَمنةً ويَسرة، حتى يلتفتوا بعضهم إلى بعض مرَّةً أُخرى، وقد تذكّر هذا في الصَّلاة ما كان قد نسيه أثناء الحديث، وقام في ذهن الآخر إشكال تصوّره عند قراءة الفاتحة.. ويعود الحديث بينهم عن الإسلام ومشكلاته، وما يتعلّق به، وقد نسوا أنَّ من وراءِ الصَّلاة التي فرغوا منها تسبيحاً وذكراً ودعاءً، وأنَّ لها تتمَّة من الرّواتب والنّوافل، وأنّ كلّ هذا الذي يخوضون فيه من الحديث إنما هو وسيلة إلى هذه الغاية العظيمة!

وهكذا دواليك.. وقس على هذه الصّورة غيرها من أشباهها.

غير أنَّ الذي هو أهمّ من هذه الصّورة نفسها، أنَّ الكثيرين من المسلمين اليوم يدافعون عنها، ويتفلسفون في الدّعوة إليها، ويقتنعون ويُقنِعون أنَّ الإسلام ليس إلَّا هذا المظهر الحركي الذي ينطبع شكله في البحوث الفكريَّة، والمناقشات النظريَّة، والتنظيمات الشكليَّة، ويظلّون يقلّلون من أهميَّة العبادة، والتبتّل والأذكار، ويوهمون أنها بضاعة العامَّة والجهّال الذين لا شغل لديهم حيث يملؤون بها فراغ وقتهم.

وإنّي لأذكر حفلاً حاشداً في إحدى بلادنا العربيَّة، كنتُ أحد الحاضرين فيه، وأذكر أنَّ أحد المفكّرين من العلماءِ الفضلاءِ خطب في ذلك الحفل، فكان ممَّا قال: إنَّ مشكلة كثيرٍ من المسلمين اليوم ما يحسبونه من أنَّ الإسلام هو أن يُكثر الإنسان من الصَّلاة.. أو أن يُكثر من التعبّد.. مع أنَّ الإسلام هو العمل والبناء.

ولقد أخذتُ ألتفتُ إذ ذاك عن يميني ويساري أنظر في وجوه الحاضرين، ثمَّ رحتُ أتأمّل في نفسي طبيعة أهل تلك المدينة كلّها، فما هدتني عيناي ولا أرشدني خاطري إلى أنَّ ثمَّة أقواماً انقطعوا عن

الحياة الدّنيا في كهوفٍ قاصيةٍ للعبادة والصَّلاة. . وتأمّلتُ، فوجدتُ أنَّ أعظم متعبّدٍ فيهم هو ذاك الذي يحافظ على فرضه يؤدّيه جماعةً في وقته، وقد يُتبعه بركعاتٍ خفيفةٍ من نوافله المتمّمة. . فما وجه الحاجة إلى هذا الكلام، وما الضرورة الدّاعية إلى التّكريه بالصَّلاة أو الدّعوة إلى التّخفيف من العبادات، وما في الحاضرين كلّهم والبلدة بأسرها إلَّا مقصِّر عن الحدّ الأدنى في ذلك؟. .

والعجيب أن ندعو بعد ذلك إلى العمل. . والبناء. . والتّضحية. .

فما الذي ينهض بالمسلمين إلى القيام بذلك كلّه، وهم مقيّدون بأثقالٍ وأغلالٍ من الشّهوات والأهواءِ والمطامع الدنيويَّة المختلفة!. ما الذي يحملني على استدبار شهواتي وأهوائي، وإنَّ قلبي ليخفق بحبّها والتعلّق بها؟.

إنَّ الأمر يحتاج ولا ريب إلى مساعدٍ ومُعِين، فأين هو المساعد والمعين وما هو؟

لقد أجاب البيان الإلهي عن هذا، ووضع بين أيدينا المساعد والمعين، وذلك في قوله جلَّ جلاله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، وطالما وضع الباري جلَّ جلاله هذا الدّواء المساعد بين يدي حبيبه المصطفى ﷺ، كلّما حزبه أمر، أو أطبقت عليه شدَّة، أو استيقظت في نفسِه بعض المشاعر البشريَّة، تأمّل مثلاً قوله تعالى لنبيّه عليه الصَّلاة والسّلام: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق].

وأمعن النّظر في هذه الآيات الأخرى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان].

ومعاذ الله أن يكون أسلافنا من المسلمين الذين شادوا صرح هذا الدِّين ببطولاتهم وجهادهم وتضحياتهم، قد نجحوا في شيءٍ من ذلك إلّا بعد أن أزاحوا عن أنفسهم أثقال الشهوات، وأغلالَ الأهواء، بسلاحٍ من العبادة والتبتُّل، والوقوف على الأقدام بين يدي ربهم السّاعات الطّوال، في جُنح الليل، يسكبون دمعاً ساخناً ويناجونه في دعاء خاشع، ويذكرونه بقلبٍ واجف..

ولا والله، لن يستطيع مسلمو اليوم أن يسيروا وراءَ خُطى أجدادهم بالأمس، إلّا إذا غمرت اللّوعة قلوبهم، وتلظّت الأشواق الإلهيّة بين جوانحهم، وملأوا أكوابهم بتلك الخمرة العُلويّة التي تنشلهم من قتام هذه الشهوات والأهواء، وتساموا بوجدانهم إلى مستوى الحقيقة العليا.

إنَّ لوعة الحبّ وحدها هي السّوط السائق، والتّيار المحرّك. والمحبّ هو وحده الذي يبذل الجهد شوقاً إلى المحبوب، فيسهل بذلك عليه الصّعب، ويقرب له البعيد، وتفنى لديه القُوى، وتذوب فيه الحياة، ولا يرى أنّه قد أوفى بعهد المحبّة، أو قام بواجب شكر النّعمة.

ويوم يعمر هذا الحبّ قلوب المسلمين اليوم، يتكامل البنيان كلّه، ويتوفّر العمل جميعه، وتتجلّى معجزات التضحية والبذل والجهاد، وتتنزّل معجزات النصر والعزّة والتّأييد.

❑ ❑ ❑

العبوديّة، والمصلحة، والجزاء

ليس عجيباً جدّاً أن ترى عاقلاً من النَّاس، منحرفاً عن منهج الإسلام وحكمه لأنّه لا يفهمه أو لم يؤمن به بعد، فهذا جاهل لا يعوزه ـ ليرتدَّ عن غيّه ـ إلَّا دواء التّأمّل والمعرفة. ومثله في النَّاس كثير.

ولكنَّ العجيب جدّاً أن يصادفَك إنسانٌ يلازمك في مجلسٍ أو يستوقفك في طريق، ليحدّثك عن روعة الإسلام وعظمته، وعمّا فيه من طاقاتٍ فكريّةٍ هائلة، وعن الواجب الذي يترتّب عليك وعلى عامَّة الشعب النّهوض به لإبراز طاقاته هذه والكشف عن مكامن العَظَمة والرّوعة التي فيه، ثمَّ لا يبخل عليك بأن يبسط أمامك منهاجه الفكريّ العظيم الذي انتهى من وضعه وتقريره، فيما يتعلّق بكيفيَّة «الإصلاح الدِّيني» و«التطوير الشرعي» و«التهذيب السُّلوكي» وغير ذلك ممّا يتحتّم على المسلمين النّهوض به، ليستعيدوا أمام دول العالم هيبتهم، وليجلبوا أنظار الأمم إلى إبداعهم ورقيّهم!.. ثُمَّ يشيح بوجهه عنك، ويختم حديثه هذا بزفراتٍ يبعثها من أغوار صدره، ألماً من أنَّ المسلمين لا يفهمون شيئاً من هذه الواجبات المترتّبة عليهم!

وتتأمّله، وهو يهدر في محاضرته هذه، فيدهشك أن ترى لسانه في جانبٍ وسلوكه الفعلي في جانبٍ آخر، فهو ليس من حقيقة الإسلام في شيء. وكأنَّ الرّجل قد أقسم أن يُعاقب المسلمين بمجافاته لإسلامهم،

أو يهبُّوا هبّة رجلٍ واحدٍ إلى تطبيق أفكاره ومنهجه الإصلاحيّ.

وتمعن بعد ذلك في صورة حديثه عن الإسلام وكيفيَّة إطرائه له، فلا تتصوّر إلّا أنّك أمام أُستاذٍ وقور انتهى لتوّه من النّظر في عملٍ علميٍّ لأحد تلاميذه، فراح يقرّظه متعالياً من حيث يريد أن ينوّه بنفسِه وشأنها!..

أجل!.. إنَّ هذا النّموذج من النَّاس لعجيب جدّاً!..

فما تدري، أيحسب أحدهم أنَّ الإسلام إنما هو نتيجة منتدى فكريّ أُنشىء أو تأليف نخبة من المفكِّرين توالوا مع الزّمن، فهو يريد أن يعلو بنفسه إلى مصافّهم، ويسجّل على التاريخ اشتراكاً معهم في الفكر والرأي، أم إنهم يعلمون ما يعلمه عامَّة العقلاء من أنَّ الدِّين إنما هو شرعة الله لعباده في الأرض، ولكنَّهم يرون من الممكن أن يعمد أحد هؤلاء العباد فيمعن النّظر في هذه الشريعة، ثمّ يرفع عنها تقريراً إلى مشرّعها العظيم جلّ جلاله، يضمّنه ملاحظاتٍ واقتراحاتٍ إصلاحيَّة لها؟!..

لستُ أدري!.. غير أنَّ الأمر لا يعدو، بنظري، واحداً من هذين التّأويلين أو ما يشبههما من السّخافة وعمق الوهم.

وأيًّا كانت الحقيقة، فإنَّ هذه الصّورة العجيبة حقًّا، ترتبطُ بجذورٍ فكريّةٍ معيّنة، هي أساس كثيرٍ من مظاهر الوهم، وضلال الرأي، لدى أخلاطٍ من النَّاس في عصرنا هذا.

وتتلخَّص هذه الجذور الفكريَّة، في أنَّ الواحد من هؤلاءِ النَّاس، لا يهمّه أن يعلم عن الإسلام إلّا أنّه بضعة أحكامٍ من الأوامر والنّواهي تتعلّق بالسُّلوك والحياة، ولكن ما هو مصدر هذه الأحكام، ومن أين جاءت، وكيف تكوّنت؟ هذا ما لا يتوفّر لديه أيّ علمٍ يقينيّ عنه.

بل لعلّ الرّجل لا يهمّه أن يعلم شيئاً من ذلك، إذ هو لا يُريد أن يشغل فكره ونظره إلَّا بجملة الأحكام والمعايير التي رآها أمامه في مجتمعه الذي يعيش فيه، والتي كان من الممكن أن لا يراها ولا يحسّ بها، وأن لا تكون ذات أيّ تأثيرٍ في تاريخه، لو أنَّه نشأ وعاش في مجتمعٍ آخر!..

إذاً، فالمسألة فيما يتصوّر، ليست أكثر من واقعٍ معيّنٍ صادفه ورأى جذوره بعيدة الأثر في تاريخه فأحسّ بأنَّ عليه أن يُبدي رأيه في هذا الواقع كما هو أمامه، دون أن يُجهد فكره بالتّأمل في أيّ حقيقةٍ خفيَّة قد تتّصل به!..

ومثل هؤلاءِ النَّاس، لا جدوى من أن تُحدِّث أحدهم عن عظمة الإسلام، ودقّة نظامه وأحكامه، والفائدة من التمسّك به، إذ ليس هذا هو الأمر الذي فاته علمه حتى وقع فيما وقع فيه من ضلال السُّلوك والفهم، بل إنّك إن ذهبتَ تُنفق ساعةً في حديثك له عن الإسلام من هذا الجانب، قاطعك، ومضى يُنفق من وقتِك ساعاتٍ طويلة من الزمن في بيان مزيدٍ من عظمة الإسلام وفلسفته وقيمة مبادئه وأحكامه!.. لا جرم أنَّ الواحد من هؤلاءِ يُشفق عليك في نفسِه، حينما تُقبل عليه مهتمّاً، لتحدّثه في موضوعاتٍ من هذا القبيل.

وإذاً فما هو العلاج الذي يجدي في هذه المشكلة ويصلح ما شخّصناه من جذورها الفكريَّة الأولى؟

إنَّ العلاج هو أن تنطلق بهذا الرجل إلى تصوّر منبع الحقيقة الإسلاميَّة، صارفاً نظره عن فروعها وأغصانها الكثيرة المختلفة، وهناك تستطيع أن تقفَ به على ما يضمنُ له سلامة التصوّر الإسلامي، وتستطيع

أن تعرّفه على ذاتيَّة الإسلام في جوهره الكلّي المتميّز عن سائر نظم الأرض ومختلف مبادئها وأحكامها.

فإذا اطّلع على ذلك، تنبّه في اللحظة ذاتها إلى مسؤوليّته الكبرى تجاهه، وأدرك أنَّ الأمر أخطر ممّا يتصوّر... وهيهات أن تتحلّل ذمّته عن حقّ الإسلام عليه بمجرّد عرضٍ وصفيٍّ له، أو دفاعٍ كلاميّ عنه. وعندئذ يعود فينظر إلى جملة بنوده وفروعهِ نظرةً جديدةً أُخرى، نظرةً كليّةً تدفعهُ دفعاً إلى أن يشمّر عن ساعد العمل المضني في هدوءٍ وانكسار واجف.

وإنَّما تنبع الحقيقة الإسلاميَّة من عناصر أساسيَّة ثلاثة، إن أدركها الإنسان وقدَّرها حقَّ قدرها كان مسلماً حقًّا، وتجلّى النّظام الإسلامي أمامه متميّزاً عن سائر النّظم الأخرى. وإن لم يدركها الإدراك الصّحيح، لم يكن إسلامُه إلَّا نسبةً فخريّةً إليه، ولم يكن تشريعه ونظامه ـ فيما يتصوَّر ـ إلَّا نسخةً مماثلةً لأيّ نظامٍ أو تشريعٍ سواه.

وهذه العناصر الثلاثة هي: **العبوديَّة، والمَصلحة، والجزاء.**

فأمَّا العبوديَّة، فهي أوّلها رتبة، وأعظمها أهميّةً وأثراً، ذلك لأن المنهاج الإسلامي في مجموعه، من عقيدةٍ وعبادةٍ وتشريعٍ وأخلاقٍ، ليس إلَّا جلباباً يرتديه الإنسان ليُعلن بذلك عن عبوديّته التامَّة لله عزَّ وجلّ.

أي إنَّ الصلة الأساسيَّة الأولى التي تربطك بهذا المنهاج، هي أنّك عبدٌ مملوكٌ لمشرِّعه وواضعه، وهذا هو معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي ليخضعوا صاغرين للنّظام الذي أرتضيه لحياتهم. وليس المقصود بالعبادة ما قد يتوهَّمه بعض السّطحيّين من أنها أداءُ شعائر العبادات من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ فقط، ثمَّ هو فيما وراء ذلك حرٌّ يفكّر كما يحبّ ويعثو بالحياة كما يشاء!..

إنَّ الذي يتوهَّم مثل هذا الوهم، ليس إلَّا إنساناً ضلَّ ضلالاً بعيداً عن معرفة ذاته والتعرّف إلى هويَّة نفسه، ولولا ذلك لأدرك رقّه الشامل، وعبوديّته المطلقة لخالقه العظيم جلَّ جلاله، ولَعَلِمَ أنَّهُ ليس مملوكاً لهذا الخالق في لحظات صلاته وساعاتِ حجّة وصيامِه فقط، وإنما هو ملكٌ له في كلّ تصرّفاته وسكناته، وأعماله؛ ولأدرك هذه الحقيقة في سهولةٍ ويُسر من خلال قوله جلّ جلاله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام].

وإذا اهتدى الإنسان إلى هذه الحقيقة، أدركَ بذلك جوهر النّظام الإسلامي وما يفترقُ به عن النّظم الأخرى، وتنبّه للصّلة القائمة بينه وبين هذا النّظام، ألا وهي صلة العبودّية المحضة لله جلّ جلاله.

وإذا أدرك الإنسانُ هذه الحقيقة، كفكف من جماحِ نفسِه، وأمسكَ لسانه عن التبجّح بملاحظاته وإبداءِ اقتراحاته، وأقبل في خضوعٍ مستكينٍ وهو يُناجي بارئه العظيم:

لبّيك اللّهُمَّ لبّيك... لبَّيكّ اللّهُمَّ حقًّا وصدقاً... لبَّيكَ اللّهُمَّ تعبُّداً ورقًّا.. خشع لك اللّهُمَّ سمعي وبصري ومُخّي وعظمي وما استقلّت به قدمي.

وعندئذٍ يُصبح أميناً على شريعة الله ونظامه في الأرض، لا يغيّر أو ينتقص منها إرضاءً لغروره أو مصلحته أو شهوة نفسِه، ولا يُتاجر باسمها طمعاً في شهوةٍ أو منصبٍ أو مغنم، ولا يتحذلَق باسمها مخادعاً أو مُتعالماً، بينما هو يعانقُ سلوكاً يعاندها ويخاصمها في كلّ صغيرةٍ وكبيرة.

* * *

وأمّا المصلحة، فهي العنصر الثاني من مقوّمات الحقيقة الإسلاميَّة، يأتي من وراءِ العبوديَّة ولكنَّه يرتبط بها.

أي إنَّ واجبكَ الأوّل أن تعلم بأنّك عبدٌ مملوكٌ لله عزَّ وجلّ، وتسير ضمن منهجه الذي اختاره لك وفرضه عليك، تحقيقاً لمقتضى عبوديّتك له. ولكنَّه سبحانه وتعالى قد كتب، مع ذلك، على نفسِه الرحمة لعباده تفضّلاً منه وإحساناً، فلم يكلّفهم إلّا بما فيه صلاح معاشهم ومعادهم، ولم يشرع لهم من الدِّين إلّا ما فيه خيرهم أفراداً وجماعات. ولذلك كان تعريف الإسلام فيما أجمع عليه الأئمَّة:

«شرعٌ إلهي سائقٌ لذوي العقول السّليمة إلى ما فيه صلاحُهم في معاشهم ومعادهم».

فارتباط ما في الإسلام من عنصر المصلحة بما فيه من عنصر العبوديَّة يعصمُكَ من أن تذهب في تفسير المصلحة مذهباً تتحلَّل فيه من التكاليف والأحكام، ويحملك في الوقت نفسه على أن تبحث عن مصلحتك في ثنايا نصوص الكتاب الكريم والسنّة المطهَّرة. لا تخرج عليهما ولا تتجاوزهما إلى مجال الرأيّ والهوى النّفسي.

وهذا الارتباط نفسه هو الذي يجعلك تطمئنُّ إلى ما في مختلف التّكليفات الإلهيَّة، من المصلحة والخير والسّعادة، حتى وإن لم يظهر لعقلكَ الشخصيّ شيءٌ من ذلك عند تأمّلها أو لدى أوّل ممارستها.

وعدم جلاءِ هذا الارتباط، عند بعض النَّاس ممّن يدينون في ظاهرهم بالإسلام، هو الذي يجعلهم يخطئون فيحاولون فهم المصلحة والمفسدة حسبما تدركه أفهامُهم المجرّدة، وتدلّ عليه تجاربهم الشخصيَّة. وهو الذي

يجعلهم يحاولون تحكيم موازينهم الفكريَّة المجرَّدة في أحكام الشريعة ومبادئها، مستدلّين بأنَّ الشريعة لا تحملهم إلَّا على ما فيه الصَّلاح والخير، وهم أدرى بما فيه صلاحهم وخيرهم.

ولو علموا أنهم، قبل كلّ شيءٍ، أرقّاء مملوكون لخالقهم العظيم جلّ جلاله، لأدركوا خطيئة هذا التصوّر والوهم، ولعلموا أنَّه ليس صحيحاً أنّ الإنسان أدرى بما فيه خيره وصلاحه، بل الصّحيح ما قاله علاّمُ الغيوب:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإذاً فالعاصم الوحيد من ضلالة الرّأي في متاهات التعلّم هو أن يفهم الإنسان صلة العبوديَّة التي بينه وبين الله أوّلاً، ثمَّ يفهم صلة المصلحة التي بينه وبين شرعه ثانياً.

أمَّا إذا لم يرتق الإنسان إلى هذا الفهم، واكتفى بتصوّر أنَّ الإسلام ليس إلَّا ضماناتٍ لمصالح الإنسان وسعادته، فلا مناص من أن يتخذ هذا الإنسان من الإسلام مجرَّد منبرٍ شامخٍ يقف عليه ليتحدَّث عمّا في رأسه من أفكار وآراء باسم الإسلام وحكمه.

وإذا تأمَّلتَ، علمت أنَّ أهمّ أسباب المصائب والنّكبات التي تحيق بالعالم اليوم، إنما هو تفسير المصالح البشريَّة حسبما يفهمه البشر أنفسهم. ذلك أنَّ البشر ليسوا إلَّا أفراداً، وكلّ فردٍ إنما يفهم من المصلحة ما يناسب حالته الشخصيَّة؛ وعلى فرض أنَّه فهم صحيح، فإنَّ ما هو مصلحة للفرد يكون في غالب الأحيان مفسدةً للجماعة. ومن أين لك بعقلٍ إنسانيٍّ يجمع البشريَّة كلّها في كتلةٍ واحدةٍ على اختلاف طبائعها ونزعاتها وظروفها،

ثمَّ يكسوها ثوباً من المصلحة سابغاً على قدرها يسعد به الأفراد والمجموع؟!.

* * *

أمَّا **العنصر الثالث، وهو الجزاء**، فإنَّه يأتي ضمانةً لتحقيق كلٍّ من العنصرين السَّابقين، فلولاه لما وجدتَ مجرّد الإيمان بالعبوديَّة لله، حاملاً على ممارسة التعبّد له في السُّلوك والاختيار، ولولاه أيضاً لما وجدت مجرَّد التصديق بما تضمنته أحكام الشريعة الإسلاميَّة من مصالح للعباد، حاملاً لهم على التقيّد بها وعدم مجاوزتها إلى شيءٍ من نوازع الشّهوات والأهواء.

غير أنَّ ما يتضمّنه هذا الدِّين الإلهي العظيم، من الإخبار عن مغيّبات الحشر والحساب والجزاء والعقاب والثّواب، يجعل المسلم ملتزماً بمقتضيات كل من العنصرين المذكورين، رغباً ورهباً.

صحيح أنَّ مجرَّد إدراك الإنسان عبوديَّته لله عزّ وجلّ من شأنه أن يحمله على الانصياع لحكمه وسلطانه، دون حاجةٍ إلى حوافز العقاب والثّواب، ولكنَّها رتبة الخواص من المؤمنين، وهم الذين اضمحلّت نفوسُهم وذابت شهواتهم، في ضرام الحبّ الإلهي الذي يُسيطر على كيانهم، فلم يكن التزامهم للأحكام بمجرَّد عهد الإسلام في أعناقهم بل بسائق الحبّ الآخذ بمجامع قلوبهم أيضاً.

أمَّا عامَّة النَّاس، فلا يسوقهم إلى التزام بالأحكام إلَّا سائق الخوف والرَّجاء، مهما أدركوا عبوديّتهم لله عزَّ وجلَّ، ومهما علموا أنَّ أحكامه لا تنطوي إلَّا على ما فيه خيرهم وصلاحُهم.

وإذا تأمّلت في هذا الذي ذكرناه، فلتعلم أنَّ ذاك الذي لا شأن له بالإسلام إلَّا أن يتمشدق لك بآرائه عنه ويصوّر لك إعجابه بكنوزه و«تراثه»، ويحدّثك عن واجب العرب و«رجال الدِّين» حيال «إصلاحه وتطويره»[١]، إنما هو رجل اجتذب الإسلام مفصولاً عن جذعه الذي يتقوّم به وهو العبوديَّة لله عزَّ وجلّ، ومبتوراً من النتيجة التي يؤول إليها وهي: الجزاء، فلم يعد فيما يحسب ويخيّل إليه إلَّا أحكاماً مصلحيّةً تحيط بها هالةٌ تاريخيَّة مجرَّدة.

وتلك هي بليَّة الإسلام بطائفةٍ من المتمسّحين به!!..

❑❑❑

---

(١) وضعنا هذه الكلمات الثلاث ضمن أقواس، لأنها كلمات دخيلة على القاموس الإسلامي لا علاقة له بها إطلاقاً.
فالإسلام ليس تراثاً موروثاً من الآباء والأجداد، ولكنه الخطاب التكليفي من رب العزة للناس كلهم إلى يوم القيامة.
والعلماء ليسوا هم وحدهم رجال دين، وإنما رجال الدِّين في حكم الإسلام هم كل الذين دخلوا في عهده ووقعوا تحت صكه.
والإسلام صالح في كل عصر وزمن، فما هو بحاجة إلى من يُعمل النظر في إصلاحه، وهو شريعة الله لعباده في الأرض، فلا مجال لمد اليد البشرية إليه بتطوير أو تبديل.

القسم الثّاني

أدب واجتماعٌ

مشكلة الحضارة في مجتمعنا

من القوانين المنطقيَّة المسلَّمة بداهةً، قولهم: «الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره»، أي إنّك لا تستطيع أن تُعطي الرّأي في أمرٍ من الأمور إلّا إذا تصوَّرتَ ذلك الأمر على حقيقته، وتخيّلتَ صورة الرَّأي الذي تبديه له.

فأنت لا تستطيع أن تحكُمَ على الجدار المائل بوجوب هدمه ما لم تعلم معنى كونه مائلاً، والضّرر المتوقّع من بقائه كذلك، وما لم تتصوَّر نتيجة هدمه ثمَّ تشييده مستقيماً من جديد.

وأنت لا تملك النّجاح في إقامة بنيانٍ قويّ الأركان، متناسق الأجنحة والطّبقات، ما لم تتصوَّر خارطة البناء قبل ذلك مشيّدةً في ذهنك، أو مُقامةً على الورق أمام عينيك. ولا يمكنُ أن تصل إلى البلدة التي تريدها، ما لم تتصوَّر الطّريق إليها أوّلاً، ثُمَّ تُتبع سيَّارتكَ متنَ ذلك الطّريق بعينه.

وهكذا تجد هذا القانون المنطقيّ مطّرداً في كلّ أمرٍ من أُمور الحياة، ولا يشذّ في حالٍ من الأحوال.

وعلى الرّغم من سهولة فهم هذا القانون، فإنّنا كثيراً ما ننسى أن نحكّمه في شؤون حياتنا، وفي أيّ الشؤون ننسى تحكيمه؟... ننسى في أخطرها على الإطلاق، وفي أشدّها صلةً بتكوين حياتنا العامَّة!... إنّنا ننسى تحكيم هذا القانون الهامّ في سلوكنا الحضاري!

وأنت تعلم أنَّ بناء الحضارة هو أوَّل العوامل في تكوين حياة الأُمَّة، وأنَّ هذا البناء بمقدار ما يكون منسجماً في أجزائه، قويًّا في أساسه، يورث حياة الأُمَّة القوَّة والانسجام؛ وبمقدار ما يكون متنافراً في أجزائه، ضعيفاً في أساسه، يورث حياة الأُمَّة القلق والتّنافر والضّعف.

ومع هذا فإنّك لترى أنَّ بناءَ الحضارة في مجتمعاتنا لا يقوم على أيّ فلسفةٍ أو تخطيط سابق، وإنما يتكوّن في مجموعه من عوامل الاحتكاك بالآخرين ومن الحركة التلقائيَّة للبيئة والمجتمع، وكثيراً ما تصطدم العوامل المتناقضة والاتجاهات المتعاكسة في جوٍّ من القلق والاضطراب، ثُمَّ لا يكون السّبق إلَّا للغالب والأعتى والأقوى في مجال الصّراع.

ويصبح نسيج الحضارة في مثل هذا المجتمع أشبه بسفحٍ تعرّض للرّياح الأربعة، ومرَّت عليه عواصف قادمة من كلّ بستانٍ وصحراء وغاب، تحمل إليها اللّقاح من ذلك كلّه، فنبتت فوق أديم ذلك السّفح حشائش وحناظل وأشواك وأزهار: أصناف من النباتات لم يؤلّف بينها إلَّا كرُّ الغداة والعشيّ ومصادفات الطّبيعة المرسلة.

وحينما يكون هذا اللّون المتنافر البعيد عن التّنظيم غير معيبٍ ولا خطيرٍ في سفوح الجبال، فإنَّه يكون معيباً وضارّاً جدّاً في البساتين والحدائق الخاضعة لتنظيم الإنسان وفكره.

ومعنى ذلك أنَّ الحضارة التلقائيَّة التي لا تقوم على أساسٍ من التخطيط السَّابق وإن لم تكن معيبةً في عالم البهائم والوحوش، فإنَّ ذلك يغدو عيباً كبيراً وخطراً عظيماً في عالمٍ متمدّن ينعم أهله بثروةٍ من التدبّر والفكر.

وتلك هي مشكلة الحضارة في حياتنا اليوم.

هي أننا لا نضع للحضارة التي نريد تشييدها مخطّطاً سابقاً بناءً على دراسةٍ وبحث، لكي نمضي في بنائها على أساس ذلك المخطّط المدروس. على حين أنَّ الجوانب الأخرى لحياتنا ليست كذلك، فالبناءُ الاقتصادي يقوم عندنا على أساس خطّةٍ لا ننحرف عنها قدر الإمكان، والنّظام السياسي يسير على مخطّطٍ قلّما نتجاوزه، وتطوير الحياة الصناعيَّة والحالة الزّراعية لا يتمّ إلّا طبق نظامٍ سابق، ثمَّ لا تجد الجانب الذي يشذّ عن هذا القانون إلّا أهمّ ركائز الحياة الاجتماعيَّة على الإطلاق، ألا وهو حضارة الأُمَّة وسلوكها.

وسأشرح الآن طرفاً من خطورة هذه المشكلة، وأضرارها البليغة، ثُمَّ أَلفت النَّظر إلى عدَّة أسبابٍ رئيسيَّة لهذه المشكلة، أستخلصها من وقائع المجتمع وظروفه.

إنَّ أهمّ الأضرار النَّاتجة عن مشكلة (الحضارة الارتجاليَّة) تتجلّى في ناحيتين:

أولاهما: القلق أو الصراع النّفسي؛ فما من ريبٍ أنَّ أوّل مرضٍ تُصاب به أُمة ليس لها خطّ منهجيّ لحضارتها، هو الصّراع النّفسي الذي يودي بالإبداع الفكري عند رجالها، ويزهق الصَّفاءَ النَّفسي الذي هو وحده مصدر السّعادة للمجتمع، فتصبح ـ تحت وقع العوامل الحضاريَّة المتنافرة ـ متحرّكةً في اضطراب، غير سائرةٍ في مخطّطٍ أو اتجاه، ويغدو الفرد ضحيَّةً لحربٍ داخليَّةٍ مستعرةٍ في نفسِه، يتلقّى في المدرسة نظاماً سلوكيًّا يُحمل عليه ويُؤمر بالانسجام معه، حتى إذا خرج منها إلى المجتمع أخذ يتلقّى نظاماً آخر يحبّب هو الآخر إليه ويقدَّم له على أنّه الأفضل، وينظر حوله فيجد على كلّ نافذةٍ من نوافذ المجتمع نظاماً مختلفاً للحياة

والسُّلوك يُعرَض عليه ويؤمَر باتخاذه وتطبيقه.

ويُقبل بكلّ من نفسِه وعقلِه على استعراض هذه النُّظُم المتنافرة المتضاربة، فتقوم بين جوانحه حربٌ فكريَّة نفسيَّة هوجاء، لا تدعه حتى يصبح ضحيّةً لمزق هذه الحضارة المتنافرة، وقد كان أولى بالحضارة أن تُحيي وتُسعِد لا أن تُميت وتُشقي.

ومن هذه الزّاوية الخطيرة جدّاً يلعب الاستعمار في البلاد التي يطمع فيها.

لقد استدعى اللورد كرومر القسّيس دنلوب إلى القاهرة ليعرض عليه هذه الخطّة نفسها، وعُهد إليه بمستشاريَّة التربية والتعليم، وأوحى إليه أن لا يُحارب سلوكَ الإسلام من أساسه فيثير بذلك ردّ الفعل عند المسلمين، وإنما عليه أن يجعل مناهج التعليم مزيجاً من أفكارٍ واتجاهاتٍ متنافرة، فيها الشّكل الدِّيني المحدود، وفيها أيضاً الإغراء بالحضارة الغربيَّة والسُّلوك الأوربي، وفيها الطّقوس الإسلاميَّة الهيكليَّة.

ولاشكّ أنَّ أوّل ثمرةٍ شهيّةٍ كان الاستعمار البريطاني ينتظرها من وراءِ هذه السياسة هو الصّراع الفكري الذي يُتعب بال المسلمين ولا يوصلهم لنتيجة. ولقد رأينا وسمعنا كيف قام هذا الصراع الخطير، ولمَّا يقعد إلى الآن.

وأذكر على سبيل المثال أنَّ شابّاً مثقّفاً جاء في هذه الأيَّام[١] يصارحني ويشكو إليّ أنّه شقيٌّ بحياته، ولمَّا سألتُه عن السّبب أجاب بأنّه حائرٌ لا يدري كيف يسير في فجاج هذه الحياة، وأيّ سلوكٍ فيها يختار، وقال إنَّه في كثيرٍ من الأحيان يتمدَّد من أوَّل الليل في سريره لينام، ولكنَّ

(١) كان ذلك في منتصف الستينات، تاريخ كتابة هذا المقال.

الوساوس الفكريَّة تظلّ تساوره إلى ساعة متأخرة منه، ويظلّ هو ساهراً تحت وطأة صراعِها ومدّها وجزرها.

ولقد أطال وأسهب هذا الشاب لي في الحديث عن نفسِه وعن أنَّه يكاد لا يؤمن بشيءٍ حتى بنفسِه.... حتى استبدَّ بي الجزع الشديد له والإشفاق عليه، وإن كنتُ لم أملكْ من أمره شيئاً.

فلتتصوَّر معي أيها القارىء أنَّ هذا الشابّ فردٌ من أفراد المجتمع، بل هو زهرة في أوّل العمر من زهراته، وأنَّ مثله في حالته النّفسيَّة كثيرون.. .كلّ منهم يعاني مثل ما يعانيه هذا الشاب، وكلّ منهم يشقى بمزق هذه الحضارة المختلطة كما يشقى.

ثمَّ تصوّر كيف يذهب هذا الدّاء النّفسي ـ في أكثر الأحيان ـ بسعادة الأسرة ووحدتها: الإخوة في البيت مختلفون متدابرون في المنهج والرّأي، وأبوهم يسلك من دونهم جميعاً في سبيلٍ أُخرى من سبل الحياة، ويظلّ الصراع مشبوب الأوار بينه وبينهم، والأمّ تظلّ تُقنع بناتها بمعايير سلوكيَّة غير التي تلقَّينَها من إحدى نوافذ هذا المجتمع الكثيرة المتضاربة، ونظم الدّولة وقوانينها الشّكلية تنزع بهم إلى قيودٍ وأخلاقيّةٍ غير التي يقتضيها التحلّل الاجتماعي القائم.

ومن هنا ينعكس الخلاف الفكري في المجتمع الواحد، ويظلّ أكثر أفراده متشاكسين، يسلكون طرائق قدداً في الرّأي والمنهج والعقيدة. وحتى عندما ينتشر بينهم شعورٌ دينيٌّ عامٌ، يمكن أن يعدّ قاسماً مشتركاً يجمع شتات أفكارهم، فإنهم لا يتلقّون السُّلوك الفطري الإسلامي السليم إلَّا على أنّه: (تقاليد)!.. أي قيود لا مسوّغ للاحتباس فيها إلَّا مجرّد الإبقاء على عاداتٍ قديمةٍ خلَّفها الآباءُ والأجداد، وذلك لما يقومُ من

التّناقُض بينها وبين التّيارات الفكريَّة والسُّلوكيَّة الأخرى.

وشتّان بين أن يختار الإنسانُ سلوكاً معيّناً على أنَّه مبدأ ونظام يكمن فيه سعادته، وبين أن يُلزم به إلزاماً ويجبر على اتباعه وهو له كاره، فيتظرّف به شكلاً، وينقاد له تقليداً، إنَّه في الحالة الأولى يمارس ذلك السُّلوك وهو يشعر بالسّعادة والارتياح النّفسي، على حين أنَّه يمارسه في الحالة الثانية كارهاً، ويرتبط به ريثما يُتاح له الانفكاك عنه والهرب منه.

وحينما تغدو الحضارة الإسلاميَّة مجرَّد (تقاليد) لها في نفوس أربابها هذا المعنى، فإنها حينئذٍ لا تخيف أحداً من المستعمرين ولا المبشّرين، ولا يجد مثل (دنلوب) أيّ حاجةٍ عندئذ إلى محاربتها المحاربة الجذريَّة.

وهذا الاغتباط أو الاطمئنان هو ما صرّح به (جب) في مقدّمة كتاب (Whither Islam أين يتّجه الإسلام؟) حينما قال: «... والواقع أنَّ الإسلام كصيغةٍ وشكل وإن لم يفتقد إلَّا قليلاً من أهميّته وسلطانه، ولكنه كقوَّةٍ مسيطرةٍ على الحياة الاجتماعيَّة قد فقد مكانه».

بل ولا ريب أنَّ من مصلحة الاستعمار بقاء قدرٍ من حركة الإسلام، بحيثُ يثير الصّراع، ولا يقوى على قلب الأحوال!... والاستعمار يعلم أنَّ داء الصّراع والقلق النّفسي هو أشدّ داءٍ يحلّ بجسم العالم الإسلامي، إنَّه ذلك الدّاء الذي ينشأ من ازدواج الشّخصيَّة حيال تلقّي الحضارة أو ما نسمّيه بالسُّلوك الاجتماعي.

أمَّا **الضرر الثاني** النَّاتج عن ارتجاليَّة الحضارة وعدم بنائها على أساسٍ فكريٍّ سابق، فهو (الفقر الأدبي). وهو داءٌ اجتماعيٌّ إذا أُصيبت به أُمَّة ما، ماع سلوكُها وأصبحت عالةً على تلك الأمم الأخرى التي تخطّ سلوك الآخرين ومدنيّتهم.

إذ إنَّ ممّا لا شكَّ فيه أنَّ حضارة الأُمَّة إن لم تتكوَّن من تفكيرها وواقعها الذّاتي تكوَّنت بفعل الاحتكاك والمجاورة مع الآخرين.

ومن المعروف أنَّ الأُمَّة حينما تتلقّى حضارتها بعامل الاحتكاك والمجاورة، إنما تتلقّى منها ما هو أشهى للنّفس، لا ما هو أجدى للمصلحة، لأنَّ الحضارة التي تتمّ بفعل الاحتكاك والمجاورة، حضارة تلقائيَّة، فهي لا ريب تسلك إلى الأُمَّة من أسهل بابٍ وهو باب النّفس وأهوائها، أمَّا حينما تختارُ الأُمَّة من حضارات جاراتها ما هو أجدى لمصلحتها فما هي بحضارةٍ تلقائيَّة، وإنما هي حينئذٍ فلسفة فكريَّة ذاتيَّة قائمةٌ على أساس: (**الحكمة ضالّة المؤمن حيثما وجدها فهو أولى بها**).

وحينما تجتذبُ الأُمَّة من حضارات الآخرين ما هو أشهى للنّفس، فإنها بذلك تقدِم لا محالة على عمليَّة انتحار. إنها تأخذ بذلك من حضارة الآخرين غُرمها وتترك لهم غُنمها، فهي تقع تحت تكاليفها وتبعاتها دون أن تملك المقدرة على القيام بتلك التّبعات، وهذا في الحقيقة أحقر بابٍ يدخل منه الأحرار إلى سجن الاستعمار.

ومن أبسط الأمثلة على ذلك، ما نلاحظه في حال الدّول النَّامية (أي المتخلّفة) ـ ونحن واحدة منها ـ من الوقوف مع الدّول المتقدّمة على قدم المساواة، في الإقبال على الكماليَّات، والتقلّب في مظاهر البذخ والترف، بل ربما أبت علينا (غيرتنا وكرامتنا) إلّا أن نسابقها في هذا المضمار، فنسبقها إلى كثيرٍ من هذه الكماليَّات. . . هذا على حين أنّنا ـ ومعنا الشّعوب المماثلة ـ نقف بالنسبة للعمل الإنتاجي ونشاطاته المختلفة، في مؤخّرة الركب! . .

نسابق الدّول المتقدّمة إلى قطف الثّمار، ونركن إلى الدّعة والخمول،

عندما تنهمك تلك الدّول في فلاحة الأرض وغرس الأشجار، ثمّ نقعد نعدّ ذلك مقياساً للسّعي إلى الرقّي، وبناء صرح الحضارة!..

فمن لك بمرشد يبثّ في وعي هؤلاءِ الحمقى، أنّ مقياس المكانة الرّفيعة لا يتمثّل في المائدة الباذخة التي ينافس بها الفقير المتعاظم روّاد المطعم وجلساءه. وإنما يتمثّل في الجيب الذي يفيض بالمال الوفير، عندما تحين ساعة الحساب والسّداد؟!

وهكذا فإنّنا نحلم دائماً بأن نرقى إلى مستوى التّصنيع في حياتنا والاكتفاء الذاتي في حوائجنا، ولكن أنّى لنا ذلك وإنَّ المال الذي يمكن أن يُرصد لذلك ينصرف جميعه إلّا قليلاً إلى بلاء تناسخ الأزياء، وتناسخ أنواع أثاث البيوت وبقيَّة صنوف البذخ والكماليَّات، بينما يذوب باقيه بين ضرام الأهواءِ والانحرافات الخلقيَّة، وفي الإنفاق على قتل الوقت ودفنه في صنوف الملهيات والمنسيات.

وإنّي لأعجب إذا كان فينا من لا يعلم أنَّ أمريكا وكثيراً من الدوائر الصّهيونيَّة تُنفق مزيداً من الوقت والمال والأشخاص في سبيل ابتكار الأزياء وفرش البيوت وأنواع الملاهي، لتصدير كلّ ذلك إلينا، حتى لا نستطيع إقامة أيّ بناءٍ اقتصاديٍّ مدعوم.

إنَّ مظاهر الحضارة المتكوّنة بفعل مجرّد الاحتكاك والاستهواء تحمل في طيّها مغرماً عظيماً إلينا، وستظلّ الغرامة تكثر وتكثر... حتى نجد سعادة الحضارة قد انقلبتْ إلى شقاءٍ، وحرّيتها مُسخت إلى سجنٍ استعماريٍّ ذليل.

❑ ❑ ❑

مشكلة البحث والنَّقد في مجتمعنا

مشكلة البحث وطرائقه من مظاهر مشكلة الحضارة في مجتمعنا.

فالمفروض أنَّ البحث والنّقد هما المفتاح الوحيد لحلّ مختلف المشكلات الفكريَّة، وللوصول إلى الحقّ فيما يلتبس على النَّاس أمره من مختلف النظريات والمبادىء والآراء.

غير أنَّ الثمرة الحقيقية من وراءِ ذلك هو عكس هذا المفروض تماماً، أي إنَّ الثمرة التي يجنيها مجتمعُنا من وراءِ معظم نقد النَّاقدين وبحوثهم، هي نشوب المزيد من الصّراع الفكري والفرقة في الرّأي، وشيوع روح الكراهية والنّقمة فيما بين جماعات الأُمَّة!.

ولا ريب أنَّ هذه الظّاهرة مشكلةٌ كبرى لا ينبغي تجاهلها، بل لا بدَّ من وضعها في رأس قائمة المشكلات الفكريَّة التي يجب معالجتها بسلاحٍ متينٍ من المنطق الدّقيق والتجرّد الخالص. فما أعظم كارثة الأُمَّة حينما تُبتلى بداءٍ في ميزانها الفكريّ نفسه، وهو السّبيل الأوّل لاكتشاف الحقائق والمبادىء والقيم.

* * *

وفي اعتقادي أنَّ مشكلة البحث والنّقد عندنا تعود إلى ثلاث عقد.. إذا حُلَّت زالت المشكلة كلّها، وعاد أمر النَّاس مع مبدأ (البحث والنّقد) إلى حالةٍ طبيعيّةٍ مُفيدة.

فأمَّا أولاها: فهي أنَّ كثيراً من الباحثين والنَّاقدين لا يهدفون إلى كشف الحقيقة المجرّدة الخالصة، بمقدار ما يسعون إلى جعل البحث والنّقد مجرّد غذاءٍ لإشباع رغبات التّنويه بأشخاصهم، أو عوامل الغيظ أو العصبية في نفوسهم:

فهم ـ من أجل ذلك ـ لا يسعون إلى عرض آرائهم على ميزان المنطق السّليم، وإنما يعملون على استخدام المنطق وإخضاعه لآرائهم على أيّ حالةٍ كانت.

وحينما يصادفهم أنَّ المنطق المجرّد لا يتّسع لبعض تلك الآراء، يضطرهم الحال إلى أن يُضيفوا إلى معايير المنطق المعروفة معايير أُخرى من عند أنفسهم..

فإذا كانت وسائل البحث المنطقي ـ مثلاً ـ محصورةً لدى العلماءِ في القياس الاقتراني والقياس الاستثنائي والاستقراء، فإنَّ هؤلاء يُضيفون إليها من عند أنفسهم: المغالطة في البحث، والإقذاع في الأسلوب، والمهاترة بالقول؟..

وليس المهمّ من وراءِ مثل هذا النّوع من البحث أو النّقد أن يُوَاجَه الخصمُ بالحجّة المنطقيَّة الصّحيحة، وإنما المقصود أن يُحاط بالأسلوب المُسكِت أو تناله سخريَّة النَّاقد، أو تغمره مهاتراته وشتائمه.

وليس من دواءٍ لحلِّ هذه العقدة في نظري سوى أن يتذكّر مثل هؤلاءِ النَّاقدين بأنَّ آراءَهم ليست هي التي تُوجِد الحقيقة وتسبكها، وإنما الحقيقة أمر جوهريّ موجود قبل أن توجد ذواتهم، وقبل أن تنفتح عقولهم وآراؤهم، ومِن هنا كان واجباً علينا أن نتّخذ من عقولِنا سُرُجاً تُضيءُ لنا

الطّريق إلى الحقيقة الجاثمة من حولنا لا سلاحاً لتحطيمِها، أو سبيلاً لمسخِها في سبيل تحقيق رغباتنا.

وعلينا ونحن نحمل هذه السّرُج، أن نتسلّح بروحٍ رياضيَّةٍ عالية علوّ الحقيقة نفسها، فلا أغضب مثلاً إذا عثر أحد الباحثين على الحقيقة في زاويةٍ غير تلك التي أبحث فيها، ولا أتخذ من الوهم المفتعَل ضَرَّةً تناوىء الحقيقة وتصارعُها.

لقد أحرق غاندي في طريقِه إلى البحث عن الحقيقة كلّ مقوّمات سعادته النّفسية، لكي تُضيء له السبيل إليها... ولقد فرش تحت قدميه جميع أهوائه ونوازعه الشهوانيَّة، كي لا يثور ضبابها أمامه، فتحجب الحقيقة عن عينيه[١]!..

ولقد حطَّم الإمام الغزالي من قبلِه كلّ حججه وآرائه، وجميع ما تلّقاه من وحي جماعتِه وبيئته وقومه، ثمَّ سار في طريقِه إلى الحقيقة غير متأثّرٍ بعادةٍ ولا حضارة حتى ولا بعاطفة دين، وإنما راح يحمل سلاحاً واحداً وضعتْه السنّة الإلهيَّة في يده ويد سائر النَّاس لاستخدامه في مثل ذلك الطريق، ألا وهو العقل والمنطق المجرّدان..

هكذا ينبغي أن نقدّس الحقيقة، وفي مثل هذا الطريق ينبغي أن نسير إليها، وإلَّا فما أعظم بليَّة الأُمَّة بالحقيقة التي تتكوّن من لسان العصبيَّة أو السّخريَّة والمهاترة.

(١) فعل هذا غاندي، وقد حصر نفسه ضمن دائرة مجوسيته التي لم يشأ أن يضعها في نفس الميزان، فكانت جميع الحقائق التي عثر عليها، بعيدة عن هذه الدائرة لا سلطان عليها. ولذلك لم يكن لتلك الحقائق التي عثر عليها أي قيمة في حياته.

وأمَّا العقدة الثانية: فهي الخطيئة التي يقع فيها الباحث أو النَّاقد، عندما يناقض ببحثه أو نقده مبدأ من المبادىء المقدّسة لدى الجميع، كالإيمان بالله مثلاً..

إذ لا ريب أنَّ الباحث أو المناقش في أيّ موضوعٍ من الموضوعات يجب ألا ينحو نحواً يصطدم فيه مع حقيقةٍ مسلّم بها من الجميع، اللَّهُمَّ إلَّا أن يكون الباحثُ صريحاً في أنَّه يحارب ما يقدِّسه ويؤمن به الآخرون، فلهذه الحالة حكمٌ آخر يعالجه القانون الذي يتحدَّث عمّا لو تطاول شخصٌ ما في الدّولة على بعض شعاراتها ومُثلِها العُليا كقوميّتها مثلاً[1]...

ولنتصوَّر مثالاً يوضح لنا حقيقة هذه العقدة الثانية:

فمن المقدّسات البدهيَّة في دستورنا: الإسلام. والإسلام يمثّله كتاب الله تعالى. ونحن جميعاً نقدّس هذا الكتاب ونؤمن به حقّ الإيمان. بدليل أنَّ إذاعتنا لا تفتتح برامجها إلَّا بشذراتٍ منه، وحفلاتنا لا تتوّج إلَّا بعشرٍ من آياته.

وهذا الكتاب الذي نؤمن به هذا الإيمان، يقول لنا في بعض سوره: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

وإذاً فمن الواجب علينا إذا بحثنا في موضوعٍ يتّصلُ بحريَّة المرأة ولباسِها أن لا نُناقِضَ هذه الآية التي آمَنّا جميعاً بقدسيّتها. وإذا أبى هذا بعضُ الكاتبين لأنّه لا يريد أن يكون رجعيًّا، فليكن جريئاً وصريحاً في

---

(١) كانت تجربة إحلال القومية آنذاك محل الدِّين، بالغة الذروة، ثم إنها فشلت وغدت أثراً بعد عين.

القول، وليلقّب بالرّجعيَّة كتاب الله تعالى أوّلاً، قبل أن يلقّب بذلك الأُمَّة التي تؤمن به!..

إنها مغالطة ـ وأيّ مغالطة ـ أن يحدّثك أحدُ الكاتبين في بعض المناسبات عن إيمانه العميق بالله وكتابه، ثمَّ تراه، وقد راح يخوضُ غمار بعض البحوث الاجتماعية يركل بقدمه كلّ ما يأمر به كلامُ الله تعالى بصريح القول وواضح التّعبير.

فأنت لا تدري، هل هو كاذب في المرَّة الأولى وصادقٌ في الثانية، أم هو منافق في كلا الحالتين والعياذ بالله.

أيًّا كان الأمر، فإنَّه مظهر من مظاهر الاضطراب الفكري والسُّلوكي في حياة الأُمَّة. ومن ثمَّ فإنَّه يشكّل سبباً من أهمّ أسباب تخلّفها.

والعقدة الثالثة في هذه المشكلة: هي عدم الصّدق في البحث...

وأعني بعدم الصّدق في البحث أن يضنَّ الكاتب أو الباحث بوضع صورةٍ صادقةٍ من إحساسهِ القلبي العميق على الورق أمام القرّاء..

كثير من هؤلاءِ الباحثين يُدافع عن مبدأ من المبادىء، لا لشيءٍ سوى أنَّه يطمع مثلاً بالقرب من شخصيّةٍ كبيرةٍ إن هو فعل ذلك.

وكثير منهم يُروّج لعادةٍ أو خلُقٍ من الأخلاق، لمجرّد أنَّه يشعر بالمتعة حينما يمارس ذلك الخُلق أو تلك العادة، بقطع النّظر عمّا يقرّره عقلُه في ذلك، وغير عابىء بما قد تجرّ تلك العادة على المجتمع من أضرارٍ إن هو اصطبغ بها وغير ملتفتٍ إلى مخالفتها لموازين المنطق والفكر الحرّ.

أعلم أنَّ كاتباً شابًّا يظلّ يدعو في حماسٍ إلى أن تنطلق المرأة في كلّ

حدبٍ وصوب دون أيّ حدّ أو قيد، ولقد قال لي صديقٌ له: إنَّه أراه خبراً في جريدة عن فضيحةٍ خلُقيَّةٍ بين شابٍّ وزميلته في إحدى الجامعات، وقال له: أليس هذا من حصاد هذه الحريَّة المطلقة؟.. فكان جواب الكاتب الشابّ بالنّصَ الحرفيّ: «سيبهم يا شيخ، خلّي النَّاس تنبسط».

تُرى ما هي قيمة البحث عن الحقيقة لدى شابٍّ، إذا تحدَّث على الملأ قال: إنَّ حريَّة المرأة ليست خطراً عليها، وإنَّ خيال السّقوط ملتصق بأذهان الرجعيّين فقط[1]، فإذا اختلى مع أصدقائه حوَّر الأسلوب وقال: دع النساء والرّجال يتعمون باللّذّة المطلقة؟

ترى ما هي قيمة البحث عن الحقيقة لدى شابٍّ أسكرته الأهواء والرّعونات النّفسيَّة، فراح يتّخذ من عقله محامياً عنها، وأخذ يُكذب منطق الفطرة والطّبيعة، ليصدق لغو الشهوة الرّعناء، وهو يعلم هذا ويسرّه في أعماق نفسه؟.

هذه أسئلة، أتمنّى لو أنّ كاتباً من هؤلاءِ المرتزقة الذين يمتهنون الكتابة الصّحفيَّة يجيب عنها..

.. ولكن بأسلوبٍ موضوعيّ متجرّد!..



(١) يلاحظ أن ألفاظ الرجعية ونحوها، اختفت في السنوات الأخيرة من قاموس الألفاظ المستعملة في الكيد للإسلام والانتقاص منه، وحلّ محلّ ذلك أسلوب الكيد للإسلام من داخله.

مشكلة عَمل المَرأة في مجتمعنا[1]

يتحدَّث بعضُ الكاتبين اليوم عمّا يسمّونه حقوق المرأة، ذاهبين في إلقاءِ حبلها على غاربها مذهباً لا يقف عند أيّ حدّ، فتُطلق العامَّة عليهم لقب: نصير المرأة.

ويتحدَّث آخرون، فيفصّلون في الأمر، لا يبيحون لها كلّ شيء، ولا يمنعونها من كلّ شيء، سائرين في بحثهم على هدي الدِّين والعقل والفضيلة، فتطلق العامَّة على هؤلاءِ لقب: عدوّ المرأة!..

والحقيقة: إنَّ كلا اللَّقبين غير صحيح، فلا الباحث الأوَّل صديق مخلص للمرأة كما قد يدّعي هو، أو كما قد تتوهّم هي، ولا الثاني عدوّ لها كما قد تحسب وتظنّ.

وإنما الذي يملك أن يعرّفنا بكلٍّ من نصير المرأة وعدوّها عن صدق، هو المجتمع وحده، المجتمع بدلائله التاريخيَّة وبكلّ ما يتجلّى فيه من تجارب ونتائج.

وسأتحدَّث الآن في أهمّ جانبٍ من جوانب (حقوق المرأة) وهو: عملها العامّ في المجتمع، سائراً في ذلك وراء ما خلّفه المجتمع من نتائج وتجارب، جامعاً من مجموع تلك النتائج سطوراً تعبّر عن قرار المجتمع

(١) يجب أن ألفت النظر إلى أن هذا المقال كُتب ونشر في جريدة الأيام الدمشقية عام ١٩٦٠.

على هذا الأمر، تاركاً للقرّاءِ قراءة تلك السّطور وسماع صوت المجتمع من خلالها.

وللمرأة حينما تندفع إلى العمل خارج بيتها ثلاثة ظروفٍ.

١ ـ أن يقودها إلى ذلك وضعها السيِّىء، كأن لا تجد من حولها المسؤول الذي يتولّى الإنفاق عليها، أو تجده ولكنَّه يحتاج هو الآخر إلى مَن يُنفق عليه.
فما من ريبٍ أنَّ المرأة لها في هذه الحال أن تبحث عن العمل الشَّريف أيًّا كان، ما دامت تتقنه وتقدر على القيام به دون ارتكابٍ لمحرّم، وما من ريبٍ أنَّ مثل هذا الظّرف ليس مجال بحثٍ أو خلاف.

٢ ـ أن يضطّر المجتمع نفسه لعمل المرأة، بسبب أنَّ هنالك مرافق لا تشغلها إلَّا المرأة ولا يصلح لها إلَّا هي، كمهمَّة التمريض في المشافي، ووظيفة التعليم للفتيات ومهنة الخياطة، وبعض الأعمال اليدويَّة التي قلّما يُتقنها إلَّا النساء.
فما من ريبٍ أنَّ مثل هذا أيضاً ليس مجال بحثٍ أو خلاف، وما من شكٍّ في أنَّ المرأة إذ تملأ فراغ هذه المرافق تقوم مشكورةً بوظيفةٍ اجتماعيةٍ ذات أهميّةٍ لا تُنكَر.

٣ ـ أن يشعر البعض ـ أو الكلّ ـ بالرّغبة في توظيف المرأة في دوائر الموظّفين، وأبهاءِ البنوك والشركات والوزارات.. أو أن تشتهي المرأة نفسها جمع قدرٍ من المال أكثر، وإن كان لها الزّوج الغنيّ، أو الولي الثريّ، أو المال الكثير.
فهذا ما يدور حوله بحث الباحثين، وهو البحث الذي خيّل للمرأة أنَّ بعض الرّجال أعداءٌ لها، على حين أنَّ بعضهم الآخر نصراء وأصدقاء.

ولا ريب أنّه خيال غريب لا يوجد ما يسوّغه ما دام أنَّ نظام مجتمعنا وانسجامه هو الصَّديق الأوّل للجميع، وما دام من المفروض أن يكون الرّجال منّا والنّساء في خدمة ذلك النّظام وانسجامه.

إنَّ حكاية عمل المرأة خارج بيتها ـ في الصّورة الثالثة التي هي وحدها مجال البحث ـ تشكل جزءاً كبيراً من مشكلاتنا الاجتماعيَّة والحضاريَّة، سواءٌ أحكمنا عليها بالإيجاب أو السّلب، ولا ريب أنّ أوّل شرطٍ بدهيّ لصلاح الحضارة هو توفّر عنصر الانسجام بين أجزائها ونظمها. فتعالوا نبحث: هل يوجد انسجامٌ بين عمل المرأة في المجتمع ـ على هذه الصّورة ـ وبين بقيَّة أجزاء حضارتنا ونظام مجتمعنا؟

إنَّ من نظم مجتمعنا التي لا خلاف فيها، القواعد التالية:

١ ـ الرّجل هو الذي يُنفق على زوجته وبيته وأولاده.

٢ ـ الرّجل هو المكلّف بدفع المهر لزوجته.

٣ ـ الأمّ هي المسؤولة الأولى عن تربية أولادها ورعايتهم.

وإنَّ من نتائج توظيف المرأة في الوضع الثالث الذي ذكرناه ظهور الحالات التالية:

١ ـ أن تضيق سبُل العمل والوظائف أمام الرّجال.

٢ ـ أن يستوي كلٌّ من الرّجل والمرأة في نتيجة الاكتساب.

٣ ـ أن لا يبقى أيّ مسوّغٍ لتكليف الرّجل بالنّفقة على أُسرته، ولا لتقديم المهر إلى زوجته.

٤ ـ أن تصبح المسؤولة الأولى عن تربية الأطفال، الصّانعات والخادمات.

وأنا لا أستخرج هذه النتائج من مجرَّد الفكر، ولا أستثمرها من الوهم والخيال. ولكني أراها ماثلةً أمامي في كثيرٍ من المجتمعات المحيطة بنا، والتي سلكتْ هذا المسلك من قبلنا، بل أراها في النتائج التي ظهرت في مجتمعنا ذاته.

ولعلّ في مذكّرات عشرات الشّبّان الباحثين عن الأعمال، عشرات الوقائع التي يقذف بها المجتمع.

ولعلَّ قرّاء (الأيّام) يذكرون يوم أن كتب شابٌّ جامعيّ كلمةً فيها يشكو إلى سمع النَّاس وأبصارهم هذا الأمر، ويقول بأنّه تقدّم إلى شركات وبنوكٍ كثيرةٍ ووظائف مختلفة، يعرض خبرته الجيّدة باللّغات والضّرب على الآلات الكاتبة والحاسبة، ثمَّ يطلب عملاً يقوم به، وإذا الجميع يصدّون ويعتذرون.. إمَّا لأنَّ آنسةً قد سبقتْه، أو لأنهم يفضّلون أن يوظّفوا آنسة!..

ثمَّ يتساءل في مرارةٍ: لماذا يُلاحقه المجتمع إذاً بالنّفقة والمهر، ما دام أنَّه يشقى في سبيل أن يقدّم للمرأة المهر والمال، ثمَّ تأتي المرأة نفسها لتُغلق عليه السبيل، ولتستقلَّ هي بالعمل والمال؟!.

والكاتب لم يكن شيخاً جاء من المسجد، ولا رجعيًّا يحاربُ (التقدُّميّين)، ولكنَّه مجرّد عضوٍ في هذا المجتمع، ذاق مرارة الاضطراب وعدم الانسجام، ونتائج هذا الخلط العفوي الأرعن في قضايا السُّلوك الاجتماعي.

وإنَّ العاقل ليتساءل حقًّا: ما المسوّغ إذاً والحالة هذه لملاحقة المجتمع لمثل هذا الشاب مُطالباً إيَّاه وحده بنفقات تأسيس الأسرة والبيت وما إلى ذلك؟ ولماذا لا تكون المرأة هي المسؤولة عن الإنفاق على نفسِها وشؤونها في مثل هذه الحال؟.

ولا ريب أنَّ الجواب عن هذا التساؤل أحد شيئين:

إمَّا السّكوت والتّجاهل، كما هو الحال الآن، وتلك أعظم مشكلةٍ اجتماعيّةٍ في الدّنيا، إذ هي أهمّ عاملٍ لإثارة الصراع النّفسي والقلق الفكري لدى الفرد والمجتمع، وهو ما يُثيره بيننا الاستعمار عن طريق رسُله الفكريين بدون أن نشعر.

وإمَّا أن نترك للنّساءِ وظائفهنَّ كما هي، ونلتفتُ إلى بقيَّة نُظم مجتمعنا التي استقينا معظمها من تشريع الله وأحكامه، فنقلبها ظهراً على عقِب، لمجرّد شيءٍ واحد، ألا وهو أن تبقى الأبهاء والدّواوين منقوشةً بمنظر الجنس اللّطيف!..

ومعنى ذلك أن تُلغى مسؤوليَّة المهر والإنفاق على الرّجل، وتصبح المرأة بالتدرّج الطّبيعي هي التي تحمل المهر إلى خطيبها، كما هو الحال في وجهات كثيرةٍ من أوربا. وحينئذٍ أيضاً تنقلبُ المرأة شيئاً فشيئاً فتصبح هي الرّاغبة والطّالبة.. بعد أن سمَتْ بها شريعةُ الله ففرضت أن تكون هي المطلوبة والمرغوب فيها.

وانظر أنت إلى الفرق بين الشريعتين لتفهم مدى إعزاز الله للمرأة. انظر إلى المرأة في فرنسا كم تسقط من سقطة، وكم يلهو بها من رجلٍ إلى أن تصل إلى الزّوج الذي تبحث عنه!...

ومعنى ذلك أيضاً أن نجعل المسؤول الأوّل عن رعاية الأطفال الخادمات والصّانعات.

وانظر أنت كم في هذا النّظام المعاكس للفطرة من خطورة مهدّدةٍ للأطفال، وانظر إلى المربّي الفرنسي المعروف ـ جان جاك روسّو ـ كم حذّر المرأة الفرنسية التي نسيت أبسط قاعدةٍ من قواعد الفطرة في سبيل أن

تنغمس في شهواتها وأنانيّتها، وكم أهاب بها أن تعود إلى بيتها فتتولّى هي أمر أطفالها.

ولكنَّ المرأة الفرنسيَّة استعاضت عن نصيحة «روسُّو» بأن راحت تحتقر الخادمات وتضربهنَّ أمام أولادها، كي لا تتعلّق عواطفهم بهنَّ من دونها على ما تزعم، ولكنَّها لم تعلم أنها أضافتْ بفعلِها هذا بلاءً ثانياً فغرست بذلك أرذل طباع الحقد والاحتقار وإنكار المعروف في نفوس أطفالها.

أجل، هكذا سنضطرّ أن نعمل في سبيل أن تنعم الفتاة بالاً وهي تجلس على كرسيّ وظيفتها، كما اضطرت المجتمعات الأخرى إلى ذلك من أجل هذه الشهوة نفسها.

فهل توافق المرأة العربيَّة المسلمة الشريفة على هذا التبديل والتّغيير؟ وهل يرضى مَن يُسمّون أنفسهم أنصاراً للمرأة أن نقوّض دعائم مجتمعنا التي ورثناها من وحي التعقّل، والمصالح الإنسانيَّة، ويقين الحكمة الربانيَّة فيما قد شرعه الله لنا وألزمنا به؟

إذا كان كذلك، فإنَّ المشكلة إذاً ليست في أن تعمل المرأة في المجتمع أو لا تعمل، ولكنَّ المشكلة هي: هل نحن راضون بفطرة الإسلام، ووحي المنطق، وتماسك الأسرة.

لا ريب أنَّ كلّ عضوٍ صادقٍ غير دخيلٍ في مجتمعنا، يفتدي مقوّمات هذا المجتمع ومبادئه بكلّ ما يملك. أمَّا الذي لا يهمّه أن يضحّي بكل تلك المبادىء والمقوّمات في سبيل هوى من الأهواءِ التي ساقتْها إليه رياح الغرب، فما هو عضواً في مجتمعنا الإسلامي الذي يعتزّ بتراثه ومثله العليا، حتى يملك أن يرتئي له فضلاً عن أن يحكم عليه.

❑ ❑ ❑

سر أزمة الزَّواج في بلادنا[1]

الزّواج مسؤوليَّة وليس بمتعة، بل هو أَشقّ مسؤوليَّةٍ اجتماعيَّة على الإطلاق. لهذا كان من جليل حكمة الله أن قرن هذه المسؤوليَّة بما يُغري النَّاس بها، فربطها بأعظم متعةٍ نفسيّةٍ على الإطلاق.

ثمَّ كان من باهر حكمتِهِ جلّ جلاله أن أحكم التلازم التّام بين كلّ من هذه المتعة والمسؤوليَّة، ففرض على الطّبيعة أن لا تحمّل الإنسان شيئاً من عناءِ هذه المسؤوليَّة إلَّا مقرونةً باللذّة التي تخفّف من قسوتها. وفرض على الإنسان أن لا يجني شيئاً من تلك المتعة واللّذّة إلَّا مقروناً بالثّمن المفروض لها.

وكان السّبيل إلى هذا الفرض، هو سنّ قوانين الحشمة ووضع حدود الاختلاط ما بين الرّجل والمرأة:

فحرَّم على المرأة أن تكشف للرَّجل شيئاً من مفاتنها، وحظّر على الرّجل أن يمتّع نفسه برؤية تلك المفاتن، إلَّا بعد أن يخضع كلّ منهما لعقدة الزّواج. وحرَّم أن يشيع بينهما الحبّ وأن يجمعا رأسيهما على ارتشاف شهده إلَّا بعد أن يبذل كلٌّ منهما الثّمن كاملاً غير منقوص.

---

(١) وهذا المقال أيضاً نشر في جريدة الأيام عام ١٩٦٠، جواباً عن سؤال طرحه بعض الصحفيين على ثلة من الكاتبين آنذاك.

وما دامت الأُمَّة خاضعةً لقانون هذا التلازم الذي شرعه الفاطر الحكيم لعباده، فإنَّ الرّجال سيظلّون يُقبلون على تحمّل مسؤوليَّة الزّواج ما داموا رجالاً فيهم معاني الرّجولة وأهواؤها.

أمَّا إذا أخذت الأُمَّة تتحلّل من قيود هذا النّظام، ولم تُبال أن تفتح أمام شبانها أبواباً خلفيّةً للمتعة، يدخلون منها دون أن يدفعوا أيّ ضريبةٍ أو يتحمَّلوا أيَّ مسؤوليَّة ـ فإنَّ هؤلاءِ الشبّان سيستدبرون مسؤوليَّة الزواج، وستخلو الأبواب الشرعيَّة للمتعة ـ بالتدريج ـ من أيِّ قادمٍ إليها أو عابرٍ منها، اللَّهُمَّ إلَّا أفراداً قلةً بقيت في قلوبهم بقيَّة احترامٍ لنظام الله وتشريعه.

وهنا يبدو واضحاً للعيان سبب أزمة الزّواج في البلاد التي تعاني هذه الأزمة، ونحن ـ بحمد الله ـ أقلها تأثّراً بهذه الأزمة وانجراراً إليها[1].

ليس السبب اقتصاديًا كما يتخيّل بعض الواهمين، فلقد كانت هناك مهورٌ غالية في عصر آبائنا وأجدادنا أيضاً. وكانت المباهاة بأرقام الليرات

---

(١) كان ذلك، كما قلت لك، عام ١٩٦٠، أمَّا الآن، وقد اختلقت أسباب خبيثة وخطيرة لها، كافتعال أزمة السكن، وكترويج أسباب الإباحية التي يحاول أن يفرضها بشكل هستيري المختبئون وراء وثيقة مؤتمر صندوق السكان، فقد تجلت أزمة الزواج عندنا بشكل لم نكن نتوقعه.
ولست أدري هل سيتغلب وعي هذه الأُمَّة عليه فتتحطّم أسبابه، وتُسحق مسبباته، وتظل مكلوءة في حصن شرفها وكرامتها، أم إن وعي هذه الأُمَّة أصبح اليوم تاريخاً يذكر، وأن هذه الأسباب ستزداد ضراوة في حياتنا، وأننا سنزداد ركوناً إلى المخططات التي تكيد لنا من ورائها؟.. لعل الزمن وحده هو الذي يملك الإجابة الصحيحة.

الذهبيَّة التي تُدفع عدّاً ونقداً على المهور أشدّ منها اليوم، ومع ذلك فلم تكن في ذلك الحين أزمة زواج.

وليس السّبب أيضاً تراكم أعباء الدّراسة وطول ميقاتها كما يقول بعضُ الباحثين، فما كانت حياة الدّراسة والعلم لتمنع صاحبها يوماً ما من الزّواج. وأنا أعلم عدداً غير يسيرٍ من طلَّاب المعاهد الثانويَّة ذوي أُسر وأولاد. وأعلم عدداً أكثر من هؤلاءِ أيضاً ـ في الجامعة ـ ينفقون شبابهم بين مسؤوليَّة العلم والأسرة بآنٍ واحد. وأنا بنفسي واحد من الذين تزوَّجوا قبل أن يستكملوا حتى المرحلة الثانويَّة من دراستهم.

ولو أَمْعَنْتَ النّظر، لوجدتَ معظم هؤلاءِ المتزوّجين ينتمون إلى أُسرٍ من ذوي الدّخل المحدود، وهذا يعني أنَّ زملاءهم الميسورين أجدر أن يستطيعوا الجمع بين الدّراسة والزواج.

أجل، ليس السبب هذا ولا ذاك، ولكنَّ السبب هو أنَّ أبواباً خلفيّةً أُخرى ـ غير الباب الشّرعي ـ قد فُتحت إلى المتعة واللّذّة، فمعظم الشبّان الذين لا يريدون من ذوات أنفسهم أن يتقيَّدوا بخُلُق الإسلام وأحكامه، يستطيعون أن يمتّعوا أنفسهم ـ ولو إلى حدٍّ ما ـ دون أن تكلّفهم تلك المتعة أيَّة مسؤوليّةٍ أو ثمن. وأيّ عاقلٍ يستبدل بالمتعة المجانيَّة متعةً محفوفةً بالمسؤوليات والمنغّصات!..

وانظر.. فإنّك ستجد المشكلة تتّسع وتضيق حسب اتّساع وضيق الأبواب الخلفيَّة للمتعة واللَّذة.

إنَّ أزمة الزواج عندنا ليست بشيءٍ أمام الأزمة في مصر مثلاً. فالسّبل الخلفيَّة هناك أوسع بكثيرٍ منها هنا.. لقد سمعتُ ورأيتُ الشبّان هناك.. في مصر، كيف يُطلقون على حياة العزوبة اسم ـ عهد الاستقرار ـ وعلى

حياة الزّواج عهد الاضطراب. ولقد سألتُ ذات يومٍ مراهقاً يبلغ عمره ٣٥ عاماً لماذا لا يتزوَّج؟ فأجابني بكلّ صراحةٍ وجرأة:

ولماذا أحبس نفسي في قفص المسؤوليَّة و(العيال) وأنا أمارس متعتي طليقاً غير مقيّد؟!.

ولا يستطيع أيّ عاقلٍ أن يقول مثلاً: إنَّ سرّ استفحال الأزمة هناك، ارتفاع تكاليف المهور، فهذه المشكلة تكاد تكون مفقودة.

على أننا لا ننكر أنَّ ثمة تقاليد وعادات والتزامات تزيد من بلاءِ هذه الأزمة وتضاعف من شدّتها، ولكنَّها لا تشكّل شيئاً من جوهر الأزمة وحقيقتها.

ومع ذلك فأزمة الزواج في بلادنا لم تصل بل ولم تقارب ما هي عليه في بعض البلاد العربيَّة الأخرى إلى هذا اليوم. ولكن يجب علينا أن نعتبر، فالوضع الطّبيعي للنتائج والمقدّمات يقتضي أن يصبح حالنا مثل حال غيرنا إن ظلّت ـ الأبواب الخلفيَّة ـ مفتّحةً هكذا.

إنَّ معالجة هذه المشكلة تنحصر في تحديد حياة الاختلاط، وإجبار المرأة المسلمة على الاحتشام الكامل في لباسها ومظهرها.. وفي محاربة كلّ مظهرٍ من مظاهر التحلّل والميوعة وجميع أسبابها وعواملها.

وأنا أعلم أنَّ بعضاً من النساءِ فقط لا يُعجبهنَّ كلامي.. ولو عقلن لعلمن أنَّ ما أذكره إنما هو في سبيل شيء واحد، هو حفظ حرمة المرأة وكرامتها، وبتر اليد التي تريد أن تلهو بها خليلةً، ثمَّ تقذف بها إلى العراء زوجةً مصونةً شريفة.

هذا هو سرّ أزمة الزّواج يا أيها النَّاس، فلا تُغالطوا أنفسكم، وجابهوا المشكلة بجرأةٍ وصراحة، ولا تكونوا مثل ذلك الأعرابيّ الجبان الذي ارتعب من ثعلبٍ عضَّه، فهرع إلى الرّاقي يقول له:

ارْقِني من حيّةٍ لدغتني..

فلّما باشر الرّاقي بعمله، ولم يجد الأعرابيّ الجرأة على الاعتراف، همس في أُذنه قائلاً: واخلط بها أيضاً شيئاً من رقية الثعالب..



محاكمة لم تتم!..

أطلعني صديقٌ لي، على كلامٍ كتبته سيدةٌ تعلّق فيه على ما أسمتْه بمشكلة الطّلاق.

ومشكلة الطّلاق هذه، قد أصبحت حديثاً تقليديًّا يصطنع بواسطته بعضُ الفئات من النَّاس الوعي الاجتماعي السّليم.

والدّليل على ذلك أنَّ هذه الفئات تظلّ تتحمّس وتشتدّ في غمار البيان والبحث، حتى إذا وُوجهتْ بالحلّ المنطقيّ للمشكلة نكصتْ على عقبها، وارتدَّتْ عن غيرتها وإخلاصِها، وتجافتْ عن السّبيل الواضح المكشوف إلى حلّ المشكلة.. المشكلة التي كانتْ تتحمّس في الفلسفة عنها!.. تماماً كمشكلة أزمة الزّواج التي تحدّثتُ عن حلّها في الفصل السَّابق، فلقد اعترف بعضُ الشّباب التّقدميّين جدّاً ـ بأنَّ ما كتبتُه هو الحلّ فعلاً.

ولمَّا سألتُه قائلاً:

ـ فلماذا لا تدعو إلى هذا الحلّ بالصّراحة والحماسة اللذين تتحدَّث بهما عن المشكلة؟

تمتم وغمغم، وضاع القصد من جوابه وسط موجةٍ من البرود والارتخاء في حديثه وأعصابه.

من أجل هذا شُغل بالي بمشكلة هذا ـ التصنّع التّقليدي ـ أكثر من

أن يُشغل بمشكلة الطّلاق نفسها، وكددتُ ذهني في السّبيل إلى معالجة هاتين المشكلتين معاً.

وجاء المساءُ وقد تثاقل على مشاعري خيال هذا الأمر، حتى رأيتُ الصّورة تسيطر على إحساسي، ورأيتني أعيش وسط جوّ هذه المشكلة بأحداثها.

رأيتني وسط قاعةٍ لمحكمةٍ ضخمة، ورأيتُ في صدرها هيئة المحكمة برئيسها وعضويها؛ ونظرت، فإذا أبصارُ النظّار قد علقت بمظهر امرأةٍ قامت في حماسٍ ووقفتْ في جسارةٍ أمام هيئة المحكمة وراحتْ تقول:

ـ حضرات القضاة: سلوا هذا الرّجل الذي كان إلى الأمس زوجي وسندي ثمَّ انقلب فجأةً فأصبح اليوم خصمي وظالمي، سلوه بأيّ ذنبٍ اقترفتُه عمد إلى الحبل الذي كان يصل قلبي بقلبه فقطعه مرّةً واحدة؟!.. وبأيِّ جريمةٍ ارتكبتها سوَّغ لنفسه استعمال حقٍّ أعطتْه الشريعة إيّاه لاستعماله في مكانه وعند الحاجة إليه، حتى أقفر بيت كان مُؤنساً، وتهدَّمتْ أسرةٌ كانت عامرة؟!..

ثمَّ عادت المرأةُ فجلستْ في مكانها، والتفتتْ أبصارُ الجالسين جميعهم إلى الرّجل. ونظر إليه القاضي يسأله شرح ما عنده.

وعندئذٍ نهض الرّجل متثاقلاً كأنما يترنّح، وبعد أن دنى إلى منصّة القضاء اندفع قائلاً:

ـ حضرات القضاة: لستُ أدري أيّنا أليق في هذه المشكلة أن يكون مدّعياً، وأيُّنا الأليق أن يكون خصماً ومتّهماً. غير أني أتساءل: ترى أيّ رعونةٍ إجراميةٍ هذه التي تغريني بجريمةٍ يقع أوّل غرمها على كاهلي، ومَن مِن النَّاس يصدّق أنَّ عاقلاً يفضّل أن يخسر في مالِه الذي قد لا يستطيعُ التّعويض عنه، وفي أُسرته التي لا جرمَ يعزّ عليه أن يراها تتهدَّم من أجل

نزوةٍ عابرة، أو شهوةٍ في السّيطرة والظّلم. لا ريب أنَّ الزوج الذي يُغمض عينيه عمّا سيصيبه ثمَّ يطلّق زوجته، مصابٌ ببلاءٍ أشدّ عليه من بلاءِ بيته الذي تهدَّم، وماله الذي خسر. فهل تعلمون ما هو بلائي في زوجتي التي أغمضتُ عيني في سبيل تطليقِها عن كلّ ما سينزلُ بسعادتي وقلبي؟!.

إنَّ بلائي بها يا حضرات القضاة أنها لم تصلح أن تكون لي زوجاً.. وأنتم تعلمون كيف تستطيع المرأة أن تكون زوجةً لزوجها، وأنتم تعلمون أنَّ الرّجل لا يندفع إلى الزّواج إلَّا لذلك.

لقد كانت أيَّامُنا ـ الزّوجيَّة ـ أيَّاماً قصيرة معدودة، ثُمَّ ما لبثت الزَّوجةُ أن اختفت.. وظهرت في مكانها امرأةٌ تظلّ تتثاءب في كسل، زينتها دائماً سحاقة المطبخ، وعطرها دائماً من أريج الطّعام، وأقول ـ دائماً ـ لكي تعلموا أنني لم أكن ألومها لو كان ذلك في ساعات معدودةٍ من النهار.. لكنَّ ذلك كان ـ دائماً ـ بكلّ معنى هذه الكلمة.

ولو أني استطعتُ أن أحبس نفسي في البيت معها، وأقصر بصري على النّظر إليها، لاستطاعت أن تعوّدني بذلك على صورةٍ أُخرى للجمال، وأن تدرّبني على تذوّق المعنى الفني في زينتها المبتدعة الجديدة، ولكني لم أستطع أن أحبس نفسي وبصري عليها.

إنني في كلّ دقيقةٍ من كلّ نهارٍ أُشاهد أمامي وعن يميني وشمالي عشرات النماذج للجمال الرّائع الأخّاذ، وقد اجتمعت كلّها على تزييف وتشويه الصّورة المطبخيَّة الجامدة التي تستقبلني كلّ يومٍ في بيتي!.

عشرات الأشكال المغرية من الزّينة والجمال تحتوشني من حولي كلّ ساعةٍ في كلّ شارع، لتهمس في أعماق نفسي المشبوبة: هكذا ينبغي أن تكون الزّوجة أمام زوجِها.. حتى إذا انفصل عني همس الشارع المحموم،

ودخلتُ بيتي لأرى صور هذا الجمال في وجه زوجتي ـ اقشعرَّ بدني وثارت أعصابي من وقع التناقض الجسيم بين همس الشارع وواقع المنزل. .

تُرى أيّ جريمةٍ يا حضرات القضاة ارتكبتها أعصابي حتى أُعاقَب فيها هذه العقوبة النّكراء، وأيّ حقدٍ هذا الذي يُلاحقني المجتمع به حتى يملأ إحساسي بصور الجمال البارع الذي لا أملك منه شيئاً، لكي يملأ إحساسي كلّه بعد ذلك بخيالٍ مجسّمٍ للقبح الذي لا أملك غيره. . ثمَّ يتوثّب بعد هذا كلّه لينقضّ عليَّ باللوم إذاً فقدت أعصابي في دوّامة هذا التناقض الأليم. . ؟

لقد طَلَّقْتُ زوجتي يا حضرات القضاة لأنها لم تستطع أن تكون زوجةً لابن الشارع الذي يغصّ بفتيات القرن العشرين. . ولا بدَّ للمرأة التي تريد أن تكون زوجةً لابن هذا الشّارع أن تكون في زينة وجمال جميع فتياته.

ثمَّ جلس الرّجل في عصبيّةٍ ظاهرة، وساد صمتٌ عميقٌ في القاعة، بينما راحت بعضُ فتيات القرن العشرين الجالسات في القاعة يتحسّسن زينتهُنَّ وأصباغهن، للاطمئنان على أنهنَّ فعلاً ممّن تغصّ بهنَّ شوارع القرن العشرين! . . .

واستأذنت المرأة في الكلام. فكان تعليقُها على كلام الزّوج ما يلي:

حضرات القضاة: لقد سمعتم اعترافَ الظّلم بآذانِكم. لقد رأيتم كيف اعترف هذا الرّجل الذي كان زوجي بأنّه اتخذني مجرَّد ضحيّةٍ لأعصابه المحمومة. . وإذا كان المجتمع الذي تحدَّث عنه قد فعل كلّ هذا بأعصابه، فما هو ذنبي أنا حتى ينتقم لعدّوه مني. . وهل بإمكاني يا حضرات القضاة أن أعيش بياض أيّامي كلّها وسواد لياليّ جميعها في بيتي مع عملي وأولادي، دميةً رائقةً للعرض والنّظر والمتعة. .

وهب أنَّ بالإمكان ذلك، فهل بإمكاني أن أتقمَّص مظهر جميع الفتيات اللّواتي يتحدَّث عنهنَّ، وأن يرى صورهنَّ جميعاً قد ازدحمت في صورتي وشكلي؟.. لقد كان كلّ ما اقترفه في حقّي إلى ما قبل هذه السَّاعة مجرّد جريمةٍ أُحاسبه عليها، ولكن ها هو ذا قد أضاف إليها الآن الجنون أيضاً، فها أنتم ترون كيف يهذي بما لا يفهم.

ثمَّ سكتت المرأة.. وسكت الرّجل.. وصمتت القاعة بمن فيها! وكأنما انصرفتْ أذهانُ الجميع إلى الحيرة والتّساؤل عمّن يكون صاحب الحقّ وصاحب الجرم منهما.

وجاء دورُ الدّفاع فقام يتكلّم.. قال:

حضرات القضاة: اسمحوا لي أن أتولّى ـ لأوّل مرَّةٍ في حياتي ـ الدّفاع عن كلا هذين الخصمين معاً، فكلاهما مُحقٌّ فيما تكلّم، وكلاهما قد ذهب ضحيّةً لمجرمٍ ثالث..

إنَّ الحقَّ أيها السَّادة مع الزوجة في أنها لا تستطيع فعلاً أن تظلَّ كالدّمية التي لا تعرف إلَّا معنى الزينة والتجمّل والعرض، فوظائف الأسرة ومهام تربية الأولاد من شأنها أن تجعل الزّوجة نصف حياتها ـ على أقلّ تقدير ـ في شغلٍ شاغلٍ عن القيام بأعمال الدّمى.

وأُزيد على ذلك أيضاً أنَّ شأن البيت الزّوجي دائماً أنَّه يؤسَّس على الحبّ ولكنَّه لا يدوم بعد ذلك إلَّا على الودّ والتّقدير. وإنما مناط الودّ والتّقدير أن تكون الزّوجة قائمةً بواجباتها، أمينةً على زوجها، حافظةً لعهده وذمامه.

ولكنَّ الحقَّ أيها السَّادة مع الزّوج أيضاً في الوقت نفسه.. ذلك أنَّ المجتمع الذي يعيش فيه، لم يعلّمه قيمة الودّ والتّقدير. وإنما علَّمه قيمة

الحبّ، والزّينة والأصباغ، فقط. ولستُ أدري كيف لا تتبخّر جميع معاني الفضيلة من وفاءٍ وودٍّ وتقديرٍ، بعد أن يسلّط عليها حمّى الشهوات الطَّاغية التي تنبع من جميع هذه الصّور المتناثرة في كلّ شارع. كما تنبع ـ مياه الشّوارع ـ من مجاريها المهترئة المتفجّرة هنا.. وهناك.

ومهما تكن زوجة البيت بالغة الفضائل في ودّها ووفائها للزّوج، فإنَّ امرأة الشارع اليوم قادرةٌ على أن تطيِّر قيمة جميع فضائلها بجلسةٍ واحدةٍ من مجالسها عند الحلَّاق!.. ومهما يكن الزّوج مغرماً بتعقّل الزّوجة وإخلاصها، فإنّ جميع غرامه يتحوّل ـ ما دام رجلاً ـ إلى حاجات رجولته، ما استمرَّ الشارعُ يقول له كلّ يومٍ: أمَّا أنا فهذه هي زوجتي!..

ومن هي زوجة الشّارع؟

هي امرأة كفرتْ بالأسرة وآمنتْ بالطّريق.. هي امرأةٌ حاقدة تسعى لتهديم جميع البيوت أمامها حتى يغدو شارعُها الذي تتمايل فيه أرحب وأوسع.. هي امرأة تقف السَّاعة والسَّاعتين أمام مرآتها، وتجلس مثل ذلك أو أكثر عند حلَّاقِها، لا لكي تُعفّ بذلك رجلها الواحد، بل لتحارب بذلك عفّةَ جميع الرّجال.

وزوجةُ الشّارع، هي التي تعمد بعد هذا كلّه ـ أيها السَّادة ـ إلى منديلها المعطّر، لتتباكى من ورائه على نتيجة سعيها وجريمة يدها. ولتقول لضحاياها من مثل هذه المرأة وهذا الرّجل الماثلين أمامكم: إنها قسوة الشّريعة وبلاء الطّلاق!..

ولا ريب أيها السَّادة أنَّ نتيجة هذا الأمر هي عجز الزّوجة المسكينة عن تحقيق المعجزة. فلا تستطيع الجمع بين مسؤوليَّات الأسرة وتقليد زوجة الشّارع فيما فرَّغت نفسها من أجلِه، وهي أيضاً ثورة جامحة في

أعصاب الزّوج، ولا بدَّ أن تنتهي هذه الثورة على الغالب إمَّا بالخيانة أو الطّلاق.

وسواءٌ أقذفها بالطّلاق في وجهها، أم مارس الخيانة من ورائها، فهي على الحالتين تقويضٌ لكيان الأسرة، وقطعٌ لصلة القُربى.

إذاً فقد علمتم يا حضرات القضاة مَن هُو الشّبح المسؤول عن هاتين الضَّحيَّتين وكثيرين أمثالهما..

إنّها زوجة الشارع!!.. فاحكموا عليها بحكم الله وطبِّقوا عليها شريعتَه. فلن يتهدَّم بيت، ولن تتمزَّق أُسرة في مجتمعٍ تشيع فيه شريعة الصّيانة والحجاب والسِّتر.

وإلَّا... فلن تجدوا لسنّة الكون وفطرة الله من تبديل.

* * *

وانتهى الدّفاع.. وانصرف القضاةُ للمداولة في الحكم.. ولا يزالون إلى اليوم يتداولون، ولا تزال النظّارة تنتظر الحكم.

تُرى ماذا سيكون الحكم في هذه المحاكمة التي لم تتم؟!...



حَقّ المرأة رهن بأَداء واجبها

تلقَّيتُ منذ يومين السُّؤال التالي[١]:

هل هناك أيّ مانعٍ شرعيٍّ من أن تُرشِّح المرأة نفسها للنيابة، أو أن تُدلي بصوتها في الانتخابات؟.. وما المانع من ذلك إن كان ثمَّة مانع..

* * *

وأقول: من الواجب علينا قبل كلّ شيءٍ، أن نستشعر ـ ونحن نسأل مثل هذه الأسئلة أو نجيب عنها ـ بالحرّيَّة الفكريَّة التامَّة في كلّ ما نكتب ونقول، لا يشوبها تبعيَّة ذليلة ولا تقليد أعمى.

ومن الواجب علينا أن نقول في قوّةٍ وصراحة: بأنَّ الفضيلة التي ندبنا أنفسنا لإعادة تشييد بنائها، ثمَّ حفظ هذا البناء من أيّ يدٍ تعبثُ به، أو أيّ عدوٍّ يغير عليه، ليست واجهة أماميَّة فحسب كواجهة المنظر الذي يكون عادةً فوق المسرح كظلٍّ لبناءٍ ضخم، تراه ولا تلمسه، وتقف عنده ولا تستطيع الولوج فيه، ويخيّل إليك أنَّه ذو بابٍ وظلٍّ وأبعاد، وهو ليس إلّا صورةً على قماشٍ تأتي به الرّيح وتذهب!!..

نعوذُ بالله من أن نمسخ فضيلتنا فنجعلها منظراً وراء مسرحٍ، ونعوذ بالله من أن نمسخ تاريخنا فنحيله إلى قصَّةٍ تمثّل أمام هذا المنظر.

---

(١) كان ذلك أيضاً عام ١٩٦٠.

لقد قلنا ولا نزال نقول: إنَّ من أهمّ أُسس الفضيلة ودعائمها: تنظيم مجالات الاختلاط بين الرّجل والمرأة، وتقييد مظهر المرأة في هذه المجالات بقيود الحشمة والأدب والسّتر، لكي لا نعصي ما أمرنا به الله في جميع الشرائع من جهة، ولكي لا تنحطّ كرامة المرأة وتهوي إلى الأيدي التي تريد العبث بها من جهةٍ ثانية.

ونحن اليوم لا نفتأ نردّد هذا القول بإصرارٍ وحزم، ونضيف إليه شيئاً آخر، هو أنَّه: لا يجوز في قانون كلّ من الخُلق والفضيلة والدِّين أن يكون للمرأة أيّ حقّ في أن ترشّح نفسها للنّيابة عن النَّاس إلَّا بعد أن تعود إلى رشد الفضيلة فتستر ما أمرت الشرائع بستره، ولا تتّخذ من كلمات: (حقوق المرأة والنّشاط النّسائي.. و... إلخ) مفتاحاً يفتح لها السّبيل إلى حرّيّةٍ غير محدودة، وانحرافٍ غير سليم، واختلاطٍ لا داعي له في الحقيقة إلَّا عرض المفاتن، وإثارة أهواء النّفوس والقلوب.

وليس معنى هذا الواجب الذي نؤمن به أنّنا نكفر بأهميَّة نصف المجتمع، ولا نبالي بحقّ المرأة، بل إنّنا لا نقول هذا إلَّا غيرةً على أهميَّة نصف المجتمع وحفاظاً على حقّ المرأة وكيانها فيه. ويعلم كلّ منصفٍ وبصيرٍ بحقائق الأمور أنَّ الغيورين على المرأة المسلمة وكيانها الاجتماعي، ليسوا هم الذين يغرونها بكلّ شيءٍ، ويدفعونها إلى كلّ ميدان، فمعلوم أنَّ غيرة هؤلاءِ على شهواتهم وملاذّهم فقط..

إنّنا لا ننكر أنَّ الإسلام لا يمنع المرأة المسلمة أن تجلس مجلس الشّورى فتشارك في الدّعوة إلى الحقّ والجهاد ضدّ الباطل، ولكنّنا نضطرّ بحكم البديهة أن نرثي لحقّها الإسلامي هذا، عندما تدعو إلى هذا الحقّ ببرهان من زينتِها ومفاتنها وهندسة جسمِها المكشوف، وعندما تجاهد ضدّ

الباطل بسلاحٍ من مغرياتها وأصباغها التي تعكف على إصلاحِها وتسويتها أكثر من عكوفِها على تحضير الحقّ الذي تريد أن تقوله وتدعو إليه.

ونحن لا نجهل أنَّ الإسلام يفتخر أيما افتخار بثقافة المرأة المسلمة المثقّفة، ويدعو بإصرارٍ إلى أن تتسلّح (وهي الأمّ المربِّية للجيل) بأمضى أسلحة العلم والمعرفة. ولكنّنا نضطرّ أن نرثي لهذه الثقافة أيضاً حينما تتمسخ، فتصبح مسحوقاً جديداً من «الأصباغ المجمّلة» للسانها، وتصبح المرأة المثقّفة هي تلك التي تتقن فن (الأتكيت) وتعلم كيف تجلس في الصَّالونات وقد لفّت ساقاً على آخر، تتحدَّث عن أحدث أزياء أوربا، وآخر أفلام أمريكا، وأجمل تسريحات الشّعر!..

هذه حقائق لا ينكرها أو يُناقش في أمرها عاقلٌ من النَّاس.

إنَّ المرأة يا أيها النَّاس أخطر في تأثيرها الاجتماعي من أن تمثّل نصفَ المجتمع فقط. فإذا لم يتح لها من الظّروف ما يجعلها تتبنى الفضيلة والكرامة الدِّينيَّة سبيلاً لها، كان تأثيرها في المجتمع سيّئاً لا تملك أيُّ قوَّةٍ من سبيلٍ إلى دفعِه كما هو حال المرأة اليوم في أوربا.. أوربّا التي أخذت تقرع أجراس الخطر منذ حينٍ مؤذنةً بهلاكٍ وبيلٍ!..

ولولا أنَّ المرأة في خطورتها الاجتماعيَّة كذلك، لما ركّز الاستعمار معظم جهوده على اللّعب بأهواءِ المرأة واستغلال نواحي الضَّعف فيها. ولولا أنَّ المرأة كذلك، لما همس ذلك المبشّر الاستعماري الخطير (جسب) في أُذن صحبه قائلاً: «إنَّ مدارس البنات في البلاد العربيَّة هي بؤبؤ عيني. لقد شعرتُ دائماً أنَّ مستقبلنا في سورية إنما هو بتعليم بناتها ونسائها. لقد بدأنا نشاطنا في ذلك على ضعف ولكن ها هي ذي قد أثارت اليوم اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيَّات التبشيريَّة».

إنَّ وسيلةً يعتمد عليها الاستعمار كلّ هذا الاعتماد في سحق حضارتنا وتفتيت كياننا، لا يجوز لنا بحالٍ من الأحوال أن نتساهل فيها بداعي الإشفاق على شهوة في كرسيّ الحكم أو الشّهرة والكلام.

إنّنا أُمناء على حضارة.. حضارة طالما أقضّت مضاجع المستعمرين في الشرق والغرب. وحرّاس المبادىء والحضارات لا يجوز لهم بحالٍ أن يتركوا سبيلاً للعواطف إلى قلوبهم وأفكارهم على حساب ما يقضي به المنطق والعقل.

وغريب جدّاً أن يقول بعضُ النَّاس فينا: إنَّ عجلة التطوّر لا يمكن إعادتها إلى الوراء!

أيُّ عجلةٍ، وأيّ تطوُّر!.. إنَّ كثيراً من دورات هذه العجلة جاءت بدفع أيدٍ استعماريَّة لئيمةٍ من أمثال (جسب)... دفعها لتمشي فوق كثيرٍ من نُظُمنا ومبادئنا الحضاريَّة لتُخلّفها من ورائها وقد تفتَّت والتصقتْ بالتراب.. أفنأتي اليوم لندافع عن تلك الأيدي اللئيمة ونقول: إنَّ العجلة التي دفعها الاستعمار إلى هنا لا يمكن أن تعود إلى الوراء؟..

إنَّ عجلة حضارتنا لا تدور دوراناً آليًّا شأن الحضارات الأخرى التي تتحكّم فيها الشّهوة والميوعة والإسفاف، ولكنَّها تسير على صراطٍ بيّن معلوم. وإذا جاء مَن أخرجها في بعض الحالات عن حدود هذا الصّراط فإنّنا نملك بإذن الله أن نُعيد كلّ شيءٍ إلى نصابه ومكانِه.

كان أولى من حديثنا عن المرأة وحقّها في الانتخاب والترشيح أن نتحدَّث عن السبيل الذي تعودُ به المرأة المسلمة إلى كرامتها وحشمتها الإسلاميَّة الأصيلة.. لتقف على الأرض الرّاسخة التي تمكّنها من الاشتراك الحقيقي في خدمة مجتمعها وبني جنسِها.

أولى من هذا بكثيرٍ أن نتحدَّث عن الحدود التي ينبغي أن توضع للاختلاط، والحدّ الذي ينبغي أن تقف عنده المرأة في زينتها وتبرّجها، كي تُقلَع بذلك أعين أمثال جسب، فلا يقول أحدهم: ـ إنَّ مدارس البنات في البلاد العربيَّة هي بؤبؤ عيني ـ؛ لأن مدارس البنات عندئذٍ ستُخرج أُمهاتٍ يُعلّمن أولادهنَّ الخلُق والدِّين والفضيلة، ونساء مثقّفات بالثقافة الصّحيحة التي تكشف زيف الباطل وعظمة الحقّ. ولن يجد حينئذٍ واحدٌ من المستعمرين والمبشّرين أيّ امرأةٍ في أيّ شارعٍ أو منزلٍ أو مدرسة أو ناد تدعو إلى تقليد أوربا؟

ثمَّ إنّنا في هذا البلد مسلمون، بل وإنَّ الشام هي أعظم بلدةٍ إسلاميّةٍ تزهى وتفتخر بإسلام أهلِها. وحرامٌ علينا ونحن أهل الشام أن نسكت على محرّمٍ رسب فيما بيننا قبل اليوم، أو يُراد فرضه علينا في هذا اليوم.

❑ ❑ ❑

حاجة المكتبة الإسلاميّة إلى الأدب الإسلامي

دُعيتُ هذا العام[1] إلى الاشتراك في إجراءِ امتحان مقابلةٍ، للطّلاب المتقدّمين إلى نيل الدّبلوم العامَّة للتربية، من خرّيجي كليَّة الشريعة بجامعة دمشق.

ولدى الاطّلاع على ما كان قد دوَّنه كلّ منهم في استمارته، لفت نظري أنَّ معظمهم يُقبِلون على قراءة الكتب الأدبيَّة والاجتماعيَّة، ورأيتُ عدداً كبيراً من هؤلاءِ يُجيبون عن سؤالٍ حول الكتاب الذي قرأوه وترك أثراً بيّناً في نُفوسهم بأنّه: وحي القلم لمصطفى صادق الرّافعي.

إنَّ هذه الظّاهرة تدلّ، بلا شكٍّ، على أمرين اثنين:

أوّلهما: أنَّ لدى الكثرة العظمى من شبابنا المتديّن المثقّف ظمأ إلى مطالعة الأدب ودراسته.

ثانيهما: أنَّ المكتبة الإسلاميَّة تُعاني فقراً في الكتاب الأدبي الذي ينسجم مع عقليَّة الشابّ الواعي المتديّن ويتّفق مع مبدئه، والدّليل على هذا الفقر أنَّهم يُقبلون إلى المكتبة الإسلاميَّة ويتحسّسون فيها زادهم الذي يتطلّبونه من الأدب، فلا تكاد أيديهم تقع إلّا على كتابٍ واحدٍ، هو وحي القلم للرّافعي.

---

(١) كان ذلك عام ١٩٦٨.

ولكلّ مفكّرٍ أن يتساءل: تُرى كم هي نسبة أُولئك الذين يصبرون على هذا الفقر في المكتبة الإسلاميَّة، فلا تمتدّ أعينهم وأيديهم إلى ما وراء الخطّ الإسلاميّ، حيث الفنون الأدبيَّة المختلفة تملأ العين وتُعشي النّظر وتستهوي الخاطر والنّفس؟.. ثمَّ كم هي نسبة الذين يلتفتون إليها فيقرأونها ويُشبعون حاجتهم منها، ولكن دون أن تترك أيّ أثرٍ ضارٍّ في نفوسهِم أو في عقولهم؟..

إنها فئةٌ قليلة، بلا شكّ، تلك التي تصبر على الظّمأ فتغمض العين عن كلّ هذا الذي يزخر به السّوق من الفنون الأدبيَّة المنحرفة، وتمضي دون أن تفكّر فيها. وإنها لفئة أقلّ، تلك التي تُقبل عليها بحثاً وقراءةً ودرساً، ثمَّ تتركها وتنفض منها اليد والفكر دون أن يعلق بشيءٍ منها أيّ بقايا من أوضارها وناقع سمومِها...

ولكلّ مفكّرٍ، بعد هذا التساؤل، أن يُدرك أهمّ العوامل التي تتخطّف كثيراً من الشبّان المسلمين، بعد أن كانوا يتابعون السّير بخطى ثابتة فوق صراطهم الإسلامي الحميد، إنها أشياء كثيرة.. ولكن ما من ريبٍ أنَّ هذا السّبب الذي ذكرت هو أهمّها وأخطرها.

وتحليل الأمر في هذا واضح لكلّ متدبّر، وإن كان هذا الوضوح لم ينعكس إلى اليوم (لسوءِ الحظّ) في شيءٍ من تدبير الفكر الإسلاميّ الجديد.

إنَّ الإنسان المثقّف إنما يندفع للقراءة، ابتغاءَ تحقيق حاجاته النفسيَّة والعقليَّة. ومعنى ذلك أنَّ للإنسان ـ أيّ إنسانٍ كان ـ تطلّعاتٍ وأشواقاً نفسيَّة، فهو يحبّ أن يرى انعكاساتها فيما يقرأ، سواءٌ كان ذلك وصفاً وبياناً، أو معالجةً وتقويماً، كما أنَّ للإنسان تساؤلاتٍ ومشكلات عقليَّة، فهو يحبُّ أن يرى أجوبتها وحلولها فيما يقرأ.

ثمَّ إنَّ النّفس الإنسانيَّة خاضعةٌ لقيم وأحاسيس وجدانيَّة معيّنة، من شأنها أن تبعث تأثيراتها حتى على القيم والموازين المنطقيَّة التي يتلقّاها العقل مباشرةً، ويُظنّ أن لا طريق لشيءٍ من العواطف والوجدان إليها.

من أجل ذلك يتطلّع جمهور القرّاء، من شتى الفئات والطّبقات، إلى قراءة كلّ ما من شأنه وصف العواطف أو معالجتها وتقويمها. وليس سرّاً أن أقول لك أنَّ كلّ مَن يقتني كتاباً أدبيًّا، كالأغاني، ونهاية الأرب، والمستطرف، وأشباهها، إنما ينحطّ في قراءته قبل كلّ شيءٍ على الأبواب التي تحوي هذه الموضوعات، وقد تجد إنساناً يحوي في مكتبته واحداً من هذه الكتب، دون أن يطّلع على الكثير من فصوله، اللَّهُمَّ إلَّا تلك الفصول الأخرى.. فلا بدَّ أنَّه قد قرأها واستقرأها من مختلف فصوله وأبوابه، وفرغ منها خلال الأيَّام الأولى من اقتنائه له..!!

ومن أجل ذلك أيضاً، تجد أنّ الإنسان المثقّف أسرعُ إلى قَبول الفكرة التي تُقْبِل إلى عقلِه في ثوبٍ من البلاغة والبيان الأنيق، منه إلى قَبول الفكرة التي ترد إلى ذهنِه عاريةً إلَّا عن الحقيقة والجوهر، لأنَّ للوجدان نصيباً ملحوظاً في الفكرة الأولى، دون أن يكون له في الأخرى أيّ نصيب.

ومصيراً إلى هذا التحليل اليقيني الذي لا يقبل أي ريب، يجمع علماءُ النّفس على أنَّ ما يمتصّه الفكر الإنساني عن طريق النزوع والوجدان أكثر ممّا يمتصّه عن طريق المنطق والعقل، أي إنَّ الحصيلة الفكريَّة التي انطبع بها إنسانٌ ما خلال حقبةٍ معيّنةٍ من حياتِه، إنما تجمّع أكثرها لديه من نافذة وجدانه ونوازعه النفسيَّة.

وعندما يريد أحد المربِّين أو المعلّمين من هذا الإنسان أن يُعيد النّظر في بعض ما تجمّع لديه من هذه الأفكار، على ضوءِ المنطق والعقل، فإنَّه يُلاقي في سبيل ذلك عنتاً وجهداً شديدين.

ولذا فإنَّ استخدام العواطف والوجدان يعدّ، عند علماءِ التربية، أعظم ميدانٍ لحركة التربية والتعليم.

ومن هنا تأتي أهميَّة الأدب في المجال نفسه، إذ هو في جانبه الشكلي يقوم على تأريخ الكلمة العربيَّة وتقويمها، وهو في جانبه الموضوعي يقوم على معالجة القضايا العاطفيَّة والوجدانيَّة أو وصفها بأسلوبٍ مشرقٍ جذّاب. وكلا الجانبين يعدّ استجابةً لأهمّ النوازع النفسيَّة لدى الإنسان، فلا جرم أنَّ استخدامه في التربية وقضايا الفكر، يأتي بأثرٍ بارزٍ وفعّال، سواءٌ فيما يتعلق بجانبه الشّكلي أو الموضوعي.

* * *

فهذا هو تحليل الأمر حيال هذه الظاهرة، وقد قلتُ إنها على الرّغم من وضوحها، فإنَّ شيئاً من هذا الوضوح لم ينعكس إلى تدبير الفكر الإسلامي الجديد؛ وهو أمر مؤسف.

ولكنَّ الذي يؤسف أكثر من ذلك، أنَّ هذا الوضوح قد انعكس بشكلٍ مدروس ومتكامل إلى الفكر اللا إسلامي الجديد وحده!..

لعلّك تعجب إن سمعتَ من يقول لك: إنَّ أكثر الأفكار والعقائد الزّائفة الهدّامة، إنما تسللت إلى رؤوس دعاتها المسلمين (أي الذين كانوا مُسلمين) عن طريق الأدب.. لا الأدب في جانبه الشّكلي فقط بل في جانبيه: الشّكلي والموضوعي معاً!..

أجل، تلك هي الحقيقة. . ومن الجهل المؤسف أن تتعجَّب منها!. . إنَّ جماعة (تركيا الفتاة) لم تستطع أن تتسلَّل بأفكارها الزّائفة الخطيرة، وهي في حظيرة الخلافة الإسلاميَّة وعاصمتها، إلَّا عن طريق الأدب التركي.

ومن المعلوم أنَّ هذه الحركة بدأت في المراحل الأولى من حياتها، على أنها حركةً أدبيةً مجرَّدة، ولم يكن ما ينشره أقطابها إذ ذاك، من أمثال نامق كمال، وضيا باشا، ومصطفى فاضل باشا، إلَّا موضوعات وروايات أدبيَّة خالصة، لا يخطر في بال أحدٍ أنها تحوي بين سطورها أفكاراً معيّنة ستتسرّب إلى فكر القارىء بمجرّد قراءتها!. .

ولقد كان الشابّ المثقّف يُقبل على تلك الرّوايات، تحدوه إليها حاجةٌ نفسيَّة بين جنبيه، ولكنَّه ما يكاد ينتهي من قراءتها حتى تترك شكوكاً وتطلّعاتٍ عقليّةً معيّنة في رأسه.

ولقد انتشرت تلك الرّواية الدّراميَّة التي وضعها نامق كمال في عام ١٨٧٣ انتشاراً مذهلاً في صفوف النَّاشئة والطّلاب، دون أن يتنبّه حتى قرّاؤها إلى القيم الفكريَّة والسياسيَّة التي استهدفها المؤلّف، على الرغم من اصطباغ الكثيرين منهم بها وتبنّيهم لها!. .

وعندما انتقلت الحركة الأدبيَّة بأقطابها الأدباء من لبنان إلى مصر في أواخر الحكم التركيّ لم يكن يخطر ببال عامَّة المثقّفين من النَّاس أنها حركة فكريَّة خطيرة وليست حركةً أدبيّةً مجرّدة كما تبدو.

ولقد كان النَّاس يُقبلون على تلك المقالات والرّوايات الأدبيَّة التي تنشرها المقتطف وغيرها، على أنها زاد من الأدب يُرضون به وجدانهم

وعواطفهم، ولكنَّهم ما علموا إلَّا أخيراً أنها كانت تترك قيماً وأفكاراً مُعينة في رؤوسهم.

ولقد مرَّ زمنٌ طويل على النَّاس وهم يُقبلون على الرّوايات التي يكتبها جرجي زيدان على أنها قصص أدبيَّة عاطفيَّة مقتبسة من بطون التّاريخ، يدفعهم إلى التعلّق بها ما فيها من خطّ عاطفيّ مستمرّ، دون أن يُدركوا إلَّا أخيراً أنَّ جرجي زيدان إنما عبث عن طريق ذلك بالتّاريخ الإسلامي عبثاً منكراً لا مزيد عليه. والتفت الباحثون.. وإذا عبثُه هذا قد استقرَّ في كثيرٍ من الرّؤوس!..

وأكثر هؤلاء الشبّان الذين يواجهونك اليوم بأفكارهم وآرائهم الإلحاديَّة، لم يقتبسوا آراءهم وأفكارهم هذه من كتبٍ تروّجها وتدعو إليها بصريح القول والبيان، ولكنَّها تسللت إلى نفوسهم فعقولهم خلال استغراقاتٍ شاعريّةٍ حالمة مع روايات وأقاصيص عاطفيَّة كانوا يعكفون عليها؛ وربما أدرك أحدهم، وهو يلتهمها بنهمٍ وشغف، أنها ستُقيم في نفسِه حرباً مع القيم الخلُقيَّة التي يقدّرها ويتمسّك بها، ولكنَّ أحداً منهم لم يكن يدرك أنها ستقضي أيضاً على المبادىء الاعتقاديَّة التي ترتكز سليمةً في عقلِه.

* * *

تلك صورةٌ موجزة جدّاً عن استغلال الفكر اللا إسلاميّ الحديث للطّاقة الأدبيَّة في جانبيها الشّكلي والموضوعي، على مستوى نفسي وتربويّ مدروس. فماذا عن استخدام الفكر الإسلامي الحديث للطّاقة نفسها في سبيل بسط مزيدٍ من السُّبل السَّهلة المعبّدة إلى الحقائق الإسلاميَّة أمام العقول؟!..

لا شيء.. وإلى الآن لا يملك الكتّاب والمفكِّرون المسلمون أيّ سبيلٍ ينتهي بالشّابّ المثقّف إلى شيءٍ من حقائق الإسلام إلَّا ذلك السّبيل الجدلي المنطقيّ المستوعر. نعم إنَّه سبيلٌ سائغٌ وضّاءٌ لمن كان يبحث لنفسه عن الهداية وطريقها، أمَّا الآخرَ الذي لا شأن له بالمنطق ولا بالهداية، لأنَّ عقله في غطاءٍ عن ذلك كلّه، فلن يجد فيه إلَّا ما يدعو إلى التَّجافي والكسل!..

وربما يُبادر البعض فيقول: ألم تقرأ شيئاً من تلك الأبحاث والمقالات والرّوايات الإسلاميَّة التي صيغت بأسلوب أدبيٍّ جذّاب، وإنَّ في المكتبة الإسلاميَّة من ذلك كثير؟.

أجل، إنَّ في المكتبة الإسلاميَّة الكثير من هذه الكتابات، ولكن ليس هذا هو موضوع البحث؛ إنَّ هذا لا يعدو أن يكون اعتماداً على الأدب في جانبه الشّكلي، أي جانب الأسلوب فحسب. وهو ذو فائدةٍ محدودةٍ جدّاً بالنسبة للغرض الذي نتحدَّث عنه.

إنَّ البحث الذي يُعلن عن نفسِه أنَّه بحث إسلاميّ، منذ أوَّل نظرٍ إلى عنوانه أو موضوعه، لن يجتذب إليه إلَّا أُولئك المسلمين الذين يبحثون عنه بطبيعة الحال. وفائدة الأسلوب أنَّه يمدّهم بمزيدٍ من النشاط للإقبال على القراءة ومتابعتها بمتعة وسرور، أمَّا أُولئك الذين يُرادُ اجتذابهم إلى الخطّ بوسيلةٍ يرضونها فلم نفعل لهم أيّ شيء..!

لماذا لا نستخدم الأدب في جانبه الموضوعيّ نفسه؟.. لماذا لا تكون هناك قصص وروايات عاطفيَّة تستهوي النّفس والفكر، تُعرض فيها الفطرة الإنسانيَّة على وجهها الإسلامي السّليم، بأسلوبٍ أدبيٍّ محض، ثمَّ تُضمّن

بين سطورها في براعةٍ ولباقة، ذاتيَّة الإسلام في مختلف قيمه العلويَّة الخالدة؟!..

أفتكون هذه الموضوعات الأدبيَّة صالحة لأن تمتدّ فيها عروق الزّيغ والفساد الفكري، ثمَّ لا تكون صالحةً لأن يتناولها بالمعالجة أُناسٌ صالحون فيمدّوا فيها عروقاً من التوجيه السّليم والاستقامة العقليَّة الرّاشدة؟!..

وربما أجاب بعض المتخوِّفين، بأنَّ مثل هذه المباحث من شأنها أن تُفسِد أخلاق النَّاشئة المتديّنة المستقيمة، فتستيقظ إلى ما هي في غنى عن الالتفات إليه والتنبُّه له.

ونقول: حسناً.. ولكن ماذا عن أُولئك الشّاردين الذين ينبغي أن نبحث عن وسيلةٍ نفسيَّة صالحةٍ لجلبهم إلى الطّريق، أو إلى النّقطة التي تمكّنهم أن يفتحوا فيها أعينهم على الحقّ؟.. ماذا ينبغي أن نفعل لأولئك الذين لن نستطيع التسلّل إلى عقولهم إلَّا في حِمى العاطفة وسلطانها؟..

ثمَّ من أين لك بأنَّ النشء الطّيب المستقيم غافل عن هذه الموضوعات والأفكار؟..

إنها تعيش كأقوى ما تكون بين جوانحه وفي وجدانه، وإن كان يخفيها عن حديثه ولسانه؛ وخيرٌ لك أن تدعها تتنفّس في جوٍّ صالحٍ مستقيم يدعم يقينه الإسلامي، من أن تتركها حبيسةً ضمن وهمِ أنها مفقودة وأنّه غافلٌ عنها، وأنت لا تعلم ماذا عسى يكون من شأنها مع قوانص الفكر والأدب والثّقافة الجانحة التي تفيض وتتراقص من حوله كلّ يوم!!..

أفي الحقّ أن يفتح دعاةُ الزّيغ إلى عقول النَّاشئة كلّ السُبل الفكريَّة والأدبيَّة والوجدانيَّة ويتسلّلوا إليها من خلال ذلك كلّه، ثمَّ يأتي دعاةُ الحقّ

الإسلامي فيُغلقوا على أنفسهم إلى تلك العقول كلّ المنافذ والسبُل، إلَّا سبيلاً واحداً هو سبيل الجدل والمنطق والصّراع؟!..

وانظر.. كم يخشى أُولئك الذين استغلّوا الأدب لزيغهم الفكري، من أن يأتي يومٌ يُقبل فيه المسلمون إلى استعمال سلاحهم هذا في سبيل الحقّ الذي يدعون إليه!.. وانظر، كم يبادرون إلى محاولة خنق كل جهد ومسعى يلمع لهم سائراً في هذا السبيل.

أين هو اسم مصطفى صادق الرّافعي في مناهج الأدب العربي المعتمدة في مدارسنا؟ وأين الحديث عنه، مع المناسبات والذكريات، في إذاعاتنا؟.. ألم يكن أُعجوبة الأدب والبيان العربي في عصره؟.. ألم يُعالج الموضوعات الوجدانيَّة نفسها التي يُعالجها كثير من أدعياءِ الأدب من بعده؟.. ألم يكتب رسائل الأحزان، وأوراق الورد، والقلب المسكين، والجمال البائس، وسموّ الحبّ، وأمثالها من الفصول العاطفيَّة الوقّادة؟..

فلماذا يحاربونها ويحاربونه، وقد أجمع الباحثون أنَّ ما كتبه من ذلك ليس إلَّا نثاراً من درّ الأدب العربيّ المكنون؟

السبب..!!.. السبب يا صديقي أنَّ هذه الفصول ليست إلَّا منجماً يزخر بتبرٍ من القيم الإسلاميَّة العليا، تقرأ في سطورها الحبّ واللّوعة والأشجان، وتقرأ بين سطورها آياتٍ من الفكر الإسلامي المتبصّر الحكيم.

فمن أجل ذلك حُورب أدبه، وتُنوسي اسمه.. من أجل أنَّه أودع المكتبة الإسلاميَّة أسمى نموذجٍ للأدب الإسلامي الرّفيع.

ومع ذلك فإنّك لترى في المسلمين أنفسهم أيضاً مَن يحارب هذه الفصول ويحارب من أجلها، أي من أجل أنّه سمح لكلمات الجمال، والحبّ، والقلب، أن تتسلّل إلى قلمه وتستقرّ في ثنايا مقالاته. !! ولا أظنّ إلّا أنّ الكثيرين منهم لم يقرأوها ولم يتبيّنوا شيئاً ممّا وراءها، أو لعلّهم قرأوها ولم يقتنعوا فيها بشيءٍ ممّا نُسميِّه الإيحاء أو الفكر الإسلامي، لأنَّ (الأدب الإسلامي) في نظرهم لا يُسمَّى إسلاميًّا إلَّا إذا جاءت كلماتُه تلبس عمامةً وجبّةً تتدلّى معها سُبْحتها الكاملة الطويلة، وكان ينطلق في حديثه للنّاس من داخل محرابٍ ليس من حوله إلَّا هالة الإجلال والهيبة والوقار. . !!

فأيّ غرضٍ يستطيع أن يحقّقه هذا الأدب عندما يُحَمَّل هذه الأثقال كلّها. . ؟

وأيّ حاجةٍ تبقى إليه، في محرابٍ يشعّ منه هدي القرآن وعظيم بلاغته ورائع بيانه. . ؟

* * *

الأدب، في موضوعاته الوجدانيَّة والعاطفيَّة، حقيقة ثابتة في كلّ أُمةٍ لها نصيب من الحضارة والفكر. **فهذا شيء.**

والأدب، في كلّ أُمة، هو الملاذ الذي يُهرع إليه دعاة المذاهب والأفكار، لترويج مذاهبهم وأفكارهم عن طريقِه. فلئن لم يجنّد الأدب (كما هو) وسيلةً بيد المسلمين، جُنِّد لا محالة وسيلةً بيد غير المسلمين. **وهذا شيءٌ آخر.**

والأدب العربي اليوم، تتسابق إليه المذاهب الغربيَّة ليتقوَّم بها، ويكتسي منها، ويصطبغ بصبغتها، وليس من سبيلٍ يتقوّم به الأدب العربي

بنفسِه فيبدو مكتسياً بذاته، كاملاً لا منفذ لشيءٍ من تلك المذاهب إليه، إلَّا إذا سرتْ فيه عروق الإسلام، **وهي حقيقة ثالثة.**

ومحالٌ أن ينهض بهذا أديبٌ ربّاه الأدب وحده دون أن يكون له شأنٌ بالإسلام وحقائقه، وعبث عجيب أن يُنْتَظَرَ ذلك من أديبٍ هذه حاله. إنما الذي يصلح أن ينهض بذلك، أديب ربّاه الإسلام أوّلاً، وعاش له ثانياً، ثمَّ انطلق يحقّق هذا الذي ذكرت، ضمن منهجٍ، وفي سبيل غاية.. **وتلك حقيقة رابعة.**

ولا أعتقد أنَّ مفكّراً يتمارى في شيءٍ من هذه الحقائق الأربع.



أُدباء.. ولكن

قال لي ـ وقد أقبل على عجل ـ: أتسمح لي أن أتلو عليك هذا النّصّ لتضبط لي تلاوته وشكله؟..

قلت: تفضّل!.. وأقبلتُ إليه مستجمعاً كلّ انتباهي وفكري، وأنا أحسب أنَّه سيُلقي إليَّ بنصٍّ من كلام عامر بن الظرب، أو حميمة بن رافع، أو أنمار بن أراش، أو غيرهم ممّن عاشوا في الجاهليَّة، وتركوا وراءهم تضاريس من الكلام الذي نحسبه اليوم حوشيًّا مستهجَناً، وكانوا يرونه رقيقاً فصيحاً مُشرقاً.

ولكنَّه لم يقرأ عليَّ شيئاً من هذا الذي توقّعته، وإنما فاجأني بقراءة بضع آيات من القرآن، من سورة آل عمران!..

وأصغيتُ إليه، وإذا هو لا يهتدي في تلاوتها إلى صحّة نُطقٍ أو سلامة أداء!.

وتأمّلته، وهو يُعالج لسانه في إبانتها، فرأيتُه يستجمع من الجهد، لاستخراج الكلمة من تجاويف فمه، ما لو بذل مثله طفلٌ رضيع لتكلّم وهو في المهد!... وسرّحتُ نظري في وجهه، وهو منهمكٌ فيما هو فيه، وإذا العَرق يكدّه من جبينه وأطراف وجهِه!..

ورأيتني وأنا أردّه عن أغلاطه الكثيرة، وأُنبّهه إلى صوابها، أزيده على جهده بلاءً آخر، وأُحيّره من حيث أُريد تبصيره!..

فانتظرتُه حتى انتهى، ثمَّ قلتُ له:

يعطيك الله العافية، فما أنت وهذا النّصّ، ومَن الذي ابتلاك به وحملك على هذا الجهد الجهيد في معالجته؟!..

فأجابني، وهو يمسح العرق عن جبينه: أُريدُ أن ألقي عليه درساً في العربيَّة!!..

فقلتُ له: وقد خُيّل إليّ أنّ أرض الغرفة بدأت تدور بي: درس في العربيَّة؟.. وأُستاذ اللغة العربيَّة أنت؟!!..

قال: أنا من طلَّاب الآداب، قسم اللغة العربيَّة، وقد عُهد إليَّ بتدريس ساعاتٍ في العربيَّة في المدارس.

قلتُ: ولكن في الصّغار الذين تدرّسهم مَن يتقن تلاوة هذا النّصّ أكثر منك!..

فأجابني، وقد بدتْ دلائل انفعالٍ على وجهه: إنّني أختصّ في الأدب العربيّ، لا في الدِّين والقرآن!..

فقلتُ له: إنَّ هذا الذي تقول، هو أصل المشكلة التي تُعانيها أنت وأمثالك. أنت تختصّ بالعربية لا بالدِّين والقرآن!.. حسناً، فما الذي أقحمكَ إذاً في تدريس هذا النصّ من القرآن، وأنت إنما تعلم العربيَّة والأدب؟!..

اسمع يا هذا: إنَّ ثمة حقيقة لا مرية فيها ولا جدال، هي أنَّ العربيَّة بكلّ ما لها من قواعد وبلاغة وفقه لغة، مرتكزة على القرآن.

فقواعد النّحو والصرف لم توجد إلَّا يوم قام أبو الأسود الدّؤلي بشكل القرآن وضبطه. وعندما يختلفُ النّحاة في إعراب جملةٍ أو فهم كلمة، فإنَّ أقوى ما يفصلُ في الأمر، آية من القرآن توضح ما استغلق، أو تكشف عمّا التبس.

وقواعد البلاغة والبيان لم تُؤسّس إلَّا على محور القرآن، ولم تُستنبط إلَّا من أُسلوبه وطريقة تعبيره. وعندما وضع علماءُ البيان أُصول الكناية والمجاز والاستعارة، فإنما احتذوا في ذلك حذو القرآن، وساروا على ضوئه، واتبعوا طريقته، وارجع إلى أُمّهات ما كُتب في البلاغة تجدْ برهان هذا بأجلى ممّا أقول وأوضح.

والقرآن هو الذي فصل بين عصرين خطيرين للنّثر العربي: النّثر في العصر الجاهلي، والنّثر في العصر الإسلامي، فجسّد في كلّ منهما ميزاته ومظاهره وخصائصه.

ولولا القرآن، لما انشطر النثر العربي هذين الشّطرين، ولما استقام النّثر الإسلامي على شيءٍ من هذا الرّواء والرّقّة والعذوبة التي تتجلى فيه، فقد كانت بلاغةُ القرآن هي اللّون الجديد لصبغة النّثر خلال العصور الإسلاميَّة كلّها.

فكيف يصحّ لك أن تزعم ـ مع هذا كلّه ـ أو تتخيّل، بأنّك عندما تسير في طريق دراسة العربيَّة، تكون بسبيل من أن لا تلتفت إلى القرآن، وأن لا تُعنى بشيءٍ من بحوثه ودراساته؟!..

وكيف يتأتّى أن يترطّن الرّجل بقراءة القرآن الذي هذا شأنه، ويلتوي لسانه ويتعثر في تلاوتِه العثرات العجيبة المضحكة، ثمَّ يكون مع ذلك أديباً في الأدباء، يُحسب واحداً منهم، ويشقّ معهم للأدب سبيل التطوّر والتقدّم والنّظر والبحث؟!.

وعندما صحّ ـ في نظر البعض ـ أن تلتقي تلك الرّطانة واللكنة بدعوى الأدب وإمامتهِ، صحَّ لنا أن لا نعجب من أن ننتهي إلى نهايةٍ نجد فيها الأديب وهو لا يفرّق بين (ال) الشّمسيَّة والقمريَّة، ولا يُدرك فرق ما بين الجملة الاسميَّة والفعليَّة!.

وصحّ لنا أن لا نسخر أو نعجب إطلاقاً ممَّن يفخِّم الرّاء في نطقه العربيّ حيث ينبغي أن تُرقّق، ويرقّقها حيث يجبُ أن تُفخَّم، ولا يُدرك أيَّ فرقٍ بين أحرف الاستفالة والاستعلاء!!..

فالرّجل من هؤلاءِ إنما يختصّ بالأدب العربي!. ومعنى ذلك في نظره أن لكلٍّ أن يُطلق هذا الاسم على ما يشاء من الأبحاث ويصرفه عمّا يشاء. وليس (الأدب العربي) شيئاً آخر وراء ذلك!!..

وعندما أصبحت قواعد الأداء العربي في فقه اللّغة، مظهراً يتجلّى أوّل ما يتجلّى في تلاوة القرآن عند مَن يتقنون تلاوته ـ حقّ عليها القول بأن تُستبعد من قواعد فقه اللّغة، بل من الدائرة العربيَّة كلّها، فقد تحوَّلت بذلك إلى شيءٍ آخر..

تحوّلت إلى شيءٍ من خصائص المقرئين، لا ممّا يحتاجه الأدباءُ وعلماء العربيَّة والبيان!..

وخيرٌ للأديب العربيّ إذاً أن يدير بين فكّيه، لدى نطقِه العربيّ، لساناً أعجميًّا يتلعثم ولا يكاد يبين، من أن يحمل لساناً يسوقه إلى الانضباط بقواعد أصبحت تُسمّى (تجويداً) وغدتْ من مُستلزمات تلاوة القرآن!!..

ثمَّ قلتُ للمدرّس (الأديب): ذلك هو أصل المشكلة.

أمَّا سببها فشيءٌ آخر!..

إنَّ هؤلاءِ يتطلّعون إلى عربيّةٍ مجتثّةٍ عن أُصولها، عاريةٍ عن لَبوسها، لا شأن لها بما يذكّر بدين، ولا سبيل لها إلى شيءٍ من مصادره ونصوصه!.

وهم يستنجدون لتحقيق ذلك بمزيدٍ من الإغراق في محاولة تغريبه وصبغه بالمذاهب والأفكار البعيدة عن منشئه وأُصوله، (ولو استطاعوا لألبسوه هو الآخر قبّعة وحلّة أوربيَّة، وشدّو عنقه برباطٍ أفرنجيّ)[1]!.

والقرآن ـ كما تعلم ـ له وجه عربيّ، به استمسكت اللغة العربيَّة، وعليه استقام وجودها وبقاؤها ونموّ آدابها، وله مع ذلك وجه دينيّ، به قامت شرعة الإسلام وثبتت حجّته، ودخلت إلى الأفئدة قيمه وأُصولُه.

فهؤلاءِ النَّاس، بهم حاجة إلى الوجه العربيّ من القرآن، ولديهم انكماش عن وجهه الدِّيني الثاني؛ وبودّهم أن لو استلّوا من القرآن كلّ خصائصه الأدبيَّة واللّغويَّة، دون أن يجدوا أنفسهم وجهاً لوجهٍ مع موضوعاته وحقائقه الدِّينيَّة!..

ولكنَّ هذا الفصام لا يمكن أن يتمّ.. فماذا يفعلون؟

لقد شاء فرط الحساسيَّة تجاه الدِّين، عند هؤلاء، أن يكون هو المتغلِّب في هذا الصّراع. فآثروا استمرار الضّعف في العربيَّة على المغامرة في اقتحام سبيلٍ قد تفوح من بعض جنباته روائح دينٍ هم في غنى عن التعرّض له والنّظر فيه!..

وآثروا الركّة العاميَّة والرّطانة الأعجميَّة، على دراسة طبائع الأحرف العربيَّة والتزام أُصول النّطق بها (وهي فرع أصيل من فروع فقه اللّغة)،

(١) هذه الفقرة من كتاب: «في سبيل الله والحق» للمؤلف.

وذلك بعد أن أصبحت خاصَّةً من خصائص القرآن وتلاوته، وأصبح له اسم دينيٌّ آخر: (التّجويد)!!..

فكان أن وجد، بسبب ذلك، هذا الذي يأبى إلَّا أن يتصدَّر على عرش العربيَّة والبيان ويتمطّى فوقه بكلّ من عرضه وطوله، وهو لا يقيم لسانه على نطق بالعربيَّة سليم، ولا يملك ذوقاً في صياغة الجملة العربيَّة أو تحليل بلاغتها!!.

وكان أن وُجد في المجتمع، بسبب ذلك، واحدٌ مثلك يدرّس العربيَّة وآدابها في المدارس، في الوقت الذي يطوف بنصٍّ من القرآن على مَن يضبط له تلاوته وشكلَه!!...

ثمَّ قلت له: ولو سمع أصحاب هذه الحساسيَّة نصيحتي لهم، وأصغوا إلى رأيي في هذا الأمر، لطلبتُ إليهم أن يُحيطوا حساسيتهم هذه بقوَّةٍ من ثبات الرّأي والأعصاب، فيُقبلوا على القرآن يتعلّمون ويفيدون من وجهه الأدبي الزّاخر العجيب، ويحافظوا ـ في الوقت نفسِه ـ على نفوسهم وعقولهم من أن يمسّها طائفٌ من أفكاره وموضوعاته الدِّينيَّة المختلفة.

وليكن لهم في ذلك أُسوة بالمستشرقين الذين يدرسون من علوم الإسلام ومصادره كلّ ما يفيدهم ويعنيهم، دون أن يتحوَّلوا بذلك عن عقائدهم وأفكارهم والسّبل التي ارتضوها لحياتهم. فهم يحبسون أنفسهم وأفكارهم، خلال دراساتهم هذه ضمن حصونٍ من قوّة الإرادة والثّبات على النّهج، ثمَّ يواصلون سيرهم العلمي إلى الغاية التي يرمون إليها باطمئنانٍ، ودون أيّ قلقٍ أو خوف.

وطلَّاب المعهد العالي للتّمثيل والموسيقى في القاهرة، يدرسون فيما يدرسونه، قواعد التّجويد، يدرسونها باسمها الدِّيني الثاني لا باسمها العربيّ الأوّل. وذلك شعوراً منهم بضرورة المراس على النّطق بالعربيَّة كما ينطق بها الرّجل العربيّ الأصيل.. وإلّا فكيف يستقيم أن يتقمّص أحدهم شخصيَّة القعقاع بن عمرو مثلاً، وهو لا يملك لساناً كالذي ينطق به القعقاع؟!..

أجل.. إنَّ طلَّاب المعهد العالي للتّمثيل يتعلّمون التّجويد، دون أن تثور عوامل الاشمئزاز عند أحدٍ منهم، ودون أن يفترسه تخيّل أنَّه قد تحوَّل بذلك إلى مقرئٍ يتلو القرآن على مسامع النَّاس في حفل عزاء.

ونحن نقول لهؤلاءِ النَّاس: كونوا فيما تحتاجون للحصول عليه، مثل جماعة المستشرقين وطلَّاب معهد التّمثيل؛ ولا يقعدنَّ بكم عن تحصيل العلم الذي لا بدَّ من تحصيله، فرط حساسيةٍ لا معنى لها إلَّا الدلال المتثائب خلف ضباب ثقيل من الكسل!..

ونقول لهم: ليس كلّ مَن درس آداب القرآن وعلومه وتاريخه أصبح فريسةً للدّين. ولكن ما من شكٍّ أنَّ كلّ مَن طوى النّظر في هذا الكتاب العظيم أصبح بذلك فريسة جهلٍ بلغته التي يزعم أنَّه يفخر بها ويُدافع عنها.

إنَّ كتاب الكامل، والبيان والتّبيين، وعيون الأخبار، وزهر الآداب، كلّها أُمّهات كتب الأدب وعيونها. وفي كلٍّ منها فصولٌ ضافية طويلة عن القرآن وإعجازه وبلاغته، وعن البلاغة النّبويَّة وخصائصها، ولم يقل أحدٌ فيمن جاء أو غبر، إنَّ هذه الكتب قد غدت بذلك فريسةً للدّين، وأنها كتب دينيَّة ينبغي للأديب (العصري) أن يطويها عن نظره ويبعدها عن فكره.

ولا شكَّ أنَّ الذي يقرأ هذه الفصول منها، دون أن يفقه ويتذوَّق حديثها عن القرآن والبلاغة النبويَّة، كاذب في دعوى الأدب وفهمه، يزوّر من نفسه على النَّاس شكلاً فارغاً عن حقيقته ومضمونه.

* * *

إنَّ لهؤلاءِ ـ إذا شاءُوا ـ أن يعترفوا بجهلهم هذا ويقتنعوا به، وليبتعدوا عندئذٍ عن القرآن ما طاب لهم ذلك، وليتحرَّجوا منه كما يحبّون وكما تحبّه لهم حساسيتهم.

ولهم إذا شاءُوا، أن يأتوا البيوت من أبوابها ويسلكوا إلى الغايات سبلَها فيعكفوا على دراسة العربيَّة وأُصولها وآدابها من منابعها ومصادرها، كما درسها سائر مَن قبلنا مِن النَّاس.

وعندئذٍ لا بدَّ لهم من العكوف على دراسة القرآن في تاريخه وعلومه وخصائص أُسلوبه ودلائل إعجازه، وكيفيَّة انبثاق فنون البلاغة من صياغته ومنهجِه في البيان والتّعبير.

أمَّا أن يجعل أحدهم من الدّراسة العربيَّة اسماً للذي يشتهيه من المباحث والفنون، ثمَّ يمضي يُسمّي الجهل علماً، ويفصل في الأمور حسبما يُوحي إليه هواه، ويصبغ الحقائق كلّها بلون الحساسية التي تعتلج في نفسِه فذلك هو السّخف العجيب!!..

وقلتُ لمدرّس (العربيَّة):

إنَّ الذي يضع منظاراً ملوَّناً أمام عينيه، لا يستطيع أن يزعم أنَّه صبغ بذلك الدّنيا كلّها بلون منظاره، ولا يستطيع أن يقود النَّاس كلّهم وراءه تبعاً لهذا الذي خيّل إليه.

وحتى أصحاب نظريَّة النسبيَّة البالية، لا ينظرون إلى هذا الصَّنيع بأكثر من نظرة سخريّةٍ وإشفاق.

ثمَّ قُلت لمدرّس (العربيَّة) أخيراً:

ذلك هو السّبب في أصل المشكلة!..

أمَّا السرّ الجاثم وراء هذا السّبب، فشيءٌ آخر..

قال: فما هو؟.. قلتُ: حسبك اليوم من هذه المسألة ما قد سمعت، وعليك أن تستدرك ما بقي لديك من الوقت في ضبط هذا النصّ وإتقان تلاوته.

فإذا كان صباح الغد، وفرغتَ من إلقاءِ درسِك، فعد إليَّ لأحدّثك عن السرّ!.



لَيس حِكمَة.. بَل نِفَاقاً!..

مرَّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة، وهو متّجه إلى مكّة، فتلبَّث بها أيَّاماً يسأل عن علماءِ المدينة وعمّن بقي فيها ممَّن أدركوا أحداً من أصحاب النبيّ ﷺ، فإمَّا أرسل إليهم فجاؤوا إليه في مجلسِه، وإمَّا سعى هو إليهم فجلس في دروسهم وحلقاتهم.

وتلك هي سنّة الخلفاءِ والحكّام: يؤمّون مجالس العلماءِ والصّالحين كما يحجّون إلى بيت الله الحرام، إذ كان العلماءُ هم لسان الشريعة الحاكمة، لا يجنحون عنها لهوى، ولا يفصلهم عنها أيّ سبيل، فلا بدَّ للآذان أن تصغي إلى كلامهم، ولا بدَّ للرّؤوس أن تخشع في مجالسهم، وبالخلفاءِ حاجة إلى عطفهم وتأييدهم، وفي نفوس العلماءِ غنى عمّا في أيديهم، فلو لم يبحث الخليفة عن العلماءِ ومجالسهم سعياً وراء مثوبةٍ وخير، لبحث عنهم سعياً وراء مصلحةٍ من مصالح المُلك.

ولمَّا سأل سليمان بن عبد الملك عمّن بقي في المدينة ممّن أدرك أحد أصحاب النبيّ ﷺ، قيل له: أبو حازم[1].

---

(١) هو سلمة بن دينار أحد علماء المدينة السبعة، فارسي الأصل، كان زاهداً عابداً، قال عنه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما رأيت أحداً الحكمة أقرب إلى فيه من أبي حازم. توفي في خلافة المنصور، عام ١٤٠هـ.

فبعث إليه يدعوه لزيارته، فلمَّا انتهى إليه الرّسول وأخبره بالأمر، قال له: ليس لي إلى أمير المؤمنين من حاجة، فإن كانت له إليَّ حاجة فليأت!..

فأتاه سليمان بن عبد الملك ومعه حشد من رجاله وحاشيته. فلمَّا استقرَّ به المجلس نظر إلى الشيخ قائلاً:

ما هذا الجفاء يا أبا حازم؟! فأجابه: يا أمير المؤمنين، وأيّ جفاءٍ رأيت مني؟

قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني!.. فقال له: يا أمير المؤمنين، أُعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل هذا اليوم، ولا أنا رأيتُك.

فالتفت سليمان إلى ابن شهاب الزهري، وكان في مجلس الشيخ، فقال: أصاب الشيخ وأخطأتُ!..

ثمَّ قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنّكم خربتم آخرتكم وعمرتم الدّنيا، فكرهتم أن تنتقلُوا من العمران إلى الخراب.

قال: أصبت؛ فكيف القدوم غداً على الله؟ قال: أمَّا المحسن فكالغائب يقدم على أهلِه، وأمَّا المسيءُ فكالآبق يقدم على مولاه.

فأخذ البكاء بحلق سليمان وراح يُتمتم قائلاً: ليت شعري ما لنا عند الله؟ فقال له أبو حازم: إعرض عملَك على كتاب الله، أوَ ما قرأتَ قولَه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار].

قال سليمان: فأين رحمة اللهِ يا أبا حازم؟ قال: رحمةُ اللهِ قريبٌ مِنَ المُحْسنين.

ثمَّ سأله: أيّ القول أعدل؟ فقال: قول الحقّ عند مَن تخافه أو ترجوه.

قال: فأيّ المؤمنين أكيَس؟ قال: رجلٌ عمل بطاعة الله ودلَّ النَّاس عليها.

قال: فأيّ المؤمنين أحمق؟ قال: رجلٌ انحطّ في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرتَه بدنيا غيره.

فأطرق سليمان طويلاً ثمَّ سأله: فما تقول فيما نحن فيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ آباءَك قهروا النَّاس بالسّيف، وأخذوا هذا الملك عنوةً على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتَلَةً عظيمة. ! فهم أُولاءِ قد ارتحلُوا عنها، فلو تأمّلْتَ ما قالُوا، وما قيل لهم!..

فهبَّ إليه رجلٌ من حاشيتِه قائلاً: بئس ما قلتَ يا أبا حازم!.. فقال له أبو حازم: كذبت، إنَّ الله أخذ ميثاق العلماءِ لَيُبَيِّنُنَّهُ للنّاس ولا يكتمُونه.

وواصل سليمان بن عبد الملك حديثه قائلاً: فكيفَ لنا بأن نُصلح؟ قال: تدَعُون الصَّلف وتتمسَّكون بالمروءة وتقسمون بالسّويّة، وتأخذون من حلِّه وتضعونه في أهلِه.

قال: هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منّا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله!..

فقال له سليمان: ولِمَ ذاك؟ قال: أخشى أن أركن إليكم قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات.

فقال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك. قال تُنجيني من النَّار وتدخلني الجنّة!..

قال سليمان: ليس ذلك إليَّ. قال: فما لي إليك حاجة غيرها.

قال سليمان: فادعُ لي.

فرفع أبو حازم يده قائلاً: اللّهُمَّ إن كان سليمانُ وليّك فيسّره لخير الدّنيا والآخرة، وإن كان عدوّك فخُذ بناصيتِه إلى ما تحبّ وترضاه.

ثمَّ قال لسليمان: قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهلِه فما ينبغي أن أرمي عن قوسٍ ليس لها وتر.

فقال له سليمان، وقد قام ليذهب: أوصني يا أبا حازم. فقال: سأُوصيكَ وأُوجز: عظِّم ربّك، ونزِّهه، أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

فلمّا خرج سليمان بن عبد الملك من عنده، أقبل إليه بعضُ مَن كان في مجلسه فسأله قائلاً: هل لك يا أبا حازم أن تفسّر لنا الحكمة في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥]، وكيف يتأتّى أن يستعمل الحكمة في نُصحه مَنْ يُطلَبْ إليه الجهر بالحقّ أمام مَن يخاف بطشه أو يرجو خيره؟

فقال له الشيخ: لعلّك يا هذا إنما تحسب الحكمة في الدَّعوة أن يسلك إليها الدّاعي سبيلاً يضمن بها سلامة حياته ودنياه. ويتّقي بها ما قد يحذره من فتن الدّنيا ومصائبها!..

فاعلم أنَّ هذا المعنى إنما ينفثه الشّيطانُ في رُوع أوليائه، وبه كان يستعصم المنافقون عن تلبية أمر رسول الله ﷺ لهم بالخروج إلى الجهاد وتحمّل بعض وجوه المشاقّ، إذ كانوا يريدون من الصّراط الذي أُمِروا بالتزامِه أن يوفّر لهم رخاءهم ومعاشهم الدّنيوي، وأن لا يحمّلهم أيّ عنتٍ أو جهد، فلذلك قالوا بعضهم لبعضهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾، وجاء أحدهم

يعتذر عن الخروج مع المسلمين للجهاد قائلاً: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.. وجاء آخرون يقولون له عليه الصَّلاة والسّلام: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

ليست الحكمة أن تسلك بالدّعوة أقرب السّبُل إلى ضمان أمنِك ودنياك، وإنما الحكمة في الدّعوة، أن تسلك بها أقرب السُبل إلى أفئدة النَّاس وعقولهم.

وليست الحكمة حصناً يقي به الدّاعي نفسه ممّا قد يلحقه من البأساءِ والضرّاء، وإنما هي سياسة يحافظ بها على كلمة الحقّ كي تصل إلى مداها من عقول النَّاس ونفوسهم واضحةً سليمةً مُشرقة.

فانظر أنت، ماذا عسى أن تكون الوسيلة إلى المحافظة على كلمة الحقّ أن تصل إلى مداها بهذا الشكل، فإنها هي الحكمة بعينها، ولا عليها إذاً أن توردك المخاطر أو تحمّلك المصائب، أو تعرّضك للنوائب.

ولو ذهبتَ تفسّر الحكمة على الوجه الذي توهّمت، لبطل أن يستقيم أيّ معنى لمثل قولِه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذه الآيات ـ ومثلها في القرآن كثير ـ دعوة صريحة واضحة للمسلمين أن يجعلوا دنياهم مطيّةً للآخرة. وإنما يستقيم ذلك منهم بأن يوطّنوا أنفسهم على التضحية بكلّ ما يملكون من أسباب الدّنيا في سبيل معادهم الأخرويّ.

فإذا حلا لك مع ذلك أن تفسّر الحكمة في كتاب الله تعالى على نحو ييسّر لك أن تجعل منها معتصَماً تأوي إليه، لتتّقي به فتنة الجهاد والابتلاء والتّضحية بالنّفس أو المال، فإنما تزعم بذلك أنَّ على المرء أن يبتغي

بآخرتِه الدّنيا، وأن يؤثر سلامةَ دنياه على سلامة دينه، وأن يبحث عن مرضاة ربِّه في أكنان الدّعة والنّعيم!..

وإذا صدق هذا الكلام ـ والعياذ بالله ـ فلا بدَّ أن يكون قد نزل بذلك قرآن غير هذا الذي أنزله الله على قلب رسوله، وأقامه بهديه في حياةٍ من الفاقة والضّنك والعسر من كلّ وجوه الدّنيا وأسبابها.

قال السَّائل: ولكن أليست الحكمة في الآية تعني على كلّ حالٍ تخالف الشدَّة؟ وهل أمسك عليه الصَّلاة والسّلام عن حرب قريشٍ إذ كان في مكّة إلَّا لأنَّ هذه الآية قد منعته عن ذلك؟

قال أبو حازم: ليست الحكمة ليناً في كلّ حال، ولا شدَّة في كلّ حال، وليس الشأن فيها منوطاً بهذا أو ذاك، ولكنَّ الحكمة هي أن تضع الشيء في مكانه وأن تصله بأقرب أسبابه إليه، ومن هنا كانت الحكمة منهجاً دائماً للنّصح والدّعوة، ولم تكن مرتبطةً بحالٍ من أحوال الدعوة دون أخرى. ومعاذ الله أن يكون الرّسول ﷺ حكيماً في دعوته بمكّة ومجانباً للحكمة في المدينة!..

فلقد كان عليه الصَّلاة والسّلام حكيماً يوم سالم قريشاً ووادعها، وكان حكيماً يوم هاجر من بين أظهرهم متخفّياً، وكان حكيماً يوم قال: أُمرتُ أن أُقاتل النَّاس حتى يقولوا لا إله إلَّا الله، وكان شعاره الحكمة بعينها يوم قال لأصحابه: أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطانٍ جائر. إذ كان منهجه في الدّعوة إلى الله هو أن يضع الشيء في مكانه، وأن يسلك بكلمة الحقّ إلى مداها الذي يجب أن تستقرّ فيه، أقوم سببٍ وطريق.

ولكن انتبه مرَّةً أُخرى إلى قولنا: أَقْوَم سببٍ وطريق، ما الذي يُراد به؟

أهو أقوم سببٍ وطريقٍ يحفظ به الرّجل حياته ويضمن فيه سلامة راحته ودنياه، أم هو أقوم سببٍ وطريقٍ يحفظ به الدّاعي كلمة الحقّ عن الشّتات والضّياع ويضمن لها القوّة والنّجاح؟

ههنا، يجب أن يتنبّه المسلم!.. فعند هذه النقطة فقط يحاول الشيطان أن يلبّس الطّريق، وعند هذه النّقطة وحدها يمتاز جنود الشيطان عن عباد الرّحمن في طريقين مختلفتين متباعدتين.

عند هذه النقطة تجد أقواماً انطلقوا يضربون قباباً خضراء ـ زعموا أنها الحكمة ـ على دنياهم وأسباب معاشهم وراحتهم، كي لا ينتهي الأذى إلى شيءٍ منها بحالٍ من الأحوال. ثمَّ حبسوا أنفسهم تحت هذه القباب عن القيام بأيّ جهدٍ ممّا أخذ الله على عباده موثقاً أن يقوموا به غير متردّدين ولا متقاعسين. واكتفوا عن ذلك كلّه بصرخاتٍ يبعثونها بين الحين والآخر من تحت تلك القباب، لمن قد يستنهضهم إلى الدّعوة، مترسّمين خُطى الحبيب الأعظم ﷺ، صرخات لا تجد فيها إلّا كلمة واحدة تتردّد، هي: الحكمة... التمسُّك بالحكمة... عدم الخروج على الحكمة!..

قال الرّجل: ولكن أفلا يكون إبقاء المؤمن على نفسِه، عن طريق اتخاذ سبيل المجاملة والمداراة، إبقاءً على الدّعوة الإسلاميّة نفسها في كثيرٍ من الأحيان لا سيما إن كان هذا الرّجل صدراً بين قومه في العلم والموعظة والصَّلاح؟..

فتوسّمه الشيخ قائلاً: لعلك إنما تريد بكلامك هذا ما قد أجبتُ به أمير المؤمنين آنفاً، ممّا لم يُرض بعض شيعتِه وأعوانه، ولعلك إنما خشيتَ على شيخِك من غوائل تلك الكلمة التي أجبتُه بها، فخشيتَ أن لا يبعث الله لعباده من بعده من يقوم مقامه في الوعظ والنّصيحة للمسلمين.

فاعلمْ يا بُنيَّ، أنَّ الله قال لرسوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقال له: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾. وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

فأنت ترى أنَّ الله إنما خلق عباده ليسلكوا مسالك العبوديَّة لبارئهم جلَّ جلاله، وليقيموا دنياهم كلّها على هذا الأصل وحده، وإنما الدّعوة إلى الله والنّصيحة للخلق جزءٌ من القيام بحقّ هذه العبوديَّة، ومعاذ الله أن يكون به عزَّ وجلّ حاجة إلى أحدٍ من خلقِه لهداية إنسانٍ أو إرشاد جماعةٍ من النَّاس!..

ومن الخطأ الجسيم أن تحسب أنَّ الله عزّ وجلّ كلَّف أحد أنبيائه أو أي عبدٍ من عباده بإدخال الهداية إلى قلب أحدٍ من النَّاس، فليس ذلك إليهم ولا هو من شأنهم، وإنما الذي كلّفهم به هو أن يقتحموا بأنفسهم وأموالهم أبواباً من الشدائد في سبيل الله عزَّ وجلّ حتى يتبين صدق الصّادقين وكذب المنافقين.

ويا عجباً!.. كيف لا تجزع يا هذا لحال شيخِك غداً يوم القيامة، إن هو تلجلج اليوم في النّطق بكلمة الحقّ خوفاً عن حياةٍ فانية، أو دنيا زائلة، مع أنَّ الذي ينفعه إذ ذاك، كلمة حقّ يخلص في النّهوض بها اليوم، ثمَّ تجزع على مصير النَّاس وهدايتهم من بعده، مع أنَّ هداية النَّاس لم تكن يوماً ما بيد أحدٍ من الأنبياء أو الرُّسل المقرَّبين حتى تكون من بعدهم بيد واحدٍ من عامَّة عباد الله في الأرض!..

وفيم الخوف يا هذا؟.. أما والله ما أحسن عبد فيما بينه وبين الله إلَّا أحسن الله ما بينه وبين العباد. وَلَمُصَانَعَةُ وجهٍ واحد، أيسر من مصانعة

الوجوه كلّها، إنّك إذا صانعته مالت الوجوه كلّها إليك، وإذا استفسدتَ بينك وبينه، شنئتك الوجوه كلّها[١].

وهنا دخل مجلس الشيخ رسولٌ من قبل سليمان بن عبد الملك، وراح يتخطّى النَّاس متَّجهاً إلى الشيخ، فعلقت الأنظار شاخصةً بمرآه، وهي ترتعش بالخوف والقلق على عالم المدينة وزاهدها وواعظها، أن يكون الرّسول قد جاء يتأبّط شرّاً إليه. ولكنَّه لمَّا انتهى إليه، أخرج فأعطاه صرّة فيها مائة دينار، وناوله معها كتاباً من أمير المؤمنين يقول له فيه: أنفقها ولك عندي مثلها كثير.

فردَّها عليه، وأرسل إليه معها رسالةً كتب فيها:

«يا أمير المؤمنين: أُعيذك بالله أن يكون سؤالكَ إياي هزلاً، أو ردّي عليك بذلاً، وما أرضاها والله لك فكيف أرضاها لنفسي؟ فإن كانت هذه المائة ديناراً عوضاً عمّا حدّثْتُكَ به، فالميتة والدّم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلّ من هذه. وإن كان لحقٍّ لي في بيت المال، فإنَّ لي فيها نظراء، فإن ساويتَ بيننا، وإلَّا فليس لي فيها حاجة»[٢].

ثمَّ إنَّ الشيخ عاد فالتفت إلى السَّائل عن الحكمة ومعناها، وأخذ يتمّم له ما كان قد انقطع من الحديث. ولكنَّ الرّجل بدأه قائلاً:

حسبي يا سيّدي... فقد فهمت.

❑ ❑ ❑

---

(١) بعض هذا الذي ذكرناه من نص كلام الشيخ أبي حازم، والكثير منه إنما أدرناه على لسانه إيضاحاً لأصل الفكرة التي نحن بصددها.

(٢) من نص رسالة الشيخ إلى سليمان بن عبد الملك.

مفاتيح النَّصرِ

قال رستم للخاصَّة من أعوانه، وقد هدأ الليل، ورنَّق النّوم في أعين العامَّة من جنده:

ليس الرّأي عندي في دفع هؤلاءِ العرب عن بلادنا: القتال والحرب... ولولا أنَّ الشاه (يزدجرد) أصرّ على أمره لطاولتهم الأمد، ولكفيت دولة الفرس مؤونة الحرب معهم!..

فسأله الهرمزان في تعجّب: وأيّ سبيلٍ هذا الذي سيكفينا شرّهم غير سبيل التأديب بالقتل؟!.. لا يبدو أنَّ أيّ سبيل أُخرى غير هذه ستريح رأس العالم من ضجيجهم.

فأجابه رستم في لهجة تتصنّع التبصّر والهدوء:

لقد كان فيما ورثناه من حِكَم آبائنا أنَّ الشّجاعة نوعان:

أمَّا إحداهما: فشجاعة الجاهل بضعفه المغترّ بطول ظلّه، فتلك هي شجاعة العنز إذ تتنطّح للفيل..

وأمَّا أُخراهما: فشجاعة المتمكّن من أمره الخبير بعزمه، فتلك هي شجاعة الفيل إذ تمرّ من جنب خرطومه العنز.

ولقد كان هؤلاءِ البُداة شاعرين فيما مضى بأمرهم متبصّرين بعجزهم وفقرهم لا تمتدّ أعينهم إلى ما وراءِ خيامهم، حتى إذا خرج فيهم ذاك الذي خدعهم بظلال القول، وأسكرهم بسحر البلاغة، خُدعوا عن حقيقتِهم،

ونسوا ضعفَهم وفقرهم، وانتهى أمرهم إلى مثل ما انتهى إليه أمر العنز إذ قامت لتناطح الفيل، فسعوا إلينا تحدوهم غشية تلك السّكرة، يحسبون أنَّ أُمَّة الفرس قد تبتلعها خيامُهم السُّود، وأنَّ حضارة كسرى قد تكسفها همجيَّة الصّحراء!..

فقال الهرمزان: هذا صحيح، ولكن أترى من سبيلٍ إلى إزالة سكرتهم هذه غير سبيل الحرب والقتال؟

قال رستم: نعم، إنَّ السبيل أن نبصّرهم بحقيقتِهم عن طريق تنبيههم إلى حقيقتِنا.

إنَّ هؤلاءِ لم يجدوا في حياتهم صورة الغنى والسّلطان، ومن ثَمَّ فهم لم يُدركوا بعد خطورة الفقر والانحطاط، وحينما يتاح لهم أن يملؤوا أعينهم بالترف والنّعيم اللذين نسبح فيهما، وأن يفتحوا أبصارهم على المدنيَّة اللألاءة التي نتقلّب في جنباتها، سيرجعون إلى أنفسهم وقد أشفقوا عليها لما هي فيه من مسكنة وفقر، وسترتدّ إليهم أبصارُهم كليلةً وقد أدركوا أنَّ مدنيَّة الذّهب والدّيباج لا تُحارب بحجارة الصّحراءِ وخيامها.

ولقد عزمتُ على أن أُرسل إلى قائدهم في صباح الغد أن يبعث إلينا بعضاً من خاصَّة رجاله لنتباحث معهم في أمر هذه الحرب، وإنما قصدنا من ذلك أن نُطلعَهم على ما يَبهر أعينهم من عظمة دولة الفرس في ثرائها ومدنيّتها وقوّتها. وسيكون هذا القدر وحده من حربهم كافياً لأن تمتلىء قلوبهم بالرّعب ويرتدّوا عن بلادنا خائبين.

فصاح كلٌّ من الهرمزان وجالينوس: هذا والله هو الرّأي، وإنّا لنرجو أن يكون في ذلك ما يكفينا حربهم.

* * *

ومع بزوغ شمس اليوم الثاني، كان يقف أمام سعد بن أبي وقّاص قائد جيش المسلمين في وقعة القادسيَّة، رسولٌ من قبل رستم، يرجوه أن يبعث إليه بعض خاصَّته، ليتذاكر معهم حول ما جاء المسلمون من أجلِه.

فنادى سعد أوّل جندي لمحته عيناه في معسكره، وأمره أن يذهب إلى حيث يُعسكر الفرس فيلقى قائدهم لينظر ماذا يُريد.

والتفت رسول رستم، فإذا هو برجلٍ لا يملؤ شكله العين، لاسيّما إن كانت مثل عين رستم.. لباسه خرقة لفّها حول جسمِه وشدَّ وسطه فوقها بحبل، وسلاحُه سيف ربطه بطرفٍ من ذلك الحبل، ورمح أمسكه بقبضة يده، ورَكُوبه فرسٌ عارية من أيّ زينةٍ وسرج!!.

وكان هذا الرّجل: (ربعي بن عامر) واحداً من عامة الجند في جيش سعد، كأيّ جنديّ تراه اليوم، ليست له أيّ صفةٍ أُخرى فوق ذلك!.

ونظر الرّسول الفارسي إلى وجه سعد بن أبي وقّاص، وقد خامره شكّ في أن يكون هذا الجنديّ البسيط هو مندوب قائد جيش المسلمين إلى رستم!...

ثُمَّ سأله في دهشةٍ: أهذا هو مندوبكم الذي سيقابل باسمكم قائد الجيش؟!...

فأجابه في اقتضاب: أجل، وسيحدّثكم عن كلّ ما تريدون أن تعرفوه.

فازدادت دهشتُه لهذا الجواب، وأذهله أن يكون جنديٌّ بسيط كهذا قادراً على أن يحدّث قائد جيوش الفرس حول جميع ما يُريد أن يعرف مما قد أتى المسلمون لأجله!... ثمَّ ازداد دهشةً وذهولاً عندما رأى الجندي يستوي على ظهر فرسه، ويودّع قائده للمسير دون أن يتلقّى

منه أيّ تعليمات، ودون أن يذكره القائد بأمرٍ ما، أو يهتمّ بتوصيتِه بشيء!!..

ومضى كلٌّ من الجندي والرّسول الفارسي يؤمّان معسكر الفرس.

وفي الطَّريق، كان الجندي المسلم يظلّ مادّاً بصره في اتجاه خطٍّ مستقيم أمامه لا ينحرف به إلى اليمين أو اليسار، شأن من لا يحفل من الحياة كلّها إلّا بهدفٍ عظيم يجثم أمامه فهو يغذّ السّير إليه. وكانت نظراته تدلّ دلالةً واضحةً على أنّه لا يحفل بأيّ شيءٍ من حوله: لا معالم الأراضي الغريبة التي يمرّ بها، ولا مظهر الرّسول الفارسيّ الذي يخبُّ إلى جانبِه مزهوّاً بزينتهِ.

أمَّا هذا، فقد ظلّ يشدّ من زمام فرسه، ليتخلَّف قليلاً عن الجندي.. يدير بصره المرّة تلو الأخرى في هيئته ومظهره البسيطين، ثمَّ يعجب من ملامح العزّ والهيبة التي تأبى مع ذلك إلّا أن ترتسم جليّةً على وجهِه!.

وكان يتأمّل في حيرةٍ: أليس على هذا الجندي المسكين أن تذوب منه النّفس تصاغراً وخجلاً إذ يجد نفسه بثيابه المهلهلة هذه إلى جنب الزّينة التي تُشرق في مظهر رسول رستم، قائد جيوش مملكة فارس؟!.. ولكن يا للعجب!.. ها هي ذي هالة العظمة تزداد من حوله اتّساعاً، على حين لا تُغني زينة العظيم الفارسي عنه شيئاً، ولا يُقاوم بريقها شيئاً من هيبة هذا الجنديّ البسيط!..

وأخذت هذه الحيرة التي ارتسم بها شكل القائد الفارسي الأنيق، تُرغمه على أن يظهر في مظهرٍ آخر: كان يبدو ـ وهو يخبّ إلى جانب الجنديّ المسلم الذي لا يلوي على شيءٍ من حوله ولا يفتأ ينظر بعينٍ حادّةٍ صارمة في الطّريق المستقيمة التي يتّجه إليها ـ أشبه ما يكون بخادمٍ، يسير في قلق إلى جانب سيّده!...

أمّا جميع شاراته وزخرفه فلم يكن شيءٌ من ذلك يدلّ إلّا على المزيد من هيبة الجنديّ وعظمتِه، وكأنما تعالتْ نفسُه عن التعلّق بذلك، فتجاوزه معرضاً وترك غلامه يمتّع نفسه ويجملها منه بما شاء!...

وعلى الرّغم من أنَّ القائد الفارسيَّ كان توّاقاً لأن ينفُذ إلى سبيلٍ للحديثِ مع صاحبِه هذا، فقد كانت الهيبة التي تنبعث عن عامّة مظهره بما في ذلك هيئته المتواضعة جدّاً، تمنعه عن الوصول إلى أيّ منفذٍ للمكالمة والحديث.

* * *

وانتهى الرَّجُلان إلى المعسكر دون أن يحدّث أحدهما الآخر بكلمة.

ووصلا إلى مقرّ رستم.. وكان سرادقاً ضخماً، قد أُقيم في قلب المعسكر الفارسي، يرتفع فوق عشراتٍ من الأعمدة المزيّنة بلفائف الدّيباج الرّقيق، وفُرشت أرضه ببساطٍ فاخرٍ عظيم، وشيت نقوشه الرّائعة بخيوطٍ من الذّهب والفضّة، ثمّ طرّز ذلك كلّه بصورٍ مختلفةٍ من كرائم المجوهرات النفيسة، يحسب النَّاظر إليه أنّه أمام روضةٍ فينانةٍ تزدهي بمختلف أشكال الورود والزهر، لا أمام بساطٍ منقوشٍ فُرشت به الأرض!..

وينتهي طول هذا البساط إلى صدر السّرادق حيث يملؤه عرش مرتفع ضخم، يتربّع فوقه قائد جيوش الفرس: رستم، وقد قام من ورائه وإلى جانبيه حرسه والخاصّة من قادته ومستشاريه، وامتدّت عن يمينه ويساره صفوفٌ متراصّة من الدّهماءِ والجنود إلى باب السّرادق، وقد وقف الجميع راكعين في هيبةٍ وخشوعٍ كأنهم في صلاة!..

وما إن أبصر ربعي بن عامر هذا كلّه، حتى أدرك أنّه إنما دُعي إلى

مقابلةٍ مع هذه الزّينة والرّياش، لا إلى لقاءٍ مع قائد الفرس، وأنَّ القائد الفارسي لن يترجم له إلّا كلام هذه المظاهر، ولن يستلهم حديثه معه إلّا من وحي بريقها، فرأى أن لا بدَّ من الإجابة عن حديث هذه الزّخارف قبل كلّ شيء.

ولقد كان من المحتمل أن يكون جواب الجندي المسلم على حديث هذه المظاهر الأخّاذة، من نوع الجواب الذي يتقدَّم به كثير من الشباب العرب اليوم إلى حديث الحضارة الغربيَّة وبهرجها، وذلك حينما لا ينفكّون عن تقديسها، ولا يستطيعون انفلاتاً عن تقليدها والافتتان بها، وإذاً لكان للتاريخ العربيّ والإسلامي شأن آخر.. وإذن لتصاغر ربعي بن عامر في نفسه ووقف متأدّباً يؤدّي للقائد الفارسيّ مراسيم الحرمة والولاء، ثمَّ عاد أدراجه إلى قومه وهو يقول:

إنَّ حضارة الإسلام لا تستطيع أن تساير أو تقف في وجه التّيار الفارسي الدّاهم الذي يتهادى وسط عبابٍ من ماءِ الذهب والجواهر والاستبرق!.. وإذاً لما كنّا نجد اليوم في سجلّ البطولات الإسلاميَّة اسماً لواقعة القادسيَّة واليرموك.

ولكنَّ الله سلّم.. فما كان شأن ربعي بن عامر كشأن الذين لا يفهمون قيمة الحضارة إلّا في بريق زينتها ولمعان زخرفها وانطلاق شهواتها، بل وقف الجندي العظيم يجيب على حضارة (التلميع) ومدنيَّة الزّخرف والمال، ووقف التاريخ يسجّل، وكان هذا هو الجواب:

نزل عن فرسه في وقارٍ وهُدوءٍ، ثمَّ أمسك بزمامه ودنا به إلى أقرب ساريةٍ من سواري السّرادق العظيم، وعمد فلفّ الزّمام عليها لفّاً محكماً، وشدَّه شدّاً قاسياً حتى تمزَّق ما عليها من حريرٍ ناعم وتقطّع تقطّعاً منكراً،

ثمَّ عمد إلى رمحه فجعل زجّه إلى الأرض، واتجه يمشي نحو صدر السّرادق مقارباً ما بين خطواته متّكئاً برمحه المسنون على فرش الحرير والذَّهب والإستبرق، متعامياً عن بريقِها، متجاهلاً أنها شيءٌ غير حقارة الأرض وترابها، حتى أفسد جميع ما مرَّ عليه. وكان الهدوء سائداً، وكان التاريخ يسجّل في وقع أقدام الجنديّ العظيم هذا الرّد:

إنَّ حضارتنا الإلهيَّة شيء فوق بريق الذهب والاستبرق.. وإنّ الباب الذي فُتِحَ لنا لندخل منه إلى عروش الدّنيا أوسع بكثيرٍ من هذا الباب المادّي الذي لا تملكون غيره.

فرق ما بيننا وبينكم، أنّكم لا تزالون تتيهون في ظُلمات ليلٍ من الجاهليَّة السّوداء، فأنتم لا تُبصرون مِن حولكم إلَّا ضياء هذه الحصباء. أمَّا نحن وقد أشرقت في حياتنا شمس التوحيد، فهيهات أن نبصر من ضيائها إلَّا ما قد يُبصره الإنسان من ضياء النّجوم في رابعة النّهار.

كلُّ قوَّةٍ تزويرٌ وخداعٌ لصاحبها ما لم يكن منبعها القلب، ولا تنبع القوّة من القلب إلَّا بعد أن تعمره العقيدة الرّاسخة الصّحيحة.

وكلّ عزَّةٍ في الدّنيا ليست إلَّا سراباً آيلاً إلى زوال، ما لم تكن قائمةً على أساس العبوديَّة لله، ولا تتمّ العبوديَّة لله إلَّا بعد التحرّر عن العبوديَّة لجميع الأغيار.

وإنما انطلقنا إلى آفاق الدّنيا غير خائفين ولا وجلين، يوم استقرّت عقيدة التّوحيد في أفئدتِنا، وانطبعت سيما العبوديَّة لله على جباهنا، من أجل ذلك جئنا نسير إليكم من فوق سلطان الذّهب والاستبرق، دون أن يكون له إلى نفوسِنا أو قلوبنا أيّ سبيل.

* * *

ولـمَّا وصل إلى عرش رستم، عمد فجلس معه على السّرير! . . فهبَّ إليه الأعوان يجذبونه، فاستوى قائماً وقال لهم:

لم آتكم بنفسي ولكنّكم دعوتموني فأتيت، ولا بدَّ من جلوسي في المكان الذي أُريد.

ثمَّ عاد فجلس في مكانه وعاد الأعوان إلى أمكنتهم واجمين.

وأخذ ربعي بن عامر يقلّب النّظر في صفوف الراكعين عن يمينه ويساره قائلاً: «لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ـ أي العقول الرّاجحة ـ ولكنّي لا أرى قوماً أسفه منكم، إنَّنا معشر المسلمين لا يستعبد بعضُنا بعضاً، ولقد ظننتُ أنّكم تُواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أنَّ بعضكم أرباب لبعض! . . وإنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم، واليوم علمتُ أنكم مغلوبون، وأنَّ مُلكاً لا يقوم على هذه السّيرة ولا على هذه العقول»[1].

وما أن تُرجم هذا الكلام لرستم حتى التفت الدَّهماءُ بعضهم إلى بعض يقولون: «صدق والله العربي! . .».

أمَّا القادة الرّؤساءُ، فقد وجدوا في كلام ربعي هذا صاعقةً أصابت كيانهم فحطّمته، ورأوا فيه النَّار التي أشعلت ثقاب الثورة في نفوس الدّهماءِ والمستعبدين.

وقال بعضُهم لبعض:

«لقد رمى الرّجل بكلامٍ لا تزال عبيدُنا تنزع إليه، قاتل اللهُ سابقينا حيث كانوا يصغّرون شأنَّ هذهِ الأُمَّة».

---

(١) كل ما بين القوسين من كلام أبطال القصة.

ثمَّ التفت رستم فقال لربعي: «ما جاء بكم إلينا»؟

قال: «الله جاء بنا!.. وهو الذي بعثنا لنُخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبِله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه، ومن أبى إلّا الحرب قاتلناه حتى نُفضي إلى الجنّة أو الظّفر».

قال رستم: «لقد عرفنا قصدكم، فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟».

قال: «نعم، وإنَّ ممّا سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن لا نمهل الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن متردّدون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك واختر واحدةً من ثلاث بعد الأجل: الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء ونكفّ عنك وإن احتجتَ إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرّابع، إلّا أن تبدأ بنا قبل ذلك، وأنا كفيل بهذا عن أصحابي».

فدُهش رستم لكلامِه وراح يمعن النّظر في هيئته وشكله، ثمَّ سأله قائلاً: «أَوَسيّدهم أنتَ»؟!..

قال: «لا، بل أنا جنديٌّ فيهم، ولكنّنا نحن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم»!..

* * *

وعاد ربعي بن عامر إلى معسكره.

وعاد رستم في تلك الليلة مع مستشاريه وخاصَّته إلى المناقشة والبحث.. ولم يكن الليل وحده في هذه المرّة هادئاً، بل كان المجلس

أيضاً واجماً حزيناً لا روح فيه.. واضطرّ رستم إلى أن يعترف بالإخفاق.. وعاد التّاريخ مرَّةً أُخرى يسجّل.. وكان يسجّل في هذه المرَّة انهيار حضارة الترف والزينة والقوَّة المادية، أمام حضارة المبادىء والعقيدة والعبودية الحقيقيَّة لله. وكان ذلك حينما انطلق صوت رستم خافتاً ضعيفاً خفيّ النبرات:

«رأيتم كلاماً قطّ مثل كلام هذا الرجل؟!. هؤلاءِ والله يستخفّون بالمال والزّينة واللّباس، وإنما ينظرون إلى العقيدة والرأي والكلام. والله ما قوم أبلغ فيما أرادوا من هؤلاء، ولن يقف أمامهم شيء، فقد ملكوا مفاتيح النّصر»!..

وبعث القائد الفارسي صباح اليوم الثاني يستشير شاهنشاه الفرس إذ ذاك: يزدجرد، فأرسل إليه يحذّره من الجبن والتراخي..

ووقع قضاء الله، ووفّى الله للمسلمين ما وعد.

* * *

وعاد التّاريخ مرّةً ثالثةً يسجّل:

لقد قضت أُمَّة الصّحراء بسلاحٍ من حضارة الإسلام على إمبراطوريَّة الفرس وحضارتها اللمَّاعة التي طالما تعاظمتْ بالقوّة وتباهت بالترف، وتهادتْ وسط عبابٍ من ماءِ الذّهب والاستبرق!..



لماذا لا أكتب في الحبِّ؟[1]

وصلتني رسالة من صديقٍ أُجلّه، يعلّق فيها على ما أكتبه من مقالات وفصول ويعبر فيها ـ مشكوراً ـ عن شعوره وانطباعاته الجميلة نحوها، ثمَّ يقول: إنَّه لا ينقصني لكي تغدو كتابتي ذات روحٍ فيَّاضة، وتأثيرٍ وإشراق، إلَّا أن أصبغها بصبغةٍ أدبيّةٍ عاطفيَّة. . ويسألني أخيراً: لماذا لا أكتب في الحبّ؟ . .

ولقد بدا لي من حديث هذا الكاتب أنَّه يرميني بفقرٍ عاطفيّ أو جهلٍ بلغة الحبّ التي هي وحدها لغة الأدب وروحه اليوم. ولذا فهو يحبّ لي أن أدرسها قبل أن أُصبح كاتباً، وأن أتذوّقها قبل محاولة أن أكون أديباً. . .

والذي أودّ أن أُصارح به هذا الصّديق وسائر أصدقائي القرّاء، هو أني ما تجنّبتُ الكتابة في الحبّ لجهلٍ مني بطعمِه، وما ابتعدتُ بقلمي عن الأدب العاطفي لأني لا أستسيغه أو خوفاً من الإخفاق فيه، وكيف أجهل معنى الحبّ وقد ربا زهرُه في قلبي منذ نعومة أظفاري، وكيف أُنكر طعمه وقد اشتعل أُواره بين ضلوعي منذ كانت هذه الضّلوع ليّنةً غضَّةً لا تحتمل وهجه، ولا تطيق تباريحه.

(١) نُشر في عام ١٩٥٦.

ولقد والله تضلّعت من كؤوسه علقماً وما ذقته مرّةً رحيقاً، وإنَّ في نفسي اليوم لكلاماً طويلاً عنه لو تركتُ للقلم مرتعاً فيه. وإنَّ بين جوانحي لقصَّةً أليمةً فيه لو دخلتُ في غمار سردها على النَّاس!..

ولكني أخشى إن تحدَّثتُ عن هذا الحبّ كما أعرفه وأُقدّسه، أن لا يصل إلى أسماع النَّاس إلَّا وقد أفسده وباء هذا المجتمع وشوَّهه سوءُ اعتباراته، فيفهمه النَّاس على غير ما أُريد، ويأخذونه إلى سبيل الشرّ والانحراف.

أخشى أن أتحدَّث عن الحبّ فيتقدَّم أُناس في قلوبهم مرض ويتّخذون حديثي عنه لبنةً يزيدونها في صرح الدعوة إلى المجون باسم الحبّ، وإلى هدم مقدّسات الدِّين والخلق باسم الأدب والفنّ.

أخشى أن أتحدَّث عن الحبّ فيحسبني النَّاس (مُعيداً) لدروس هذه الأفلام.. التي تعلّمهم معنى ذلك الحبّ الذي لا يترعرع إلَّا من خلال كأسٍ، وليلٍ، وإثم.. ولا شأن له إلَّا هدم البيوت وتشتيت الأسر وإشاعة الفجور، هذه الأفلام التي ينسجها أُناسٌ متعطّلون متسكّعون، يتمرّغون في أموال النَّاس التي امتصّوها منهم لقاءَ الشرف الذي يفسدونه عليهم، والجراثيم التي ينفثونها بينهم، تُصغي بأُذنك إلى أخبارهم وصخب حياتهم، فلا تسمع عنهم إلَّا أخبار الحبّ والفراق والزّواج والطّلاق، هذا قد ارتطم بهوى تلك فهو متعلّق من كلّ دنياه بها، وتلك قد طار عقلُها عند ذاك فهو لا يبرح حديثَها ونغمة لحنها... وآخر قد تفنَّن في ارتشاف الكأس كما يريد حتى ملّها، فحطّمها في الأرض ثمَّ مضى باحثاً عن كأسٍ أُخرى وحبٍّ جديد.

أمَّا هذا المجتمع وآلامه.. أمَّا هذه الأُمَّة ومشكلاتها.. فهم عن ذلك كلّه في شغلٍ شاغل، وكلّ تلك الآلام والمشكلات شيءٌ لا يمسّ خاطرهم من قريبٍ أو بعيد.

أُولئك ـ وايم الحقّ ـ هم أفيون هذه الأُمَّة وداؤها، وعثرتها وبلاؤها، يتوارون عن سوئهم باسم الرّسالة.. والفنّ.. والتّمثيل.. ولو عقلوا وفهموا لأدركوا أنَّ خير رسالةٍ، وأجمل فنٍّ، وأحسن تمثيلٍ، إنما هو في أن يرجعوا إلى أُمَّتِهم فيقاسموها آلامَها ويعينوها في جهادها، ويقعدوا بين إخوانهم مواطنين صالحين يعرفون ما لهم وما عليهم من حقوقٍ وواجبات.

ثمَّ ماذا أكتب يا صاحبي عن الحبّ، ولو ذهبتُ أكتُبُ فيه مجلداتٍ واسعة لما فهم النَّاس من ذلك كلّه إلَّا الحبّ الذي يعيش في تصوّرهم وأحلامِهم.. شهوات داعرة، يُطلقون عليها اسم الحبّ ظلماً وزوراً.. وحيوانيَّة هائجة يغلّفونها بأرقّ ألفاظ العواطف والحنان، حتى يكون لها بذلك رمز يفصلها عن غريزة البهائم، ولو نطقت البهائمُ لاختارت هي الأخرى لغرائزها أرقَّ ما يعرفه القاموس من ألفاظ الحبّ وتعابير العواطف والوجدان.

إنّني على استعدادٍ لأن أكتُبَ فصلاً أُضمنّه أشجى وأسمى خفقات القلوب المعذَّبة، وأُترجم إليه نجوى السرائر والأرواح، تحت جنح اللّيالي الحالكة؛ حيثُ يكون أدعياءُ الحبّ إذ ذاك يتمرَّغون في أوحالٍ من الشّهوات الآسنة، ولكن ما أكتبه في ذلك سرعان ما ينقلب نشيداً شهوانيًّا رخيصاً في أفواه أُولئك الأدعياء.

فلمن أُنشد ومن أحدِّث؟.. ولستُ أُبصر من حولي أيّ سامرٍ يفهم عني ويشاركني في شُعوري، وإنما الكلّ متطوّح سكران بكأسٍ أُخرى غير تلك التي طار عندها لُبِّي.. وبلذعها أينع وجدي وحبِّي.

دعني يا صديقي، أتلو نشيدي عندما أقبع في محراب من الغربة أُناجي به ليلاً ساجياً، لا تسمعني فيه إلّا أُذن الظّلام، ولا يلحظني إلّا العيون اللألاءة في السّماء.

وليرمني قارئٌ مثلك بما يسمّيه الفقر العاطفي أو الجهل بالحبّ؛ وليتّهمني بذلك ما طاب له الاتهام.

فإنّني حقًّا أجهل لغة هذا الحبّ.. ولن أتعلّمها أبداً ما دمتُ أعلم أنَّ القلب الذي يخفق بين جنبيَّ شيءٌ آخر غير الشّهوات التي تعتلج في نفسي.



الدِّين والحُبّ

ثم شاء الله أن أكتب في الحب.. فكان أن قمت بترجمة تلك المأساة العاطفية (مموزين) وأوليتها الكثير من إحساسي وعميق وجداني، ولما خرجت بها على النَّاس، أقبل إلي عندئذ من ينكر علي ذلك. ويسألني لماذا أكتب في الحب!...
وسبحان من جعل النَّاس يسلكون طرائق قدداً. وجل من قضى أن تكون مرضاة النَّاس كلهم غاية لا تدرك. والحَكَم العدل أمام كل تناقض وعند كل مفترق طريق إنما هو الدِّين، فكتبت عندئذ هذا الفصل في بيان موقف الدِّين من الحب.

وهل عليَّ مِن حرجٍ إن تحدّثتُ في الحبّ؟..

ربما توهّم بعض النَّاس ذلك!.. فأنا لا أزال أذكر يوم أن ترجمتُ تلك القصَّة العاطفيَّة (مموزين) وخرجتُ بها على النَّاس، وهي قصَّةٌ ليس فيها من الحبّ إلَّا أنينه وآلامه، وسموّه وعفافه، فقد انهال عليَّ يومها، إلى جانب عبارات الإعجاب كثيرٌ من كلمات النّقد والعتاب.

وعجبتْ طائفةٌ من النَّاس، وراحت تتساءل: كيف يستقيم أن يكتب الإنسانُ في دقائق الفقه والأصول، ثمَّ ينقلب فيكتب في رقائق الشجو والحنين؟. وقال قائلٌ منهم: شيخ، ويتكلّم في الحبّ؟!..

وأجمعتُ العزم إذ ذاك على أن أكتُب فصلاً في هذا الصَّدد، فقد رأيتُ أنَّ هذا التعجّب أو الاستعظام ليس إلَّا واحدة من النّتائج الكثيرة لما استقرّ في أذهان بعض النَّاس من صورةٍ غير صحيحةٍ عن الإسلام!..

ثمَّ عرضتْ لي شواغل صرفتني عن كتابة هذا البحث، ثمَّ إنِّي نسيتُ الحادث ومرَّ زمنٌ طويل، فلم أكتُب شيئاً.

وفي هذه الأيَّام، ذكَّرني شابٌّ من النَّاس بما كنتُ قد عزمتُ على كتابتِه من قبل، وسألني سؤالاً جدَّد في نفسي العزمَ على نشر ما قد كنتُ طويتُه في نفسي ولم أكتبه. ورأيتُ أن أجعل من حديثي مع هذا السَّائل وجوابي له، مقالاً أكتبه في هذا الموضوع.

سألني الشابّ، بعد أن استوثق أنِّي لن أضيق ذرعاً بسؤاله:

ما رأي الإسلام في الحبّ؟..

فقلتُ له: عليك أن تصحّح صيغة السُّؤال أولاً، فإنَّ الإسلام ليس رجلاً من النَّاس، ولا هو تأليف رجلٍ من النَّاس، حتى يكون صاحب رأيٍ وفكر فيما يقرّره ويرتئيه. وإنما الإسلام مجموعة الأحكام الإلهيَّة التي ألزم الله عزّ وجلّ بها عباده قضاءً مبرماً لا خيرة لأحدٍ من النَّاس فيها.

ولو كان ما ينطقُ به الإسلام من الأحكام رأياً، لكان لكلّ رأيٍ آخر أن يتكافأ معه في النّظر والبحث، فما كانت الحقيقة لتتبدَّى ظاهرةً لرأي عاقلٍ واحد، وتتستر محتجبةً عن عقول الآخرين.

وما أظنّك يا هذا إلَّا متأثّراً ـ من حيث لا تشعر ـ بتلك الكلمة التي صاغها خبيثٌ متقصّد، وراح يختم بها على آذان النَّاس في حديث إذاعيّ متكرّر، وهي كلمة (رأي الدِّين)، وذلك كي تنصقل في آذان النَّاس،

فتنفذ منها إلى عقولهم، فيستقرّ فيها من حيث لا يشعرون أنَّ أحكام الإسلام إن هي إلَّا آراء إنسانيَّة من السّهل جدّاً أن تُقرع بآراءٍ مثلها.

فهي كما تقول: رأي علم الاجتماع كذا.. ورأي الفلسفة كذا.. ورأي علم الطبيعة كذا.. وللدّين أيضاً رأي بين هذه الآراء. وهو كذا!!..

ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك.

إنَّ الدِّين الحقّ إنما هو خطاب خالق الكون كلّه، للنّخبة الممتازة من مخلوقاتِه آمراً وناهياً ومقرّراً. وهيهات أن يُقارَع شيءٌ من ذلك بنقدٍ أو برأي، إذاً لكان للرّأي أن يُقارع شيئاً من قضاءِ الله في خلقِه، فليس هذا إلَّا مثل ذاك، وما كلاهما إلَّا مظهر لعبوديَّة الإنسان لمالكه وخالقه جلّ جلالُه.

ثمَّ قلتُ للسّائل: وإنما ينبغي أن تكون صيغة سؤالك:

ما هو حكم الإسلام في الحبّ؟

قال: فهذا ما قصدتُه، وإنما سبق لساني إلى الصّيغة الشّائعة كما قلت.

قلتُ له: ولكنَّ الإسلام لا حكم له في الحبّ، أرأيتَ إلى الإسلام هل يحكم بشيءٍ على الكراهية والحزن والخوف والجوع؟.. فهو أيضاً لا يحكم بشيءٍ على الحبّ.

وبيان ذلك أنَّ أحكام الإسلام إنما هي عبارة عن التكاليف المنوطة بالعباد من إيجابٍ وتحريمٍ وندبٍ وكراهيةٍ وإباحة. وهي إنما تتعلّق بما يصدر عن الإنسان من أفعال اختياريَّة، لابما استكن فيه من انفعالاتٍ ومشاعر قسريَّة. ومعلومٌ أنّ الحبّ من جملة الانفعالات القسريَّة التي لا سُلطان للإنسان عليها.

ألم تسمعهم يقولون: الإسلام دين الفطرة؟

قال: بلى. قلت: فهذا الذي سمعته إنما هو من وصف ربّ العالمين له في مثل قولِه جلّ جلاله: ﴿... فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ومعنى كونه دين الفطرة، أنَّه يلبِّي كلّ حاجات الإنسان وتطلّعاته وأشواقه الأصيلة، في صورةٍ من العدل والاستقامة والتّنظيم، أي إنّه لا يكبت في الإنسان شيئاً من مشاعره وانفعالاته ووجدانه، ولكنَّه يعلّمه السّبيل الأمثل إلى معالجتِها والاستجابة لها.

فالإسلام لا يقولُ لك في شيءٍ من أحكامه: لا تجع، أو لا تكره، أو لا تحِبّ، ولكنَّه يقول لك: إذا جعتَ فلا تسرق، وإذا كرهتَ فلا تظلم، وإذا أحببتَ فلا تنحرف.

ثمَّ إنَّه يضع أمامك لمعالجة الجوع، مشروعيَّة الكدح والعمل من أجل الرّزق. ويضع أمامَك لمعالجة الكراهية، نظام العدل والمقاضاة في الحقوق. ويضع لمعالجة ما تلقاه بين جنبيك من لواعج الحبّ قانون النّكاح والزّواج.

ومن هنا تعلم أنَّ الإسلام لا يحاسب الإنسان على شيءٍ من هذه المشاعر والانفعالات التي جُبلت عليها النّفوس، ولكنَّ الإسلام إنما يُحاسب الإنسان على ما قد يجترحه من أفعالٍ غير مشروعة بسائق تلك المشاعر والانفعالات.

غير أنَّ هذا كلّه ليس إلَّا جزءاً من الجواب عن سؤالك، وتتمّته أن تعلم بأنَّ ما قلتُه لك لا يعني أن تعرّض فؤادك لعواصف الحبّ وصواعقه

المحرقة، ذلك لأنَّ التسبّب إلى شيءٍ منه داخل في جملة الأفعال الاختياريَّة التي تستطيع أن تسيطر عليها، لا في جملة الانفعالات التي لا قبَل لك بها.

ومشاعر الحبّ والعواطف في كيان الإنسان، أشبه ما تكون بسراجٍ يتّقد في غرفةٍ بليل، فإن أطفأت السّراج انقلب المكان إلى ظلامٍ موحشٍ دامس، وإن بالغتَ في رفع الذّبالة ومدّ لسان اللّهب، تحوّل السراج المضيء إلى نارٍ محرقةٍ قد تُحيل الغرفةَ كلّها إلى ألسنةٍ من اللّهب!..

وإنما يكون الحبّ في فؤاد الإنسان بمثابة السّراج المضيء إذا كان الإسلام قد هذّب كيانه وأقامه على صراطٍ من الاعتدال الذي شرعه الله له، فلا هو يضرب على نفسِه نطاقاً من الحرمان والقسوة المتجانفين عن هدي الإسلام، ولا هو يمدّ اليد والعين إلى كلّ ما يلوح أمامه من مظاهر المتعة والأهواء ويذهب نفسه حسراتٍ وراءها.

ثمَّ إذا كان المجتمع من حوله، مهذّباً هو الآخر بآداب الإسلام، كان هذا السراج المضيء في قلبه دليل سعادةٍ غامرة، تموج بعبير الزّهر والرّيحان، لا تشوبها أشواك دامية ولا آلام كاوية. وإنما يبغي الإسلام من وراء ما يشرعه من تهذيبٍ للفرد والمجتمع تحقيق هذه السّعادة التي لا يمكن أن تتحقّق إلّا باتّباع منهجه وحكمه.

أمَّا إن لم يكن المجتمع من حوله متسماً بآداب الإسلام ومتقيّداً بحكمه، فإنَّ له من عقيدته الجاثمة في قلبه وعباداته التي تملأ رحاب وجدانه، ما يضمنُ له السّموّ فوق مغريات المجتمع ومفسداته، ويعينه على التقيّد بنظام الإسلام وحكمه.

على أنَّ ذلك السراج المتّقد من وراءِ ضلوعه، قد ينفث فيها بين

الحين والآخر ضراماً كاوياً وآلاماً مبرّحة، وقد تمتدّ منها إلى قلبه خفقات تذهب بنوم عينيه وراحة فكره. ولكن اعلم أيها السّائل أنَّ مثل هذا الحبّ ما التقى في القلب مع عقيدةٍ مسلمةٍ صادقة، إلّا كان لصاحبه منهما مزيج من السموّ الرّوحي العجيب، يكسبه نشوةً ورضاً، يجدهما من خلال دمعِه السّاخن، ويحسّ بهما ضمن آهاته الصّاعدة.

وما هذَّب الإنسانَ شيءٌ مثل هذا الحبّ؛ وما بصّره بأسرار الرّوح شيءٌ مثل تباريحه ولواعجه الكاوية!.

وكم في النّاس من تعساء، إذ حيل بينهم وبين تطلّعات حبّهم، ولكنّهم مع ذلك عاشوا سعداء بالحبّ نفسه!..

معذّبون.. يقطعون هدأة اللّيل في حسراتٍ كاوية تُشفق عليهم منها النّجوم في سمائها البعيدة، ولكنّهم أسعد بذلك العذاب من النّائم الذي يغطّ مستغرقاً في أحلامه الرّائعة!..

هائمون.. لا يفقهون من شدو العنادل في الخمائل والرّياض، إلّا رجع الأنين المنبعث من صدورهم، ولكنّهم أطرب لما يسمعون من أُولئك الذي يصغون بآذان ملؤها اللهو والمرح.

وهل في الدّنيا كلّها عذاب أبعث على النّشوة من عذاب الحبّ؟..

وهل سمع النّاس عن نارٍ تنشر كلّما اتقدت مزيداً من عبق النّعيم غير نار الحبّ؟..

أو لم تسمع بقيس العامري، يوم أن ذهب أبوه إلى بيت الله الحرام، بعد أن استيأس من ليلاه وحيل بينه وبينها، رجاء أن يدعو لنفسه بالشّفاء من حبّها فيجابَ دعاؤه، فلمّا صار عند الكعبة، قال له أبوه: تعلّق بأستار

الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حبّ ليلى. فتعلّق بأستار الكعبة ولكنَّه قال: اللَّهُمَّ زدني لليلى حبًّا، وبها كلفاً، ولا تُنسني ذكرها أبداً!.

ثمَّ قلتُ للسّائل:

ولكن إيَّاك أن تخطىء فتحسب أنَّ هذا هو الحبَّ الذي يتحدَّث عنه كثير من أدعياءِ الأدب اليوم في كتاباتهم، والذي يمثّله الممثّلون في أفلامهم، ويتهامس به كثيرٌ من الشبّان والفتيات في خلواتهم.

إنَّ هؤلاء أبعد ما يكونون عن المعنى الذي ذكرناه، وإنما الحبّ في حسابهم شيءٌ لا يتجاوز خائنة الأعين وتقلّباتها.

إنهم إنما يفقهون من الحبّ، ذاك الذي يتسلّل حيث عيون الشرف والدِّين غافلة، ويختفي حيث تبدأ قداسة الشّريعة وروح الزّواج!..

والحبّ عندهم، كلمات منمّقة تُصاغ منها شبكة صيدٍ توضع كلّ أُسبوعٍ في طريق ضحيّةٍ جديدة!..

فلو تجسّد هذا الحبّ، لما رأيته تمثّل إلَّا في أقبح ما يمكن أن يُتصوَّر فيه الكيد والظّلم والامتهان!..

فإن كنتَ عن هذا الحبّ تسألني، فاعلم أنَّه ليس إلَّا مكيدةً مقنّعةً جاءت تتسلّل في مظهر انفعالٍ متألمٍ خافق؟. وأين هذا ممّا قد وصفتُه لك؟..

الحبّ، الذي يشدو به كثيرٌ من النَّاس اليوم، ليس إلَّا كلمةً غاض كلّ ما قد كان فيها من الفضائل، وتجمّع كلّ ما لم يكن فيها من الرّذائل.

كان الحبّ سرّاً من أسرار القلب يربِّي فيه فضائله، ويحوط بالحفظ

كمالاته، ويغرس في النّفس بذور الرّحمة والإنسانيَّة بعد أن يقتلع منها جذور الأثرة والأنانيَّة. فكان بذلك خيرَ مهادٍ لبناءِ الأسرة، وأفضلَ روحٍ لتضامن الأُمَّة، وأقوى زنادٍ لتفجير ينابيع الحكمة، وإذكاءِ شعلة الأدب.

أمَّا اليوم، فقد غدا الحبّ سرّاً من أسرار (التعرّي) يثير في النّفس غرائزها، ويقتلع من الرّوح فضائلها. ثمّ إنَّه قد أصبح عرضةً للسّلب والنّهب، تجد بواعثه في كلّ سكّةٍ وشارعٍ وزقاق ومزدحَم!.. وبذلك أصبح أسوأ مدمرٍ لكيان الفرد والأُمَّة، وأَعظم خطرٍ على بناء البيت والأسرة.

وما قد يصفه لك بعضُ أرباب هذا (الحبّ)، من لواعجه وآلامِهِ، إنما هو من نتائج الغيرة الطبيعيَّة في الإنسان، وليس من نتائج الحبّ المزعوم في شيء.

وإنما تتسعَّر الغيرة بين جوانح أحدهم، بسبب ما ذكرناه من أنهم يمارسون حبّاً قد أصبح عُرضةً للسّلب والنّهب، في جوٍّ من التحلُّل الذي لا تردّ فيه يد لامس: تبتسم الفتاة لصاحبها الأوّل فترةً قصيرةً من الوقت تظللهما خلالها أجنحة الأحلام، ثمَّ ما هو إلَّا أن يُفاجأ بها تبتسم لخليلها الثاني، فيلتفّ سُعار الغيرة على قلبه وتُقيمه اللّواعج دون أن تقعده.. ثمَّ يمضي ينشد في حالِه الشعر، ويبعث من صدره الأنين، ظانّاً أنَّه إنما يعاني من برحاءِ الحبّ المتأجّج في قلبه، وهو إنما يعاني من آلام الغيرة النَّابعة من سوءِ مجتمعِه.

وما أعظم الفرق بينهما لمن يعلم!..

عذاب الحبّ، يسمو بالكيان الإنساني كلّه إلى صعيدٍ من النّشوة الرّاضية، يتنفّس المحبّ فيها بالدّمع، ويتغنّى بالألم، ويطرب بالوجد،

وهو لهذا يُعتبر أرقّ لحنٍ عرفه المجتمع، وأبهى زهرةٍ فاحت في أرجائه.

وعذاب الغيرة، يحبس صاحبها في مضيقٍ خانق، يعصر القلب بالحقد، ويملأ الرّأس بأخيلة داكنة من الكيد ومظاهر النّقمة والإجرام، وهو لهذا يعتبر وباءً في المجتمع، وشؤماً في طريقه، وخطراً على سعادة أهله!..

قال السائل، وقد لمعت عيناه ببريقٍ من الخبث المتأدّب:

أراكَ يا سيّدي خبيراً ودقيقاً في هذا الباب!..

قلت له: الحمد لله الذي هو أهلٌ للمحامد كلّها، على كلّ حال، وأشكره شكر عبدٍ أيقن أنَّه مملوكٌ له في السّراءِ والضرّاء...

ونظر إليَّ الشاب ينتظر مزيداً من الشّرح، فقلتُ له:

حسبك ما قد سمعت!...



مناجاة قلبٍ كَسير

في ليلة طويلة ظلماء، ساقني الكرب إلى أعتاب الخالق عز وجل. وهناك، لقيت من الأنس أضعاف ما أملته من دنيا النَّاس وشؤونهم. فغمرتني نشوة الذل لقيوم السماوات والأرض، وفاض القلب بهذه النجوى:

. . . وكيف يكون كسيراً وأنت النّور الذي يشعّ في حناياه، والأمل الذي يخفق به ويعيش عليه!..

بل كيف لا يكون كسيراً، وقد ذلّ لعظيم سلطانك، ودان لسابق حكمِك وقضائك!..

بلائي به، محض العبوديَّة لك، والتجاؤه إليك، محض رعايةٍ وتوفيقٍ منك. فلأيهما أدين بالشّكر، وعلى أيهما أبذل التحمّل والصّبر، وأقسى ما في كلّ منها نعمة منك لا أستحقّها، ويد جميلة لا قبَل لي بأداءِ شكرها.

مولاي: لئن نسيَتْني أفراح الدّنيا، فإنَّ عزائي بما فاتني منها عظيم ما ألقاه من الأنس بذاتك، والأمل في رحمتك. ولئن أبكتني صروف الليالي والأيَّام، فإنَّ عزائي معها بكائي على أعتاب لطفِك وبين يدي ربوبيّتك. وشتّان بين دموعٍ اعتصرتْها الآلام من العيون، ودموعٍ استجابتْ

لذلّ العبوديَّة فانحدرتْ تبكي لمن خلق الوجد في القلوب، وأودع الحرقة في الدّموع.

* * *

مولاي: أأشكرك على ما أوليتني من نعمة الصّبر على البلاء، أم أشكرك على ما أوليتني بذلك من سعادة القرب إليك ولذّة المناجاة لك؟..

جلَّت حكمتك يا سيّدي، وصدق ما قاله الواصلون: إنَّ في كلّ جلالٍ جمالاً، وفي كلّ ابتلاءٍ منَّةً ولطفاً. وهل في اللُّطف ما هو أعظم من انصراف العبد إليك، وتحوّله عن الأغيار إلى ملازمة بابك الكريم.

إلهي، أيّ شيءٍ يوحشني من الدّنيا فقده، بعد أن رأيتُك أمامي، وأنستُ بك في سرّي وجهري؟.. بل أيّ منّةٍ منك أعظم وأجلّ من أن تزيح عني حجاباً كان قد شغلني عنك، فشُغلتُ بك عنه بما أكرمتني من الاعتصام بك والتضرّع إليك؟..

أجل يا سيّدي.. لقد ذهب موسى عليه السّلام ليقتبس ناراً، فعوّضتَه عن ذلك بعظيم نجواك!..

نعم إنَّ القلب قد يتألم، ولكن ما ألذَّ الألم الذي يُذيق صاحبَه طعم العبوديَّة لك، وحلاوة الرّضا بحكمك!..

* * *

ولكني يا مولاي، أجدني قد تطاولتُ بهذا القول إلى مكانةٍ ليس لي شرف الدنوّ إليها. وما أنا ـ وحقِّك ـ في المنزلة ممّن يحسن بهم أن يقولوا: عذّب بما شئت غير البُعد عنك...

إنني يا مولاي عبد إحسانك وفضلك، أفرّ من كلّ ضائقةٍ إلى ظلال رحمتِك، وأرتمي هارباً من كلّ بلاءٍ أمام أعتاب جودِك.

حسبي أن أتعلّق في الخوف من كل كربٍ بنجوى أحبِّ خلقِك إليك: «ولكنّ عافيتَك أوسع لي».

وبدعاءِ نبيّك الكليم: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وبنداءِ رسولك الصّابر الأوّاب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وكيف لا أتعلّق بفضلك وأطمع بعافيتك، وأنت الذي لم تُقصني عن مائدة إحسانِك في يومٍ من حياتي، ولم تقطع عني وابل رحمتك في لحظةٍ من عمري؟!..

أم كيف أركن إلى البؤس والضّيق، وأنت الذي عوّدتني العطاء، ونشّأتني في ظلال الرّخاء؟!.

أعوذ برحمتِكَ التي غمرتَ بها وجودي كلّه، من أن تبدل بها شدّة لا قبَل لي بها، أو بلاءً لا صبر لي عليه.

* * *

إلٰهي، سألوني عن وجودك، فقلتُ لهم: متى عرفتم أنفسكم رأيتموه، ولولا ضلالكم عن كينونتكم لما افتقدتموه.

إنَّ الذي ينظر إلى العالم ذاهلاً من وراءِ منظار، جديرٌ به أن يفتقد منظاره ولا يراه، ومهما أدار عينيه فيما حوله فإنّه لن يعثر عليه، حتى يهتدي إلى ذاتِه ويتحسّس المنظار القائم أمام عينيه.

وسألوني عن أقدس سرٍّ من أسرارك، فقلتُ لهم: إنَّه القلب!.. يخفق ويحسّ، ويحنّ ويئنّ، في عالمٍ لا تطوله فيه يد المال والمتاع، ولا الصَّنعة والخداع، ولا الدّنيا وزخرفها، أو المادّة وقيمها!..

عروش الدّنيا وممالكها، وبطشها وسلطنتها ـ كلّ ذلك أقلّ من أن يقاوم خفقةً من خفقات قلب محبّ!..

ونعيم الدّنيا وأفراحها، ولهوها ولذائذها ـ كلّ ذلك أقلّ من أن يخلق لمعةَ فرحٍ في قلبٍ حزين!..

يمضي النَّاس في معالجة مدنيَّاتهم وحضاراتهم، ويتسابقون إلى دنياهم وملاذّهم، وتبقى هذه القلوب الخفّاقة فوق ذلك كلّه، لا تطوّرها يد الحضارة، ولا تغيّرها آثار المدنيَّة.

فهل في أسرار ما صنعه الخالق شيءٌ أقدس وأعجب من القلب.

* * *

وسألوني يا مولاي عن أبدع مخلوقاتِك وأجمل آثارك، فخرجتُ بهم أجتلي مغاني الرّبيع!..

ولمَّا توسطنا السّفوح الخضر، وهي ترتج وتموج بما انبسط فوقها من أفانين الخضرة الفاتنة، والرّياحين العطرة، والأزاهير التي تذوب وراءَ جمالها العين ـ ناديت بأعلى صوتي: فانظر إلى آثار رحمةِ الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها!..

انظر إلى آثار رحمة الله، كيف بدّلتْ وحشةَ الأرض أُنساً، وحوَّلت جدبها اخضراراً، وأخرجت من قسوتها رقّةً تثمل بها النفس، وفتنةً ينتشي بها القلب!...

بالأمس كنتَ تنظر إلى هذه الأرض وهي بلقع تلفّها وحشةُ اليأس، واليوم تبعث العينَ فيها وإذا هي تفيضُ حياةً ونضاراً، وتزدان برونق الأمل!..

بالأمس كان يُبصر فيها العاشق الملتاع صدى لوحشتِه وعذابه، واليوم يجلس إليها ليتخذ منها نجيّ أشواقه، وسمير آلامِه، ومبعثَ آماله.

أجل.. فانظر إلى آثار رحمة الله، كيف يحيي الأرضَ بعد موتها!..

* * *

مولاي، هل كان فيما أبدعه صنعكَ هذا، ما بين شتاءٍ وربيع، إلَّا صورة رائعةً أبرزتَ فيها بعظيم إبداعِك، كيف يتحوَّل اليأس المحرق إلى أملٍ خافقٍ منعش، وكيف تُنشَّأ الحياة المضيئة من جوف ظلامٍ ميّت!..

جلَّت حكمتُك وعظمتْ رحمتُك يا مولاي، متّعتَ أعينَ العُشاق بالورود الحمراء، وأنطقتَها لهم بلغةٍ من الجمال تتقاصر عنها لغةُ الكلام، حتى يكون لهم من ذلك عزاء عن الجمال الذي افتقدوه، وسلوى عن الأمل الذي خسروه!..

أنعشتَ نفوسَهم بعبق الرّياحين وعطر الزّهور، حتى يغسلوا أفئدتهم بها من غبار الكآبة وألم الهجران!..

أقمتَ لهم من مرأى الخمائل، بكل ما زينتَها به من فتنةٍ وجمال، نديماً يسامرهم، وجليساً يؤنسُهم، ونجيًّا يتأثّر لأنّاتهم ويتمايل لآهاتهم!..

وأبدعتَ لهم ذلك كلّه، يا مولاي، من جوف أمّهم الأرض!..

ألا بوركتِ أيّتها الأرض، مصدر سلوى لأبنائك الذين لا تزال الحياة تحرّكهم على ظهرك، وليزِدك الله رحمةً بنا وحناناً، يوم يعيدنا الرّدى منكِ إلى الأعماق.

* * *

ورأيتُ يا مولاي، أشتاتاً من النَّاس يسرحون ويمرحون خلال تلك الآثار كما تسرح الدّواب والأنعام!.. وقد اتخذوا من دونكَ حجاباً، وجعلوا من نعمائكَ شغلاً لهم عنك، ومن عطائكَ سبباً لكفرانهم بك!..

رأيتُهم يسجدون للمرآة التي يسطع فيها خيال الشّمس، وهم عن وجود الشّمس وحقيقتها غافلون!..

ورأيتهم قد فُتنوا بعبق الرّياحين، وصور الورد والزهر والياسمين، ولكنَّهم عموا أو تعاموا عمن أبدع الرّائحة في العطر، وخلق النشوة في الخمر، وأخرج الورود من أكمامها، وفجّر الخضرة من جذورها!..

ورأيتُكَ يا مولاي تشملهم جميعاً بالمنّة والعطاء، وتوليهم جميعاً الرّحمةَ والنّعماء، تلك هي رحمتك بمن قد نسيكَ وتاه عنك، فكم هي رحمتك، ترى، بمن عاش يرقب فضلك ويستمطر جودك وإحسانَك؟!..

* * *

أيتها الرّياض النّضرة!..

أيتها الورود النَّاعمة الضّاحكة!..

أيتها الرّوائح المسكرة العبقة!..

لشدّ ما يطربني وينعشني أن أجدني غريقاً فيما بينكم، ملفوفاً بتحنانكم، ولكني ما انتعشتُ منكم بشيءٍ أكثر من الأمل!..

الأمل!.. أقرؤه في تماوج العشب مع الرّياح السَّارية، وأجده في انبعاث روائح منعشة شتى من تلك الورود النّضرة، وأسمعه من حفيف الأغصان وتصفيق أوراقِها الرّقيقة الخضراء.

أجل.. إنه الأمل الذي صوَّرته يد الخلَّاق، إذ أنبتكم من طوايا أرضٍ مظلمةٍ جامدة؛ أبدع حياة الأرض من موتها، وأخرج زينة الدّنيا من كآبتِها، وأظهر أرقّ ما في الكون من قسوته وصلابته!..

يا من استوى في خلقه الأمل واليأس، وتلاقى في تقديره الموت مع الحياة!..

يا منشىء النّور من الظّلام، ومبدع الفرح من الأحزان!..

يا من هذا سرّ لطفكَ وطعم إحسانك وحنانك؟..

يا إلهي، كيف أيأس إذاً وأنت ربِّي، أم كيف لا يُنعشني الأمل وأنت حسبي؟!..



أميـرة[1]:
الحلم الذي طاف بكياني اثنين وأربعين شهراً

أميرة:

يا أجملَ حُلْمٍ طاف بكياني اثنين وأربعين شهراً.

يا سنا برْقٍ أوْمض في حياتي من عَلْياء الجنان.

---

(١) هي زوجتي التي نكبتُ بفقدها في غضون عام ١٩٧٥، وتغشاني من ذلك كرب شديد.
ثم إن الله عز وجل مسح بيمين لطفه مصاب قلبي، ولطف بي لطفاً يتيه القلم عن وصفه، وعوضني عن مصابي خيراً، وغمر حياتي وقلبي بكل معاني السعادة والسرور. وإنّي لمدين بشكر عظيم لإلهي الجليل الذي كان ابتلاؤه حكمة وعطاؤه رحمة، وهو مع هذا وذاك مالك الأمر كله.
ولعل من الخير ـ تحدثاً ببعض النعمة ـ أن أكشف النقاب عن بعض مظاهر اللطف العجيب بي، إبان نزول تلك المصيبة:
كنت خلال مرض زوجتي كثير الالتجاء إلى الله، وما ليلة إلّا وأسهر كلها أو جلها في بكاء وتضرع ودعاء. وذات ليلة، سمعت في الرؤيا هاتفاً يقول لي: ماتت أميرة!.. واستيقظت مذعوراً، وتَفَلْتُ ـ كما هي السنَّة ـ على الجانب الأيسر، وتحولت إلى الجانب الآخر. فما إن أخذ عيني الرقاد، حتى رأيتني في المكان ذاته. ورأيت فتاة تقف أمامي خلف نافذة، مكشوفة

أميرة:

يا اسماً غدا آخر زهرةٍ أملكها في واحتي المصوِّحة، وجنَّتي المقفرة، يا بقيةَ نعيمي المدبر، ويا ذكرى خميلتي الغنَّاء، ويا شفق شمس دفنها المغيب.

الشعر والوجه واضحة الشكل والمعالم، وسمعت الصوت نفسه: هذه زوجتك، مذيعة!..

وتوفيت زوجتي بعد ذلك بثلاثة أيام، وبعد مرور أشهر على وفاتها، كان في قضاء الله عز وجل أن تُعرَض علي فتاة أخرى.. ولما رأيتها، إذا بي أنظر إلى الوجه ذاته الذي أبصرته في الرؤيا بمعالمه وملامحه وشكله!.. وكما تقبلت قضاء الله بوفاة الأولى، قبلت شاكراً إكرامه لي بهذه الثانية. وقلت لها من بعد ـ وقد أخبرتها بالرؤيا العجيبة: أمَّا الزواج فقد رأيت مصداقه، فما معنى: مذيعة؟ قالت: لعل الله يكتبني من الداعيات إليه.

ألا، فليزدد المؤمنون بربهم إيماناً، وليتحرَّر ولو الوعي السديد من بقايا تبعيتهم الذليلة، وليؤوبوا من رحلة الضياع إلى رشد معرفة الذات والاصطلاح مع خالقهم ومولاهم عزَّ وجل وليّ كل نعمة ومصدر كل رحمة.

أما هذه الكلمة التي أخرجها اليوم بعد أكثر من عشر سنوات من ملف أوراقي الخاصة، والتي لم يطلع عليها إلَّا ثلة من أخصّ الأصدقاء والأحباب، فإنما يحفزني إلى نشرها ووضعها بين أيدي القراء، غيرة بالغة على قطعة من النثر أودعتها أعزّ مشاعري وخلجات قلبي، وصقلتها بأغلى ما أملكه من صلة ما بين جناني ولساني، وهو صدق الشعور وعفوية التعبير، أن تذوي مع الزمن ثم تضيع في داخل الأدراج.

أما الحادثة فقد طويت... وأما المصاب فقد أبدلني الله عزَّ وجل عنه خيراً.. وأما هذه الكلمة، فقيمة فنيَّة باقية، لمن شاء أن يرى لها هذه القيمة، وتخليد لوفاء جيل عمرُه الدهرُ كله، ثم إنها عبرة كبرى لكل من أراد أن يعتبر.

أميرة:

هذه شهور ستة مضت على اليوم الذي أسدل فيه الموتُ بيني وبينكِ الحجاب، ولا تزال كآبة الدنيا في وجهي وحول قلبي كما هي. . لم يُغلِق الهمُّ دوني بابه، ولم يفتح الأُنسُ أمامي نحوه من سبيل.

ـ لا تزال دنيا النَّاس من بعدِكِ غريبةً عني، ولا يزال ضوضاؤها يلسع فؤادي كأنه قهقهة الشامتين.

لا تزال جراح قلبي، تتنزَّى بالألم وتغرق في اللَّهب. لم يطفئها كرُّ الغداة ولا تقادُم الأيام، ولم يخفف من لظاها وطأة اليأس، ولا نسيم الأمل، ولا هاجس الأحلام. .

لقد عادت الدنيا من بعدِكِ تدور دورتها، وتسير في دربها، كأنَّ شيئاً لم يقع! . . .

لا تزال الشمس تطلُّ كل يوم من خلف دارنا كما كانت، ولا تزال تبعث الأشعة نفْسَها من خَصاص النَّافذة إلى الجدار المقابل. . حتى إذا جنحت نحو مغيبها اصفرَّتْ ذاويةً كعادتها، ثم لملمتْ أذيال نورها واحتجبت خلف الهضاب.

وصفحةُ السماء في الليل، لا تزال من بعدك كما هي، ولا تزال كواكبها المنثورة التي لا تُحصى يخفق بياضها في سواد الليل الحالك، كحبَّات الماس التي كانت تخفق فوق خملة (فستانك) الخمريِّ الجميل.

والربيعُ. . لقد عاد الربيع من بعدك دون أي اختلاف عن ربيع عامنا الفائت، يوم كنا نتمرغ فوق سندسه تحت أزهار المشمش والخوخ في البستان الممتد أمام بيتنا الصغير، ويوم كنا نستنشق معاً فَوْحَ بساطه الملوّن على سِيف البحر في طريقنا إلى اللاذقية! . .

لم يختلف شيء من ذلك كلّه من أجل طول بكائي، ولم تذبل زهرةٌ واحدة منه في ضرام أشجاني.

وطيورُه الصادحةُ كعهدِك بها تماماً، لم ينقطع تغريدها، ولا اختلفت أنغامها، ولم يظهر لأحزاني أي أثر متميز في شدوها وتغريدها الذي تعرفين.

والبنفسجُ الذي تحبيِّن، والزنبقُ الأصفر البرِّي الذي جمعتِ لي منه باقةً من بين غابات كَسَب، لا يزال كلٌّ منهما يفوح بالرائحة نفسها دون أي نقص أو اختلاف.

ونقيق الضفادع في الساقية المجاورة، عاد مع الربيع الجديد، يوقظ النَّائم مع تباشير كل فجر جديد، في ترنيمة جماعية صاخبة كما تعهدين.

والنَّاس.. النَّاس والأصدقاء الذين اكتأبوا لمُصابي ولِبسُوا سيما الحزن في وجوههم من أجلي، خلعوا سيماهم بعد ساعات، وانفضَّت عني جموعهم وانصرف كلٌّ إلى شأنه ودنياه.

حتى الأقربون من أهلِك، بَكَوْا أو تباكَوْا لي حيناً من الوقت، ثم ما كادت جعبة ذاكرتهم تفرغ من عبارات الحزن والآلام، وما كادت ألسنتهم تملّ من تكرارها حتى عادوا هم أيضاً (فيما بينهم) إلى لهوهم وأفراحهم، وعادت لياليهم، كما كانت، عامرة بالمآكل الشهية والأسمار العابثة، أمَّا الحديث عنك فقد أصبح واحداً من الأرقام في قائمة الأحاديث التي تمتّع بها النفس ويُزجَى بها الوقت.

لقد تابع الزمنُ مَساره من بعدكِ كما كان، وتابع النَّاس معه رحلتهم الصاخبة خلال الحياة، وبقيتُ وحدي الغريبَ بينهم، المتخلِّفَ عن رَكْبِهم، الشاردَ عن سبيلهم.

تشرق الشمس، فلا أراها إلَّا مدبرةً عني، كاسفةً عن بصري، فإذا غربت ودَّعتني بلحن صامت يضرب في أغوار نفسي على قِيثارة الموت، ويمتزج بحشْرَجة الأنفاس الشاردة لحظة الوداع.

ويُقْبلُ الربيعُ، بخضرة مروجه، وفَوْح زهوره ورياحينه، فلا أرى في ذلك كله إلَّا ما يذكِّرني بربيع أيامي معك، ويعيدني إلى عبير الدنيا في أنفاسك، ويمرّغني على شاطىء سندسيٍّ خلاب من دنيا عينيك الخضراوين.

وأنظر إلى الغادين والرائحين في جوانب الأرض، والمنغمسين في لهوهم وأفراحهم، والمتعانقين سعياً وراء أمانيّهم وغاياتهم، فلا أجدني إلَّا كضائع بينهم، غريب عن أحوالهم، ولا أحسُّ في ضجيجهم المرح العابث إلَّا بمثل ما يحسّ به المعذّب إذ تتعالى من حوله صيحات الشامتين.

أسير معهم في الطريق الذي يسيرون، وأتقلب معهم حيث يجتمعون ويتجالسون، ولكن كما تسير سحابة صيف، وسط رياح لاهبة ساخنة، أو كما يتقلب غصن من بقايا الخريف بين أمواج تتدافع في عُرض البحر.

لا أرى الدنيا، إنْ ضحكت أو اكفهرَّت، إلَّا مغموسة حولي بالكآبة والسواد، كأنها لا تزال حبيسةً في عمر ذلك اليوم الذي شيَّعتُ فيه أحلامي إذ أودعتُكِ داخل صندوق ثم دفنتك تحت ركام من التراب! . . .

* * *

أميرة:

لم يبق لي من نعيم دنياي بعدكِ، إلّا الذكريات التي تشدُّني نحوكِ والبقايا التي تنتمي إليك.

النَّاس يفرُّون من ذكريات مصائبهم وأحزانهم، إلى أسباب المرح والنسيان، أمَّا أنا، فلا يطيب لي إلّا أن أفرّ من أسباب المرح والنسيان إلى ذكريات مصائبي وأحزاني.

لا يؤنسني إلّا الحديثُ عنكِ، ولا يطربني إلّا استرجاع أيامي الخوالي معك.

وماذا يصنع من افتقد أنيس حياته سوى أن يستأنس من بعده بالآثار ويترامى بين الأطلال؟...

ماذا يفعل من افتقد ريحانة قلبه سوى أن يشمّ من بعدها عبير التربة التي نبتت فيها، ويستنشق الهواء الذي كان يطوف من حولها؟...

ولكني افتقدت من بعدك ـ يا أميرة ـ حتى بقاياك التي رجوت أن أركن إليها وأستأنس بها...

(فساتينك) التي تحكي قدّكِ الرائع، لم أعد أعلم شيئاً عنها، ولم يعد لعينيّ من سبيل للاكتحال بها، ولا لرئتَيَّ الظمآنتين من حيلة لاستنشاق عطرها والاستغراق في أريجها.

شجرةُ الرمان التي طالما أظلتنا أغصانها، في أيامنا الأولى، وشجرة الياسمين التي طالما شربنا النشوة تحت ظلالها، والورود الباسقة الحمراء التي كانت تقرأ تحيات الطبيعة إلينا، وتترجم فرحة الدهر لنا، لم أعد أعلم ـ واحرّ قلباه ـ عنها شيئاً.

وباب داركم الذي كان ينفتح أمامي كلما أقبلت زائراً، عن وجهك المشرق البسّام، لم تبق لي من وقفة عنده اليوم. . .

وهكذا انقلبت جنتي التي عرفتك فيها إلى دار غربة لا تتعرَّف عليّ، واستحالت الدنيا التي عرفتها ينبوع أمل وكنز سعادة إلى قفل كبير وسجن قاتم، يصنع المزيد من آلامي، ويزجّني في مزيد من الغربة عن أيامي!. . . وعادت دنيا الوفاء مهجورة كعادتها، إلّا من بقايا. . وصور. . وأطلال. .

غير أني سأتخذ من هذا العالم المهجور مهجعي وقراري، سأجعل منه ساحة العهد، لا أفارقها إلى يوم اللقاء. لن أخيس بصداقة كل من صادقتهم في سبيلِكِ، أهلاً كانوا أو رحماً أو جيراناً.

سأطوِّف حول داركم وإن لم أدخل إليها، وسأستنشق هواءها غادياً ورائحاً، مشرِّقاً ومغرِّباً.

سألتقط الجميل، لا أذكر غيره، وسأتوّج حُب قلبي بنار من الصبر.

إن بكَيْتُ، فسَقيًا لأطلال تلوح في دنيا الوفاء.

أو تألمتُ، فجزعاً من أن يُنسخ الجميل الباقي بعَرَض دنيا فانية.

أجل. . لقد نفضتُ يدي ـ يا حبيبة دنياي وآخرتي ـ من بقاياك. ولكن بقيةً غالية لا أزال أملكها، إذ لم يضنّ عليّ أهلوك بها. . .

إنها أغلى ما يذكرني بريحانة روحك، ويمزجني بدافىء حبك وَحنانك.

إنها رسائلُك. . أوراقُك. . تلك القُصاصات، التي كنتِ تستودعينها صادِقَ حبك لي. مناسباتٌ لم تَدعي واحدة منها تمر، حتى تجسّدي منها صفحة ناصعة تثبتين عليها بأرقّ العبارات أرق العواطف الجياشة وأعذب كلمات الحب والهُيام.

هذه الأوراق هي كنزي الثمين من بعدك، إنني أحتفظ بها في صندوق صغير مضمَّخ بالعطر..

إنني أرتّل نجواك، وأردد كلماتك الباقية لي من بعدك، في محراب خلواتي، مع دموع قدسيَّة لذيذة، يكرمني الله بها، ويرحم بها وجيب قلبي الخفاق.

إنني أقرأ سطورك بعيون مشاعري وإحساسي، فأبصر فيما بينها روحك الوادعة الرقيقة تحنو عليّ حنوَّ الأم على وحيدها، وتجذبني عن نار آلامي لتضمّني إلى جنة فؤادك الخفاق.

يا حبيبتي الخالدة:

هل كنتِ، وأنت تخطّين لي بأناملك الرقيقة أروع آيات البيان عن مشاعر قلبك المحب، تمنحينني زاداً من عُصارة حبك الوردي، أتبلّغ به في دروب وحشتي من بعدك؟...

هل همسَتِ الأقدارُ في إحساسك ـ يا مليكة أرهف حسٍّ رأيتُ ـ أنك ستصنعين لي من حبّك أحرّ نار تكويني من بَعْدِك، وأنك لن تعيشي لي عُمرَ حبِّكِ الطويل، فأوْدعتِ في مهاد هذا الحب ترجمانك الخالد، وطرَّزْتِه بكلماتك الحلوة، وتوّجته ببيانك الرائع الرقيق؟...

يا له من مهد عذْبٍ أليم!...

يا للضلوع المتسعّرة على جنباته!...

يا لفؤادي الهيمان وسَطَ جنة ناره!...

* * *

أميرة:

ترى هل أُحدِّث فيكِ وهماً، جسَّدته في خيالي أصداءُ ماضٍ طواه بئر الزوال؟...

أم أناجي فيك حقيقةً تراني ولا أراها، وتدركني دون أن أجد سبيلاً لرؤيتها أو الشعور بها؟...

معاذ الله!...

لقد علمتُ فيما درستُ من معارف الحياة الإنسانية، وأيقنتُ بعد إيماني الجازم بالله وبكتابه ورسله، أن هذا الذي نسميه موتاً إنما هو اليقظة الكبرى.. إنما هو شعورٌ متكامل يخضع لأحكامٍ وموازينَ غيرِ التي تخضع لها حياتنا الدنيوية اليوم!...

هو، فيما نرى، من هَدْأة الجسم بعد حركته، وانطفاء سر الحياة فيه بعد اشتعاله والتماعه، عدمٌ تحكُمُ به العين، وزوالٌ يقضي به الإحساس.

ولكن هيهات أن تكون منافذُ الحس، في هذه الحياة الإنسانية، محيطة بسر الحياة أو بدائرة الروح.

إن الحواس الإنسانية أثرٌ من آثار هذه الحياة الدنيوية الضيقة، وفرع صغير في أغصانها الكثيرة، فكيف يكون الفرع محيطاً بحقيقة الأصل عليماً بنهايته ومصيره؟..

إن الموت ليس إلَّا لحظة انطلاق وتحرُّرٍ للروح من ذلك القفص الجسدي الذي كانت حبيسةً فيه، وإنْ بدا أنَّه لحظةُ خمود وإقفار في حساب ذلك الجسد نفسه.

ومن يدري؟ . . لعل الأموات يمارسون حيويَّتهم وانطلاقهم في جوانب الكون، أكثر مما نمارسها نحن الذين أثقلتنا هياكل هذه الأجساد! . . .

من يدري . . لعل هؤلاء الذين نسميهم أمواتاً يمرون على مقابرنا الجسمية، فيلحظونها بنظرة إشفاق على الروح الحبيسة في داخلها، ويدْعون لها بانبعاث قريب إلى عالم الأحياء! . .

لقد عرفتُ كل هذا، يا حبيبتي، يوم منحني الله عقلاً حررته من التبعيات والأغلال، ووهبني إيماناً أقمته على بيِّنات العلم ونواميس الوجود.

وإيماني هذا، هو العزاء الوحيد الذي يمنحني نعمة الصبر على سعير ابتعادي عنك.

أنا أعلم علم اليقين أن الموت لم يطحنك بين شدقي العدم، ولكنه انتقل بكينونتك الذاتية من عالَم إلى آخَر. كلُ الذي أسدله الموت بيني وبينك، هو حجُب المقاييس والقوانين المتغايرة.

وإنني على يقين أننا سنلتقي . . سأنفذ إليك من الباب الذي سبقْتِني إليه، ولسوف تعود قصة حبنا من جديد.

هذا إن أكرمني الله بخاتمةٍ تُرضيه، وإلّا فواكبدي للنذير الرهيب الذي يصرع اللب: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ويومَ يفقد المُحب الصادقُ نعمة هذا الإيمان، ثم يضرب الموت بينه وبين حبيبه بسوره الرهيب الذي لا مردَّ له، فإن جميع مُبْهجات الدنيا لا تبلغ أن تكون عزاءً له. بل لا بدَّ له أن ينتهي إلى إحدى نتيجتين: جنونٍ مطبق، أو انتحارٍ مُريع!...

غير أنَّ هذه الحقيقة مهما كانت واضحةً، فإنها لا تحطِّم شيئاً من رهبة الموت في نفوس الأحياء.

أمَّا أنا، فإن شيئاً واحداً حطّم هذه الرهبة في نفسي ومحاها من كياني، ألا وهو الأنُس الذي شاع في حقيقة الموت، بعد أن حَلَلْتِ في عالمه الغريب.

لقد كان الموتُ في عيني شبحاً رهيباً، فإذا هو اليوم كائن جميل، ولقد كان وادياً أجرد موحشاً، فإذا هو اليوم واحة رائعة غناء.

لقد غدوتُ من بعدكِ مَلَّاحاً غريباً تائهاً، تتقاذفني أمواج حياة دَكْناء، أرقبُ اللحظة التي تلوح لعينيَّ فيها بارقة نور يهديني إلى شاطىء الموت.

كلُّ ما أخشاه أن تزلّ بي قدمٌ إلى ما لا يرضي مالكي العظيم جل جلاله، فأتنكَّبَ بذلك عن سبيل السعادة، ثم أُقبلُ على الموت بخاتمة تقصيني عن رحمة الله، وتضرب بيني وبينَك حجاباً لا أملك اختراقه، وتلك هي الشِّقْوة التي تُذيقني غصَّة الموت والحياة.

إنني لشديد الخوف من هذه العاقبة!..

ولستُ أملك ضمانة تحفظني منها، إلَّا الأملَ برحمة الله.

إنني لا أتصوَّر أن يقسو عليَّ مولاي إلى هذا الحد، مهما كنت شارِداً عن سبيله، مُقصِّراً في القيام بواجباته.

إنّ ظني به أنَّه سيحوطني برعايته وإن لم أكن لها أهلاً، وإنِّي لمتعلق بعد ذلك بقوله: «أنا عند ظنّ عبدي بي»[١].

أملٌ آخر، لا يغيب عني نُوره، ولا أزال أستنشق الأنس في بريقه، وأعيش في طمأنينةٍ من روحه.

إنه بعض كلماتك النورانية في رسائلك الباقية الخالدة لي من بعدك، إنه هذه الشذرات:

«يا منية النفس.. وتوأم الروح.. وأنشودة القلب.. يا سعيد.. جعلك الله سعيداً في الدنيا والآخرة، سعيداً في حبك، سعيداً في حياتك، وجعلني سرَّ سعادتك الدنيوية والأخروية، بل النبعَ الذي تُروِي به ظمأك، والدَّوْحَ الذي ترتاح إليه نفسك، والمنارة التي تضيء لك الطريق.. الطريقَ إلى الله.. طريقَ الحب الرباني لِنَسِر معاً لنصلْ إلى شاطىء الأمان، شاطىء السلامة.. سرِّ المعرفة الربانية، ولنرتشف معاً الحب الإلهي الخالص.

سعيد: يا أسعد أيامي بقربك، إنني أنْظُر إلى المستقبل، وألمح بارقاتِ الأمل تتراءى مُبْتَسمةً من بعيد، لأن الله جل وعلا هو الذي ربط بين قلبينا بأوثق ما يكون الرباط، وكلَّله برحيق المحبة والهناء، ورزقنا المودة الأبدية في الدنيا والآخرة..».

إنني لأظن ـ يا حبيبتي ـ أن روحك الوادعة الجميلة، لا تفتأ تدعو لي بهذا الدعاء:

---

(١) حديث قدسي صحيح.

«جعلك الله سعيداً في الدنيا والآخرة، وجعلني سر سعادتك. . .».

وأنتِ في مقام القرب من مولاك، في مقعد صدق عند مليكك الكريم الوهاب. وإنَّ هذا لَبَعضُ حق الوداد فيما بيننا.

وإنني على يقين أنَّ ما كنتِ تلمحينه من بارقات الأمل، إنما هو المستقَرُّ الأبدي السعيد الذي هيأه الله تعالى لنا في أكنافِ رحمته وتحت ظل غفرانه ولطفه، كشَفَ الله عن سريرتك سبيلاً لشهوده ورؤيته.

ولكنّك تجاوزت مخاطر هذه الدنيا وأهوالها، بخاتمة يغبطك عليها الصدِّيقون[١]، وبقيتُ من بعدك أتقلّب في طياتها، وأجدّف عني أخطارها، في دروب حالكة لا عاصم فيها إلّا رحمة الله.

فيا نور السموات والأرض، يا من يجير ولا يجار عليه، يا من أنقذ خليله من نار نمرود، أنقذ عبدك من سعير هذه الدنيا، ويسِّر له في أكنافها سبيلاً إلى خاتمة ترضيك. اِملأ بقية أيامي في هذه الحياة رضاً بل سعادة بحكمك، وسخّرني في كل لحظة منها لخدمة دينك. ثم اختم حياتي بأحب الأعمال إليك حتى ألقاك وأنت راضٍ عني، يا أرحمَ رحيمٍ، ويا أكرم مسؤول.

* * *

أميرة:

قيل لي: لقد ماتت، فروِّض فكرك بعد اليوم على نسيانها. فإنَّ تعلُّق الحي بالميت سعي باطل لا حصيلة له!. .

(١) كانت آخر كلمة قالتها وهي تلفظ أنفاسها: الله.

ولا والله، ما طرقَتْ سمعي كلمةٌ ـ مما قيل لي في باب التعزية والسلوى ـ أشد من هذه الكلمة ولا أوحش.

معاذ الله أن أكون قد شربت من محبتك كأساً بلغتُ بها الثُّمالة عند الموت!. . . ومعاذ الله أن يكون الموت عندي إلّا تصعيداً لهذا الحب وتكريراً لرحيقه.

ما أحببتُ فيك مجرد قدٍّ معتدل وشكل جميل، ولقد منحك الله منهما الشيء الكثير.

وما فُتِنْتُ منك بمجرد أنوثة مما يهفو إليه الرجال، على أنك كنت تُقْبلين إلي من ذلك بفنّ وتُدبرين بفنّ.

ولكن الذي علّقني بك فوق ذلك كله، إنما هو صفاء روحك، سمّو إحساسك، إشراقَةُ قلبك.

أحببتُ فيك حبك الرائع لمولاك العظيم جل جلاله.

أحببتُ فيك الليالي التي كنتِ تساهرينني فيها بأنوثة عارمة، وحبٍّ مولّه لا مزيد عليه، حتى إذا اعتدل الليل ليمضي، ورنّق النعاسُ في العين، وهفا الجنب إلى مضجعه ـ جافيتِ جنبَكِ عن المهاد، وتسللتِ إلى الغرفة المجاورة، وقمتِ تناجين محبوبك الأعظم بعيون ملؤها الدمع، ثم ركعتِ فأطلتِ بين يديه الركوع، وسجدت فأطلت على أعتابه السجود.

أحببت فيك حنينك إلى الله.

أحببتُ فيك أشواق قلبك ورقة شعورك.

أحببتُ فيك الذكْر النَّابض بين كل عشية وضحاها على لسانك.

أحببتُ فيك القلب الذي كنتُ أسمعه يخفق في هدأة النوم فأرى لسانك يتجاوب معه بذكر الله.

ألا سَلِمَتْ يدُ تلك الصِّدِّيقةِ التي غرسَتْ في فؤادِك وفؤادِ أترابِكِ هذا السرَّ الإلهي العظيم.

أحببتُ فيك النهاية.. تلك النهاية التي تَوّجْتِ فيها عمر شبابك الغضّ بلحظة قدسية أخيرة اهتزّ لها سمع الزمان والمكان، عندما قلت بملء فمك الجميل: الله.

مثل هذا الحب، يولد ميلاداً جديداً بالموت.

ومثل هذا الحب يتلظّى سعيرُه من جديدٍ إذا دخله تاريخ الموت.

يا رفيقة الدرب في حياتي وموتي.

يا أنيسة العمر، شبَحاً وروحاً في عالم الأحياء، وسرّاً روحانياً عظيماً في عالم الأموات: أما إنَّ موتك زادني حُبًّا على حب، ولسوف يبقى حبي لك في ازدياد، حتى يتمم الله فضله، وتحين ساعة اللقاء.

وبعد...

هل تذكرين يا أميرة، يوم كنتِ تسألينني أنْ أكتب إليك فصلاً أشرح فيه مكنون حبي لك، وأصوِّر فيه عواطفي نحوكِ، وكيف كنتِ تتلطفين لي بعرض هذا الرجاء بأسلوبك العذب الرقيق؟

يا للندامة!.. لقد تثاقَلْتُ يومها عن النهوض بتحقيق هذا الرجاء، معتذراً بأن الرسائل إنما تكتب في حال البعاد. وما دام اللقاء موفوراً فإن حديث اللسان أعذب وأقوى في البيان مما تخطه الأقلام.

واكبدي!.. لقد أورثَتْني هذه القسوةُ أمام ما كنتِ تتلطفين في رجائه، ناراً هي اليوم لا تنفكُّ تفري فَرْيها الشديد في أحشائي.

لقد كان في قضاء الله أن تتأخر استجابتي لسؤالك إلى هذا اليوم.

فاقبلي يا حبيبتي رسالتي هذه إليك وإن جاءت متأخرة، وليكن شفيعي أن ما أنفقت مع كتابتها من دموع، تعدل ما استهلكته عليها من مداد.

استلميها مني بطريقتك الجديدة، في عالمك الجديد، بعد أن كتبتُها بطريقتي القديمة في عالمي البلقع المهجور.

وموعدنا في شرح غوامضه والتعليق على أسراره يوم اللقاء.



لغَةُ الحبِّ عند ذوي العشق الإلهي

وهل للحب غيرُ لغة واحدة؟

وكيف يكون للحب أكثرُ من لغة، والحبُّ في حقيقته واحدٌ لا يتعدد؟

قد يتعدد المحبوب، وقد يتنوع، ولكن الحبَّ يظل على كل حال واحداً في جوهره ودوافعه وآثاره.

وأقصى ما يمكن أن يعرَّف الحب به، أنَّه تعلق القلب بالمحبوب، على وجه الاستئناس بقربه والاستيحاش من بُعده، على أن الحب قد يتفاوت قوة وضعفاً مع تفاوت درجة الاستئناس والاستيحاش، بل قد يشتد بصاحبه حتى يصل إلى درجة الصَّبابة والسكر.

أمَّا الدوافع إليه، فلا تخلو أن تكون جمالاً أو إحساناً يحرك في المحب عواطفه الدافعة، أو أن تكون كمالاً وسموّاً يهيِّج فيه عواطفه الممجِّدة، أو أن تكون جميعَ هذه الصفات مجتمعةً، وأياً كان المحبوبُ الذي اتجه إليه وتعلق به القلب، فإن الحب لا يأتي إلَّا بسبب من هذه الأسباب الثلاثة.

ولا ريب أن هذا الكون يفيض بصور الجمال، متمثلةً في مظاهر الأشخاص الحية، وفي أشكال الطبيعة الجامدة. كما أنَّه يعجُّ بمعاني الإحسان وصفات العظمة والسموّ، متجليةً في أخلاق وصفات كثير من النَّاس وكثير من مظاهر الطبيعة.

غير أنَّ هذه الصور والمظاهر كلها، إنما تفيض عليها تلك الصفات من أصل ومعين واحد، فهي كالفروع والأغصان التي تراها كثيرةً متفرقة في منظورها السطحي، ومتجمعةً متحدة في جذعها الواحد المستقر.

فالجمال في مصدره الذاتي، إنما هو جمال الله وحده، فاض مظهره وتجلّت أشكاله على شتى النماذج والرسوم..

والإحسان إنما هو إحسانُه وفضلُه وحده، أبرزه الله في شخص من شاء من عباده الذين هم في الحقيقة خَدَمُه وجنودُه..

والكمالُ والسموُّ وسائر صفات العظمة والجلال والكبرياء، إنما هي صفات الله وحده.

وما ظهر شيء منها في شيء من مخلوقاته إلَّا كما يظهر رجْع الصَّدى إذ تنفعل به أبهاءُ قيعانٍ واسعةٍ، أو تتجاوبُ به أنحاء وادٍ سحيقٍ.

فالعالَم كله ليس إلَّا منفعلاً بمظهر الجمال والجلال، والفاعل له والمتصف به إنما هو الخالق الواحد الأحد.

ثم إن النَّاس في تأثرهم بهذه الصفات فريقان:

فريقٌ وقف أمام المظاهر والصور التي برزت فيها تلك الصفات، فتعلق بها وحبس إحساسه وعواطفه في رسومها وأشكالها، فتفرق حبُّه موزعاً بين تلك المظاهر والفروع الكثيرة المتنوعة، وغدا قلبه ممزقاً بينها حبيساً في دائرتها، تتقاذفه منها سجون لسجون، ولا بدّ للواحد من هذا الفريق أن ينتهيَ من دَوَرانه معها وتمزُّقه فيما بينها إلى نوع من الدُّوار العاطفي والتيه الشعوري، ثم إلى تعب لاهث وحَيْرة قاتلة.

ومن أبرز خصائص هذا الفريق من النَّاس أنهم نظروا إلى الخلق وأعرضوا عن الخالق، وتعاملوا مع الكون دون أن يلتفتوا إلى المكون،

وأُعْجِبوا بالصنعة دون أن يتذكروا الصانع؛ فبقيت عواطفهم ومشاعرهم حبيسةً في قيعان تلك الأكوان، يختصونها بحبهم ويمنحونها وحدها هتافهم وتغزُّلاتِهم.

أمَّا الفريق الثاني، فذاك الذي بدأ فتعرف على هوية الأكوان من خلال مكوِّنها، وعرف ذاته من خلال عبوديته ومملوكيته لله وحده.

وهؤلاء شأنهم كعامة النَّاس: تهتاج عواطفهم لصور الجمال وأشكاله، وتتأثر لمظاهر المنن والإحسان، وتنبهر بمعاني السموّ والجلال، إذ هي فطرة أودعها الله ـ لحكمة ـ في أفئدة عباده كلهم. ولكنهم يربطون بقرار من اليقين العقلي بين هذه الفروع وجذورها، ويوصلون السواقي والجداول والأنهر بمعينها، فيستدلون بالأكوان على المكون وبالصنعة على الصانع وبظاهر القدرة والعظمة على العظيم القدير.

غير أن أكثر هذا الفريق الثاني يقفون من هذه الحقيقة عند القرار العقلي وحده، أمَّا عواطفهم وأهواءُهم فتظل خاضعة لتيار الصور الكونية وبريقها الأخاذ، بل ربما خضع جلُّ تصرفاتهم لسلطان ذلك التيَّار، وعاشوا ـ من حيث واقعهم السُّلوكي ـ بمعزل عن قناعاتهم العقلية، فأصبحوا بذلك يعانون من ازدواج بين مظهر الشخصية العقلية الموقنة بجذور هذه الصور والمظاهر، والشخصية الخاضعة لتيارات تلك الصور والأشكال!..

ويتلخص سبب هذا الازدواج في الانغماس في الغفلات والبعد عن ذكر الله ومراقبته. على أنهم يتفاوتون في مدى اتساع شقة هذا الازدواج، على قدر تفاوتهم في الغفلة عن الله عز وجل.

أمَّا خواصُّ هذا الفريق الثاني، فهم أولئك الذين تحولت

قناعاتهم العقلية إلى اصطباغ وجداني، وذلك عن طريق الإكثار من مراقبة الله عز وجل وذكره ـ ولا أعني بالذكر حركة اللسان بقيادة السبحة التي تتفرقع في اليد، وإنما أعني به يقظة القلب ـ فإن الموقن بالله عز وجل إن ظل يتأمل صور الجمال ومظاهر المنن والإحسان ومعاني العظمة والجلال، ليتبيّن من خلالها جمال الخالق وعظمته وإحسانه، اتجهت عواطفه وتجمعت شيئاً فشيئاً بالحب والإجلال لمبدع تلك المعاني ومصدر تلك الصفات. وإذا استمرَّ به الحال تأملاً وذكراً وفكراً، تحوَّل الحب إلى وَقُود شوقٍ متضرم، واهتاجت الروحُ بنشوة بالغة لا يعلم مدى لذتها وسمُوِّها إلَّا أصحاب هذه المعاناة.

ولكن هل تنقطع علاقة هؤلاء العشاق بصور الجمال، إنْ في أشكالها الطبيعية الجامدة، أو في صورها الإنسانية الحيَّة؟

لا.. لا تنقطعُ علاقتهم بها قط، ما داموا في طور اليقظة الشعورية، وعلى مستوى التعامل مع الحياة. ذلك لأن الصور كانت ولا تزال مرآةَ شهودهم ودرب وصولهم وأداة ذكرهم. وذلك هو القاسم المشترك بينهم وبين سائر النَّاس.

إلَّا أن الجمال فيما يتعامل به عامة النَّاس، هو العنوان والموضوع، والطريق والغاية بل هو كل شيء. أمَّا هؤلاء الذين تمحّض حبهم لله، فتظل صور الجمال، على اختلافها، عنواناً لموضوع حبهم الرباني، ونوراً على درب معاناة طويلة سعياً إلى تذويب حُجُبِ الأكوان عن مشاهدة المكوِّن.

إنهم يقفون بنشوة بالغة أمام لوحات الجمال والجلال الكونية، لأنهم يرونها المرآة الوحيدة لجمال الملك القدوس وجلاله، ويصغون بترنم بالغ إلى رجع الصدى إذ يجوب بألحانه الشجية في جوانب الدنيا، لأنهم رأوا

فيه النسيم الذي يحمل إلى أرواحهم عَبَق الذكرى.. ذكرى العهد القديم الذي لا تزال أرواحهم سكرى بنشوته... عهدِ الخطاب الإلهي الذي وعته الروح، ونسيه الفكر وحُجِبَتْ عنه النفس: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟!..

ثم إن مقاييس المشاعر الروحية الواسعة محصورةٌ ومحدودة في نطاق هذه الصور الكونية الضيقة. ومهما اتسعت آفاق هذه المشاعر أو بلغ عمقها فليس أمامها في دنيا اللغة إلّا هذه المقاييس.

فالجمال ـ وله مدلول واسع الآفاق بعيد الغور في داخل الشعور الإنساني ـ لا مقياس له على صعيد اللغة وفي نطاق هذه الدنيا إلّا الصور والأشكال المرئية، وجمال المرأة يظل النموذجَ الأتم لها.

والطربُ ـ وله هو الآخر معناه الواسع جداً في عمق الشعور الإنساني ـ لا مقياس له في دنيا التعابير الإنسانية إلّا النغمةُ والصوتُ الجميل، ورنّة الأوتار تظل النموذج الأدق في التعبير عنها.

والنشوة الروحية ـ وهي معينٌ لا ينضب في عالم الأرواح عندما تنتعش بذكرى عهدها القديم ـ لا مقياس له في دنيا التجارب الإنسانية إلّا الخمرُ والحانةُ والكأس.

فمن هنا لم يكن في مقدور عشاق الحضرة الإلهية، إن أرادوا التنفيس عن مشاعرهم والتعبير عن زفرات وجدهم إلّا استعارة هذه المقاييس التي لا بديل عنها، فهم يتعاملون معها، ويهتفون بها. ويُشِيدون منها محاريب يبثونها نجوى قلوبهم الملتاعة ويسكبون فيها ذوب أكبادهم المتسعِّرة.

غير أنهم، وهم يتعاملون مع هذه المقاييس والعناوين، أبعد ما يكونون عن الركون إلى مضموناتها وتفسيراتها المادية، أو التقلب في

الحظوظ الغريزية لتلك المقاييس والعناوين. وهذا هو الفرق الذي يميِّز لك الصادقين في حبهم، والمتقلبين في ضرام أشواقهم، عن الكاذبين الذين لبسوا من هذا الحب الإلهي أردية خادعة زائفة، ليصلوا بها من أقصر طريق إلى غرائزهم الشهوانية وحظوظهم النفسية!.. ولو كان لدعوى ألسنتهم نصيبٌ في قلوبهم، لظهر أثر ذلك في الانصياع لأمر الله والانضباط بحكمه والالتزام بشرعه.

فإذا تفهمت ما أقول، فإياك أن تقف وقفة امتراء أو استنكار، أمام من قد شهد حاله على صدق قوله، كابن الفارض في قوله:

إذا ما بدت ليلى فكُلِّيَ أعينٌ وإن هي ناجتني فكُلِّي مسامعُ

أو في قوله:

سكرتُ بخمر الحبّ في حان حبِّها وفي خمرة للعاشقين منافعُ

فإنك إن لم تستطع أن تبلغ شأوهم في تجريد قلبك عن الحواجز الدنيوية وأهوائها، لتتجه به إلى شهود ذي الجلال والجمال الأوحد، فلا أقلَّ من أن تتصف بشيء من الأدب معهم والاحترام لهم.

وإلَّا، فما أتعسَ من يجعل من قسوة قلبه حجارة يقذف بها أولي القرب والحُظْوَة من ربه.

وإن لهذا الموجز تفصيلاً طويل الذيل، ولكن فلنمسك عن الخوض فيه، فإن لكل مقام مقالاً.

❑ ❑ ❑

خَـواطِـر.. وأشـجـان..

طالما سألتُ نفسي: فيمَ يظلّ العشّاق والمعذّبون من أرباب القلوب يتغنّون باسم اللّيل كلّما أقبل، وينتظرون ظلامه كلّما أدبر، ويرون في سواده إشراقاً أحلى في عيونهم من شفق الصُّبح؟!..

ولمَّا شكى إليَّ القلبُ في سويدائه، أقبلتُ ذات يومٍ إلى الكون، أنقل إليه شكواه، وأبثّه آهاته.. فرأيتُه أشبه ما يكون بملهًى واسعٍ كبير قد تزاحمتْ فيه ألوانٌ من الصَّخب واللّهو والضَّجيج، ليس فيه إلَّا مشغولٌ بغيري، معرضٌ عن أنيني وصوتي، ورأيتني وسط زحامه غريباً إلَّا عن نفسي منفرداً إلَّا عن قلبي.. فطويتُ الآهة في صدري، وأعدتُّ اللّوعةَ إلى قلبي، واعتصمتُ بالسّكوت...

وأقبل اللّيل دون أن يُقبل معه إلى عيني النّوم.. وأقبلتْ من ورائه ساعة السّحَر والعينُ لا تزال يقظى مسهَّدة.. وفجأةً، رأيتُ الكون كلّه يقبل عليَّ بعد إعراض! وأصغيتُ، فسمعتُ في صمتِه العميق أرق ألحان الحبّ والحنان يسكبه فم الكون في أُذني!.. وتأمّلتُ، فأحسستُ في نسيمه الهانىء العذب بيد الدّنيا تمسح على فؤادي، وتضمّني إليها ضمَّة أُمٍّ مُشفقةٍ والهة!... ونظرتُ فإذا بنجوم السّماء تتناثر دموعاً من أجلي!...

ورأيتني، وأنا في هدأة السّحر، أعيشُ في ضمير الكون كلّه، تشملني خفقات قلبه، ويرأف بي حنّو صدره... ورأيتني مستسلماً لبحرٍ من الحنان الدّافىء لم أجد مثله إلّا في صدر أُمّي التي تركتني وأنا طفل..

ولمَّا أشرق الصُّبح، رأيت الكون يتسلّل معرضاً عني، ورأيتني مرَّةً أُخرى أعيش وسط ضباب الغربة والوحشة..

وإذ ذاك، علمتُ لماذا يتغنى العشّاق باسم اللّيل كلّما أقبل، وينتظرون ظلامَه كلّما أدبر.

* * *

الحبّ الذي يأتي به القلب وحده، تذهب به صحوة صادقةٌ من العقل، فالخطب فيه يسير. والحب الذي يأتي به العقل وحده، تقضي عليه نزوةٌ من عاطفةٍ متمرّدة، فأمره هو أيضاً يسير. أمَّا الحبّ الذي يأتي به العقل والقلب معاً، فداءٌ عضال، لا يذهب به إلَّا جنون مطبق، أو موت مريح!...

ويا رحمة الله لمن كان يعاني مثل هذا البلاء!...

* * *

جاءت الفلسفة الإشراقيَّة تزعمُ أنَّ كلّ حاجات النّفس الإنسانيَّة نزواتٌ مشينة، يجب على الإنسان أن يسمو فوقها، ويتّطهر من رجسِها، فردَّتْ عليها النّفس بفلسفة الإباحيَّة والانحلال، وأبت على الإنسان إلّا انغماساً في الترف واستغراقاً مع حظوظ النّفس.

وجاءت تقاليدُ الأسرة والقبيلة، تفرض على حريَّة القلب والرّأي طلاسم وتعاويذ من التزاماتها، وأقبلت تجرّ معها قيوداً من

شعارات: (عيب!.. ماذا يقول لنا النَّاس؟.. كيف نواجه نقد العالم!...)، فردّت عليها الحريَّة الإنسانيَّة بأقصى ما امتدَّت إليه يداها، من التمرّد على كلّ فضيلةٍ وخلقٍ ونظام.

ولكنَّ الدِّين الحقّ جاء فخطَّ لهؤلاءِ وأُولئك منهج العدل، ووضعهم على طريقٍ تلتقي فيه حاجات النّفس بأشواق الرّوح، وتمتزج فيه حريَّة القلب بضوابط العقل.

فكان من النَّاس مَن انصاع إلى ندائه واتجه في طريقه، وتحرَّر بذلك من كلّ إفراطٍ وتفريط، وكان منهم من ظلَّ راكباً رأسه وأبى الانصياع إلَّا لإفراط من الإباحيَّة أو تفريطٍ من الحرمان.

ثمَّ كان منهم جماعة ثالثة، تظلّ تنغِض رأسَها ذات اليمين وذات اليسار.. تنظر نحو يمينها إلى الدِّين قائلةً: آمنّا وصدَّقنا، وتلتفت نحو يسارها إلى مستنقع التّقاليد تقول له أيضاً: آمنّا وصدقنا!..

وتختنق في مستنقع التّقاليد آناً، ثمّ تنتعش بمغتسلٍ باردٍ من الدِّين آناً آخر!..

وتسألني: فأين سلطان الدِّين على هذه الجماعة، وهو لم يستطع أن يرتفع بها حتى عن غاشية التناقض والاضطراب؟!..

والجواب: لا أدري.. ولعلَّ الجماعة نفسها لا تدري!!..

* * *

ليس أسمج على النّفس والقلب من إنسان فضولي، يظلّ متطلّعاً إلى فهم ما لا يعنيه ولا يفيده في شيءٍ، ولكنَّه يظلّ مع ذلك زاهداً كلّ الزّهد في معرفة أهمّ ما يجب عليه معرفته!..

أقبل إليَّ أحد هؤلاءِ بالأمس، وقد ظهر على وجهه الحرص والاهتمام، وسألني: كم كان عدد الدّراهم التي بيع بها يوسف عليه السّلام؟.. يقصد قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠].

قلت: لا أدري عدد ذلك بالضّبط، ولكن ربما كان مساوياً لعدد أركان الصَّلاة!..

قال: وكم هي أركان الصَّلاة؟..

قلت: أنت مكلّف بإقامة الصّلاة، في كلّ يومٍ خمس مرّاتٍ بجميع ما لها من أركان، ومع ذلك فأنت لم تشعر خلال عمرك كلّه بالحاجة إلى معرفة شيءٍ من هذه الأركان!..

ولو عشتَ قرناً كاملاً من الزّمن، لم يسألك الله ولا أحد من خلقه عن عدد الدّراهم التي بيع بها يوسف عليه السَّلام، فأيّ فضول هذا الذي ساقك إلى الاهتمام بشيءٍ لا جدوى في معرفتِه ولا يخطر ببال أحدٍ أن يسألك عنه، من حيثُ صرفكَ هذا الفضول نفسه عن معرفة أهمّ ما أقام الله حياتك كلّها من أجلِه؟!..

ثمَّ مضيتُ وأنا أقولُ في نفسي: إنَّ فراغَ الحياة والفكر، يحمل صاحبه على هذا وعلى أقبح منه!..

* * *

فلانٌ من النَّاس، يملك قطعة أرضٍ صغيرةٍ، وسط بيداء شاسعة مترامية الأطراف، لا يفصلها عنها أيّ حاجز، ولا يميزها عنها أيّ صورةٍ أو شكل، ولا تُعرف عمّا عداها بأي علامةٍ أو فارق.. فكيف السّبيل إلى

حفظها وتحصينها وما العمل للوقوف في وجه من يتهدّدها بالسّطو والغصب؟!..

تلك هي قصَة ما يسمّونه بوجودنا العربيّ المهدّد.. وقصّة تحفُّزنا وتوثُّبنا للدّفاع عنه والجهاد في سبيله.

أجل، إنَّ وجودنا العربي مهدَّد، فما في ذلك شكّ، ولكن ما هي معالم هذا الوجود، وما هي حدوده وضوابطه، ومقوّمات ذاتيّته التي تفصله عن مظاهر الوجود الأخرى، حتى نستطيع أن نتحلّق حول هذه الحدود ونتجمّع عند مشخِّصات ذاتيتنا ثمَّ ننطلق مجاهدين مدافعين، وقد علمنا محور الدّفاع ونقطة الخطر ومرتكز الجهاد؟!..

لقد كان لهذا الوجود فيما مضى معالم تضبطه، ومقوّمات تحدّده وتشخّصه من عقيدةٍ متميّزةٍ في كيانه، وسلوكٍ معين في حياته، وقيم نيرة في خلقه. فكان وجودُنا إذ ذاك منصبّاً في هذه القوالب، وكان أجدادنا رحمهم الله من أرباب هذا الوجود، إنما يدافعون عنه بالدّفاع عن هذه القوالب والاستماتة في سبيلها، وحقن ما حولها بلجةٍ من عرقهم ودمائهم.. فكانت عزّتهم كلّها محفوظةً بحفظها، مكلوءةً برعايتها، ممنوعةً في حصنِها.

واليوم.. ماذا بقي لنا من خصائص هذا الوجود المتميّز؟.. لقد ذهب كلّه مع الرّياح المشرِّقة والمغرِّبة.. ولم يبق تحت أيدينا ممّا كان يُدافع عنه أجدادنا إلّا مظاهر متخلفة لمعنى الوجود البشري العام، تلتقي على صعيده مختلف صنوف الأمم والجماعات: نأكل كما يأكلون، ونلهو ونمرح تماماً كما يفعلون، ونقيم للشّهوات الآسنة محاريب مقدّسة في حياتنا كما يصنعون.

وعندما تنصرف بعد ذلك كلّ أُمّةٍ إلى خصائصها التي تمدّ وجودها بذاتيّةٍ متميّزة، نقفُ نحن حيارى ذاهلين نتلفّت مرّةً إلى اليمين وأخرى إلى اليسار! . . .

وننكص بعد ذلك على أعقابنا لنقول: إنَّ وجودَنا العربي مهدّد! . .

نتلمّسُ الهواءَ لنخطّط عليه، ونهرع إلى الماءِ لنبني فوقه، فلا يستجيب لنا هذا ولا ذاك.

وتضعنا عبرة الدّهر أخيراً أمام مثلٍ عربيٍّ يقول: «الصّيفَ ضيَّعتِ اللَّبَن! . . .».

* * *

أرأيتَ إلى اللّوحة السَّاحرة التي أقامتها يد الخلَّاق عند الجانب الغربيّ من مدخل دمشق، تلك اللّوحة التي تجمّعت فيها كلّ ما تملكه الطبيعة من مظاهر السّحر والجمال، وتنوّعتْ فوق صفحتها بدائع الصّنع الإلهي العجيب! . .

جبالٌ شامخة على جانبي الطّريق تنشر في اتّساع الوادي رُواقاً من الرّوعة والجلال، من دونها أشجارٌ باسقة تسلّقت في كثافة إلى أحضان تلك الجبال، ثمَّ استقرَّتْ هناك وظلّتْ ترنو بأغصانها الباسقة إلى تلك الذّرى التي تطلّ عليها في حديث غزلٍ لا ينقطع، من دونها أنهارٌ رائقة عذبة تجري من تحتها وتلتمعُ بين سُوقِها، متعرّجةً عن يمين الطّريق ويساره في بريقٍ ساحرٍ أخّاذ! . .

ومن دونها وحولها أشتات من النَّاس قد تبعثروا هنا وهناك، يحتسون بأعينهم السّحر، ويشربون في رؤوسهم النّشوة، وينهلون بأفئدتهم الجمال. . . وقد دارت بينهم كؤوس الشّاي، وأُقيمت أمامهم أباريقها، وانتشر من حولهم أريجها وبخارها!. .

تلك هي ربوة دمشق!. . لوحةٌ نادرة من الصّنع الإلهي العجيب، يظلّ يلتقي عندها النّدمان، ويزدحم من حولها عشّاق الطّبيعة والجمال[1].

ولكني ما وقفتُ عند هذه اللوحة الجميلة مرَّةً، إلَّا وانصرفتْ عيني إلى لوحةٍ مؤثرةٍ أُخرى قد انصرف عنها النَّاس كلّهم، فلا أحد يحفل بها أو يلتفت إليها. .

لوحة من الصّخر الأصمّ، قد برزتْ من الجبل بروز المنبر من نصف الجدار، كُتب على أحد وجهيها بخطٍّ واضحٍ كبير: اذكريني دائماً. . وكُتب على وجهها الآخر: لن أنساكَ أبداً.

---

(١) كان هذا قبل أن يعمد أناس فيبدلوا نعمة الله كفراً، ويقيموا على طول تلك الأنهر المتدفقة بنعمة الله العظمى من الماء العذب الفرات، أعشاشاً ساهرة تتحدّى وصايا الله وأوامره جهرة، وراء أبواب مفتحة، ومن خلال عروض منكرة مغموسة في الأضواء الساطعة أو الخافتة.
فلمَّا استشرى هذا الأمر بعد ذلك، وتحولت المعاصي المعلنة إلى عروش تنبسط فوق تلك الأنهر التي كانت تتألق في جنبات ذلك الوادي، كأجمل عقد يزدان به جيد هذه البلدة، دون مستنكر ولا محذّر ـ غاض معين تلك الأنهر، وجف ذلك الألق المتدفق، واستحال إلى مستنقع تجوب فيه الجرذان، وتتعالى منه الروائح الخانقة!. .
ولعلها رحمة ربانية من التربية الخفية، تبعث على اليقظة والاعتبار.

لوحة جامدة من الصّخر الأصمّ، ولكنَّها تبعثُ أصداءَ أليمةً لنجوى قلبين كسيرين!..

لوحةٌ جامدة ليس من مكترثٍ بها ولا ناظرٍ إليها، ولكنَّها تخفق بقصَّةٍ كان ينبغي أن يلتاع لها فؤاد الدّهر!.

تُرى أيّ مأساةٍ طافتْ بهذين القلبين، وأيّ قسوةٍ نالتهما من يد الإنسان حتى لم يجدا ملجأً لأشجانهما إلَّا في ضمير الصَّخر؟!..

أيّ يدٍ مجرمةٍ هذه تلك التي جافتْ بينكما، ثمَّ لم يجمعكما من بعدها إلَّا هذا الحجر الصّلد؟!..

بأيّ ذنبٍ جناه قلباكما، قامتْ إليكما محكمة الإنسان، ثمَّ قضتْ فيكما هذا القضاء الجائر، وعهدنا بالقلوب الملتاعة أنها لا تنطوي على غلٍّ، ولا تخفق بغير الحنان والحبّ؟!..

وددتُ لو أني سمعتُ قصّة مأساتكما من قلب إنسان يُقال إنَّه يخفق بالرّحمةِ والشعور، بدلاً من أن لا أسمعها إلَّا من قطعةٍ من الحجر الصّلد لا حسّ فيه ولا شعور!.

يُخيَّل إليَّ كلّما أبصرتُ هذه الصَّخرة، وهي تُعانق الأصداء الباقية لمأساة هذين الحبيبين، في جمودٍ لا يتبدَّل، أنها تعيش في حدادٍ مستمرٍّ من الحزن عليهما. وتعيشُ في ألمٍ مستمرٍّ من أن يظلَّ النَّاس يمرُّون ويمرحون من تحتِها غير ملتفتين ولا عابئين..

ومَن يدري؟.. ربما كان قد استودع هذان الحبيبان أشجانهما عند هذه الصّخرة، واتخذا منها آخر العهد بالدّنيا، ثمَّ تطوَّح كلّ منهما في

جانبٍ منها، أملاً في مصيرٍ أفضل وسوس إليهما به الشّيطان، خلف سجاف الموت!.. فهي ترنو إلى النَّاس من بعدهما وقد تجسَّد لهم فيها شؤم الإنسان[١].

ومهما يكن، فإنَّ جمال الطبيعة لا يتكامل في دنيا يشيع فيها الأسى والظّلم، إلَّا إذا تراءت خلال لوحتها الضّاحكة صورة من الجمال الباكي.. وفي ربوة دمشق مظهرٌ متكامل لهذا الجمال..

فإذا ما اجتزتَ بذلك الوادي الجميل، فلا تنس أن ترفع رأسَك إلى تلك اللوحة الباكية وهي تنشر فيما حولها ظلالاً من اللّوعة والأسى..

وعندئذٍ فقط يتكامل أمام عينيك مشهد الجمال..

ولَرُبَّ دمعةٍ حرّاء، أنعشت العين والقلب، أكثر من رقصةٍ كاذبةٍ فوق أطلالٍ من بقايا القلوب...

❑❑❑

(١) من أبرز ما أنعمت علينا الحضارة الغربية. تقليعة الانتحار!..
وحسبك من حضارة يُزهي أربابها بما فيها من مقومات السعادة والنعيم أنها تعلِّم تلاميذها وعشاقها أحدث مناهج الانتحار!.
اصغ بسمعك إلى تاريخ حضارة الإسلام، ثم قل لي: كم هم عدد الذين انتحروا في ظل هذه الحضارة خلال قرونها الطويلة كلها؟!..
ولكن من يدري، فربما كان البحث عن الموت فوق صخرة «الروشة» أو بين عبير الزهور، أسمى مظهر للتقدمية المثلى!..

وَردة... وَسَط لَهيب مِنْ فيح الصَّحراء!..

تتفتح الورود عادة فوق المروج الخضر، وبين الحدائق والجنان. . أمَّا هذه الوردة، فقد رأيتها وحيدة غريبة في بيداء ملتهبة قاحلة، لا تطوف بها نسمة تحركها، وليس من حولها عرق أخضر يحنو عليها!. . فاجتاحني لهذا المنظر الغريب شعور من الأسى، ورأيتُني أتّجه إلى هذه الوردة الفريدة في عالمها الغريب بهذا الحديث:

أيتها الوردة الحانية على نفسها، المتفتحة وسط أمواج من لهيب الصحراء:

عهدي بالورود أنها تنبت في أحضان المروج، وفي قمم الروابي الخضر وسفوحها، وعلى شطآن السواقي والأنهار. فما ليد الغربة قذفت بك وحيدة إلى هذا الضرام؟!. .

أين البلبل الغرِّيد يغني منتشياً على فننك؟. . أين النسيم العذب يتخطّر من حولك وينشر في الآفاق جميل عبقك؟. . أين هي الأغصان المترنحة السكرى ترقص مزهوّة بجمالك؟. . أين الندى المتساقط مع إطلالة كل فجر يقبّل في تحنانٍ الشفاه الخمرية من أوراقك؟. .

أيتها الوردة القائمة وسط هذا الضرام:

ما رأيت غربة أقسى على القلب، وأبعثَ لمشاعر الأسى في النفس، من الغربة التي تلتفّ بك في دنيا هذه الوحشة من حولك. بل ما رأيت ابتسامة فاتنة تنبعث من جمالٍ آسرٍ أخاذ، تغلبت على ظلمات الكآبة، كابتسامتك السحرية الصامتة التي أشرقت بها ظلمات هذه الصحراء وبعثت برداً من العذوبة في سَمُومها القتَّال.

ولقد أصغيت من مظهر غربتك في هذه البيداء الموحشة، وحنوّك على نفسك في إشفاق ولطف، إلى نشيد فلسفي حزين... إنه يقول:

«مهما سما الجمال وتكامل في ذاته فلن يظهر رواؤه إلَّا للعين التي تتأمله وتنبهر به، ولن يزدهر إشراقه إلَّا أمام النفس التي تذوب وتنصهر في لظاه.

أجل، لقد كانت ليلى العامرية جميلة كما قالوا، ولكن هل ارتسم جمالها أمام الأنظار إلَّا على صفحة حمراء من عشق مجنونها؟.. ولقد تحدث النَّاس عن فتنة جولييت، ولكن هل قرأوا ترجمة فتنتها إلَّا في زفرات روميو ولواعج حبه لها؟..

إن سيرة الجمال ليست إلَّا من سيرة النور الذي يشع من الشمس المتوهجة والمصابيح المضيئة، فكما أن النور لا تتجلّى له حقيقة أمام الأبصار إلَّا إن انعكست أشعّته ثم استقرت على جرم مقابل، فكذلك الجمال لا تستبين أسراره ولا تتوهج نيرانه إلَّا بعد أن يتسرب شعاعه إلى العيون النَّاظرة، وتتجلى أسراره على نبضات القلوب الملتاعة.

فلئن رأيتني وقد ظهرتُ برعماً وتفتحتُ وردة في ظلمات هذه البيداء، أحنو على نفسي في رقة مبكية، فلأن الأقدار قد جعلت مني كلًّا من

الصوت والصدى.. وأقامت مني الوردة الفاتنة والبلبل الهيمان.. إنني أنا الجمال ومرآته. أنا العاشق ومعشوقه. وذاك هو سرّ حنوي على نفسي وانطوائي على ذاتي، في عالمي الغريب الذي أتمايل فيه».

لقد أصغيت منك ـ يا من تصارعين برقتك الآسرة قسوة الصحراء ـ إلى هذه الأنشودة الباكية. فهل لي أن أسمعك أنشودة قلبي الملتاع؟.. هل لي ـ وأنت الصوت الرائع العذب ـ أن أسمعك الصدى المتأوِّه المنبعث من حنايا قلبي الجريح؟ إنه يقول:

«أتأذنين لي يا وردة الصحراء أن أفترش لكِ من نفْسي تربة لينة تسري جذوركِ في أنحائها وترتوي منها بعصارة عيني وذوب قلبي؟.. أم هل تأذنين لي أن أكون بلبلك الصدَّاح، لا يبارح غصنك الباسق، يغني دون انقطاع ألحان غربتك الباكية ولحن حبي القتَّال؟..

أم هل تفضلين أن أفجر لك من حبي القاني وآلامي النَّائحة وآمالي الخضر واحة فينانة تحيط بك عذوبتها، وترقص من حولك أغصانها وتشدو مع كل فجر نسائمها. فلربما ـ وإن كانت واحة صغيرة ـ تقصيك عن فيح الصحراء، وتنسيك زمجرة رياحها، وتحميك من لهيب قيظها».

يا وردتي الباسمة في عالمك المكفهر الغريب:

ما أكثر ما وقفت أمام لوحات متنوعة شتى من مشاهد الطبيعة، وقفت منها أمام الكثير مما أبدعته يد الخلاق، ونظرت منها إلى الكثير مما صاغته أيدي العباقرة الفنانين، ولكني ما رأيت في شيء منها ما يشبه هذه اللوحة الملوّنة الآسرة التي امتزج فيها أزهى صورة للجمال المرح الضاحك، بأقسى مظهر للوحشة المكفهرة العاتية، ثم لم يتغلب أي من النقيضين على الآخر!.. لا الجمال الباهر

العذب يذبل في ضرام اللهب وفيحه المضني، ولا الوجه الأغبر القاتم للوحشة الداكنة المحيطة به، يشرق عليه طيف من ألوان ذلك الجمال الباسم الراقص!..

لقد رأيت كيف يحيي الله الأرض بعد موتها، ورأيت كيف يستولد الله إشراقة الفجر المنير من غسق الليل المظلم، ورأيت كيف يخرج الحي من الميت، ولكني ما رأيت إلَّا من خلال هذا المشهد كيف يجاور الغسق الأسود ألق الفجر وبياضه المنير.

وأنا.. أنا الذي جعلتُ من قلبي وعاء قدسياً للجمال وأسراره، وجعلتُ من عقلي مصباحاً يهديني في فجاج الحياة إلى مصدر الجمال وينبوعه، لا أدري بأي المشاعر الإنسانية أقف أمام هذين النقيضين، ولأي منهما أستسلم وأنساق وراء سلطان التأثر والانفعال..

غير أن هاتفاً في أعماق كياني يهيب بي أن أتجاوز الفروع إلى الجذور، وأن أنتقل من الأكوان إلى المكوِّن، مؤكداً بأن سائر مظاهر التناقض تنمحي هناك وتزول، وتتبدّى في مكانها مظاهر الحكمة الإلهية فيما قدر وأبدع، وفيما قرن أو مزج. ويتسرب عندئذ إلى الآذان نقياً واضحاً النشيد الكوني الذي تصدح به الدنيا كلها بكل ما فيها من صور وأشكال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

* * *

وبعد، يا أزهى وردة رأتها عيناي، وسط أوحش أرض جرداء:

اذكري كلما لفك ظلام الليل، وزمجرت من حولك الرياح العاتية، وآلَمكِ أنك لا تجدين نسمة تهبّ من حولك أو غصناً لدناً يحنّ متمايلاً إليك ــ أنك صنيع يد ذلك الجميل الأوحد الذي فجر كل مظاهر الرقة

والجمال من نسيج أوراقك اللطيفة الزاهية، والتي تجمعت أطرافها في صورة شفاه عذبة تحكي قصة قبلات خالدة لا تنقضي ولا تزول.

فلئن أوحشتك البلاقع خالدة من حولك، فليؤنسك حب ذلك الخلاق الأوحد لمعاني الجمال، ذاك الذي جعل منك رسول جماله إلى كل فؤاد ملتاع بسحر الجمال، محروم من رؤيته متشوق لمناجاته والركون إليه.. فسيكون لك من هذا الحب أجمل عزاء ينسيك وقع الغربة، وآلامها، ويحيل دنياك كلها إلى جنة ورافة الظلال.



الـوَغـل[١]

طالما بكت والدتي وهي تروي لنا هذه القصة في ليالي الصيف المقمرة.. لقد كانت ترويها لنا للتسلية والمتعة، وها أنا اليوم أرويها من بعدها للعبرة والذكرى...

هنالك.. على البعد.. بين أشجار السّنديان الشّاهقة التي تكسو جبال (شاخ)[٢]، شبحان يسيران بين ظلال تلك الأشجار، بخطى مسرعةٍ غير مبالية بوعورة الطّريق وأشواكه، تختفي بهما الوهاد مرَّةً، وترتفع بهما الرّوابي أُخرى. وكأنما يستدبران في سيرهما ماضياً يحثّان الخطى في الانفلات منه، ويستقبلان غايةً يتلمسّاتها أمامهما فهما يغذّان السَّير إليها!..

إنهما حبيبان هاربان بقلبيهما من ظلم الإنسان، يبحثان تحت سماءِ الله عن بقعةٍ من أرضه لم تدنّسها يد الظّلم كي يُقيما من فوقها عشّهما الآمن السعيد..

---

(١) هذا ـ مع تعديل طفيف ـ هو الفصل الأخير من قصة «سيامند: فتى الأدغال» التي كتبتها منذ قرابة أربعين عاماً، ولم يقدّر لها الظهور والانتشار إلّا في هذا العام.

(٢) هي من بعض جبال جزيرة ابن عمر.

وهما يسيران فوق هذه الجبال، وفي بطون أوديتها منذ ثلاثة أيَّام بلياليها الكاملة، لا يحفلان بشقاءِ المسير لأنَّ بريق السّعادة يلمع لهما من الأفق، ولا يشعران بوحشة الطّريق لأن الحبَّ قد ملأ لهما الفضاء كلّه أُنساً.

ولم يشعر أحدُهما بالإعياء إلَّا عندما انتهى بهما السّير وسط بعض الأودية الخضراء إلى عين ماءٍ صافية تنبع من جانب صخرةٍ راسيةٍ ضخمة، حيث ينحدر منها الماءُ في اندفاع صاخبٍ إلى أسفل الوادي.

هناك وقف كلّ من عصام ووفاء[١]، لحظاتٍ يتأمّلان روعة المنظر، ويُنصتان إلى الصَّدى الهائل لخرير الماءِ منبعثاً من بطن الوادي وشتى جهاته. وهناك، شعر كلٌّ منهما بالإعياءِ الشّديد يسري في أطرافِه، فقصدا إلى أقرب شجرةٍ ظليلةٍ إليهما وانطرحا في ظلّها يستريحان من آلام سيرهما الطّويل.

وتقاذفتهما في مجلسهما ذاك أحلامٌ من الأماني والآمال في حديثٍ عَطِرٍ ممتع، تناقلْته عنهما النّسمات الفوّاحة بالعبير ممتزجاً مع ذلك النّغم الجميل المنبعث من مياه الوادي وحفيف أشجاره وتغريد بلابِله.

وبعد قليلٍ، شعر كلٌّ منهما بالذّبول يداعب أجفانه إثر ذلك التّعب الطَّويل. فأسلم كلٌّ منهما عينيه للسُّبات.

---

(١) وضعنا هذين الاسمين لبطلي القصة، تكميلاً لتعريبها، أمّا في الأصل فاسم الأول (سيامند)، واسم الثانية (خجى).

وما هي إلّا دقائق، حتى ذهب عصامٌ في غيبوبةٍ من النّوم العميق.
أمّا وفاء، فقد كانت أحوج منه إلى ساعةٍ من الرّاحة والنّوم، ولكنّها لم تكد تبصر عصاماً وقد غطّه الرّقاد وتشعرُ بوحدتها في ذلك الوادي السَّحيق، حتى استيقظت إلى التأمّل في شأن نفسِها، وفي شأن ما أقدمتْ عليه من مفارقة أهلها، والابتعاد عن جملة أقاربها وعشيرتها، كلُّ ذلك في سبيل شيءٍ واحد، هو أن تنتصر لقلبها ولا تُحرم من عشيقِها.

تُرى أكانت هذه الجرأة منها عملاً صحيحاً متّفقاً مع المنطق والعقل، أم هي رعونةٌ خاطئة كان عليها أن لا تُقدم عليها؟!..

أليس من حقّها أن تستجيب لرغبة قلبها فتحقّق له صبوته، ما دام أنَّه لن يترتّب على ذلك أيّ إضرارٍ بالآخرين، ولا يتسبّب عنه أيّ انحرافٍ عن الفضيلة والخلُق؟

لقد أجاب الدِّين على هذا السُّؤال بـ: نعم. والتفت إلى ذوي القوامة في الأسرة فحذّرهم من تحويل (نعم) هذه إلى كلمة (لا)، وأوضح أنَّه ليس لأيّ ذي قوامةٍ في البيت أن يعارض ويمانع ويعضل، إذا ما كان الطّرفان متراضيين بينهما بالمعروف.

وجاءت الأعراف والتقاليد المختلفة، وجاءت معها شهواتُ الأب والأمّ ووجهات نظر الأهل والحواشي ـ جاء كلّ ذلك ليقول في كثيرٍ من الظّروف والأحيان: ليقل الدِّين ما يشاء، وليحذّر ما طاب له التّحذير، فالكلمة الأخيرة لأمانينا وما تسكن إليه نفوسُنا!..

وإذا كان الدِّين الحقّ، يمكّن القلب من حقّه الذي لا يصبر عنه، ضمن خطٍّ من العدل الذي لا مجانفة فيه إلى أيّ انحرافٍ أو إثم، وجاءت الأسرة أو العشيرة لتحرم هذا القلب من حقِّه ضمن خطٍّ كلّه مجانفة عن

العدل، وانحراف إلى الظلم والعضل، فأيّ شيءٍ يمنعني من أن أسير مع عدالة الدِّين الصَّحيح وإن استلزم ذلك التمرّد على العرف السّخيف، والرّغبة الفضوليَّة الباطلة؟..

لماذا يُنكر عليَّ أهلي أن أختفي من بينهم.؟.. أليس لأنهم يريدون أن أعيش معهم بسلامٍ على النّهج الذي يريدون؟.. ولكن هل كان يتحقّق لي شيءٌ من هذا السّلام فيما بينهم؟ لا ريب أنَّ يد الهلاك كانت تتسلّل إليَّ رويداً لتتخطّفني من بينهم، فخير لي أن أُبادر فأنجو بنفسي قبل أن يُسرع فتتخطّفني منهم يد الهلاك، وعليهم أن يغتبطوا بأنَّ هذا الذي كان، خير ممّا كان سيقع.

وهكذا ظلّت وفاءُ في حديثٍ عميقٍ مع نفسِها حول ما أقدمت عليه من مفارقة أهلِها.. إلى أن انتبهتْ فجأةً إلى صوت دمدمةٍ ينبعثُ من خلفِها بين أغصان الأشجار، فاستولى عليها الرّعب والتفتت تنظر خلفها.. وسرعان ما عاد إليها الهدوء حينما رأت قطيعاً من الوعول يهبط من أعلى الجبل متّجهاً إلى الماء.

وجلست وفاءُ متّكئةً، وراحت تنظر إلى أفراد هذا القطيع وتتأمّلهم وقد تفرَّقوا في أسفل الوادي يشربون ويمرحون. ثمَّ صعدوا في الجانب الآخر يتقدَّمهم فحلٌ ذو قرنين عظيمين له عرير وصياح يذكّر بثغاءِ الشياه.

فأثار ذلك الصّوت في نفسِها صورةَ قطعان الشّياه إذ كان يعودُ بها الرّعاة إلى دار أهلِها في كلّ أُمسيةٍ من المراعي، وإذ كان يتعالى ثغاؤها مع غياب كلّ شمسٍ فوق السّفح الصَّغير الذي يمتدّ منبسطاً خلف الدّار.

وتذكّرت نعيمَها الذي فارقته، وأهلها الذين تغرّبت عنهم في هذه المفازات التّائهة والجبال الموحشة.

وطافت بمشاعرها روح من الحنين والذكرى.. ولمرأى الطّبيعة وجمالها أثر كبير في إشعال نار الذكريات، ألم تمعن مرّةً في آياتها الرّائعة إذ تنبسط فوق سفوح الجبال، أو تتجلّى في آفاق الغروب، أو تمتدّ فوق صفحة البحار، أو تنبعث من نسمات الزّهور وأصوات الطّيور وثغاء الشّياه وخرير الأنهار؟!..

إنَّ في كلّ ذلك لحناً سحريًّا غريباً ينشر في خيالك رائحة العمر الماضي، ويبعث في النّفس صوراً من الحياة التي طواها عنك الدَّهر.

آه لو كان لنا أن نُغمض مشاعرنا عن تذكّر الماضي كما نُغمض أبصارنا عن رؤية ما لا نريد!..

ولكنَّ القدر هكذا يجري.. تتولّى الأيّام وتمضي بما فيها، شئنا ذلك أم أبينا، غير أنَّ خيالها يظلّ ثابتاً في أفكارنا، ويذكّرنا بها إن نسينا كلّ شيء.. تذكّرنا بها خفقات النّسيم، وصفحات الغدران، وشعاع الكواكب، وهدأة اللّيل، وأمواج البحار، وغناء البلابل، ورنين الأوتار. وحتى هذه اللّحظات القليلة من الهناء التي نعثر عليها بين عمر الشّقاء المديد، يأبى الدهر إلّا أن يكدّرها بآلامٍ من صور الماضي وقلقٍ ممّا يحمله لنا المستقبل.

* * *

ولم تجد وفاءُ بدّاً ـ بعد أن استولت على مشاعرها هذه الأفكار المريرة ـ من أن تستسلم للبكاء، وتبرّد لظى قلبها بقليل من الدّموع، غير أنها نسيت أنَّ قرينها الذي مضتْ له فترةٌ طويلة وهو غارقٌ في النّوم قد بدأ يستيقظ!..

وأفاق عصام.. وكان أوّل ما انتبه إليه دموع وفاء!.. فدنا إليها في دهشةٍ وبادرها قائلاً: ما هذا؟.. ما الذي يُبكيكِ يا وفاء!؟..

فارتبكتْ وفاءُ من وقع المفاجأة التي داهمتها، وسكتتْ ولم تُحِرْ جواباً.

ولكنَّ عصاماً عاد إلى السُّؤال، وأصرَّ على أن يفهم حقيقة الأمر الذي دعاها إلى البكاء، فقد ثارت في نفسه من ذلك شكوك ولا بدَّ أن يقطع جذورها بمعرفة الحقيقة.

فقالت له في لهجةٍ مهدئةٍ مباسطة: لا شيء، سوى أنَّ قطيعاً من الأوعال قد مرَّ من هنا الآن، وفي مقدمتها فحلٌ يثغو كثغاءِ شياهنا إذ كانت تعود من المرعى في المساء، فأثار ذلك في نفسي بعض الذكريات العابرة. . . فهبَّ عصامٌ من مكانه قائماً، يتحسّس مكان الخنجر والقوس في جنبه، وسألها: في أيّ اتجاهٍ مضى هذا القطيع؟

فقالت: لقد غاب وراء هذا المنعطف، ولكن ماذا تريد أن تصنع؟

فأجابها وهو يتّجه إلى حيث أشارتْ: أُريد أن أذبح هذا الوعل الذي أثار شجونك وأسلمكِ إلى هذا البكاء الذي لا داعي إليه.

فتعلَّقت به متوسِّلةً أن لا يذهب، وقالت له: ما لَكَ ولصيد الوعول في هذا المكان الذي نمرّ فيه عابرين إلى مقصدنا. . ثمَّ إنَّ القطيع قد مرَّ منذ فينة، ولن تستطيع اللّحاق به، إلّا إذا بدا لك أن تتركني وحيدةً في هذا المكان.

ولكن عصاماً انفلت من بين يديها منطلقاً نحو المنعطف الذي غاب وراءه القطيع وهو يقول متلفّتاً نحوها: لا، بل انتظريني. . انتظريني يا وفاء، فسأعود إليك بعد دقائق فقط برأس هذا الوعل الشرس! . .

وقعدت وفاءُ في مكانها، وقد تعلَّق بصرُها بعصام وهو يُسرع في الطريق التي غابت فيه الوعول... وفي هذه المرَّة كان عليها أن تستقبل مشاعر جديدة أُخرى، لقد أخذت تشعر بالأسى من أجل ما ظهر لعصام من تأثّرها وبكائها، وراحت تسائل نفسها:

تُرى هل كان جائزاً لها في شريعة الوفاء والحبّ أن تسكب مثل هذه الدّموع لمثل هذه الذكريات التي هي حقًّا عابرة؟... أليس من حقّ عصام ـ وقد رأى منها هذا التأثّر من أجل هذا الأمر العارض ـ أن يرتاب في مبلغ حبّها وفي مدى إخلاصها له؟.. لا شكّ أنَّه سيوازن بين مشاعرها ومشاعر نفسِه، وسينتهي إلى نتيجةٍ يتأكّد من صدقها، وهي أنها أقلّ منه حبّاً وشغفاً، وإلَّا فلماذا لا تثور مثل هذه الذكريات في نفسِه هو أيضاً.

وعزمتْ في نفسِها على أن تعتذر إليه فور عودتِه، وأن تؤكّد له إخلاصها ومبلغ حبّها الوفيّ الذي لا مزيد عليه.

ولبثت تنتظر عودتَه وطال بها الانتظار، وطال بعينيها الشخوص في الطّريق التي غاب فيها، ولكنَّه لم يرجع!!..

ومضت على غيابه ساعة.. ومضى مثلها، وذوت الشّمس وشارفت أن تنغمس في مغيبها وهو لم يرجع بعدا!..

فاستبدَّ بها القلق، وثارت في مشاعرها ألوانٌ من الاضطراب، ولم تعد تستطيع الصّبر على البقاءِ في ذلك الوادي الموحش. فقامت تمشي في الطّريق الذي ذهب فيه، وأخذت تقصُّ أثره وتتّبع خطاه. وظلّت تمشي فترةً من الوقت، وهي لا تُبصر أمامها ولا من حولها أحداً.

ثمَّ انتهى بها المسير إلى مفازةٍ جرداء ساكنة، فوقفت هناك، ولم تعد تستطيع متابعة السّير، فقد داخلها الرُّعب الشَّديد من وحشة المكان

وجموده!.. غير أنها أبصرتْ جثّة وعلٍ ملقاة هناك، على مقربةٍ منها. فعاودها الجأش وراحت تتمِّم مسيرها إلى مكان الوعل.

وانتهتْ إليه، فإذا هو بعينه ذاك الذي كان يتقدَّم القطيع. وتأمّلته فإذا هو مذبوح ومصاب بسهم في أسفل بطنه!.. فعلمتْ أنَّه قد رماه أولاً بالسّهم، ثمَّ أدركه فذبحه بالخنجر الذي معه.

ولكن أين بقي هو إذاً!؟..

وعلق بصرها بالأرض تحملق في الدّماء السَّائلة من مذبح الوعل، وأخذت تُتْبِعُ بصرها سير هذه الدّماء إلى أن انتهت عند حافّة بئرٍ واسعة الفم هناك.. فأدركت أنَّه قد ذبح الوعل على طرف هذه البئر.

ثمَّ وقفت جامدةً ذاهلة!.. وقد بدأ الليل يُقبل إلى تلك المفازة المروّعة، وراحت تفكّر أين اختفى عصام!!..

وبينما هي كذلك، إذ انتهى إلى سمعِها أنينٌ خافت كأنّه وهم من الخيال!.. فاستيقظت كلّ ذرَّةٍ من مشاعرها تُنصت وتتسمّع.. وإذا هو أنين هادئٌ متلاحق يتعالى من فم البئر الذي تقف بجانبه!.. فأمالت برأسِها عليه، وراحت تحملق في قاعه، لتُبصر شبح عصام ملقى على ظهره فوق جذع شجرةٍ طويلة قائمةٍ وسط البئر!..

فخارت حينئذٍ قواها، ودارت تلك المفازة الموحشة حول بصرها دورة كربٍ قاتل، وجلستْ على حافّة البئر وقد علمتْ كلّ شيء.. لقد علمتْ أنَّ عصاماً وضع رأس الوعل على حافّة البئر ليذبحه، ولا بدَّ أنّه قاوم إذ ذاك بقرنيه العظيمتين، ودفعه بهما في ظهره فهوى في البئر، وتلقّاه في أسفلِها هذا الجذع الذي نشب في ظهره فهو باقٍ هكذا مصلوباً من فوقه!..

وعادت ـ وقد أطبقت عليها الحيرة وخنقها الكرب ـ تطلّ برأسِها تُصغي إلى أنينِه وتصاعُد أنفاسه مع هواءِ البئر، وتتأمّل وجهه وعينيه الشاخصتين إلى الأعلى. وتبيّن عصام شبحها الأسود في فوهة الضّياء التي تطلّ عليه، فتحامل على نفسِه وانتزع من صدره كلماتٍ خافتةً أرسلها إلى سمعِها مع هواءِ البئر قائلاً:

ـ وفاء.. إنني أمكث هنا في مقرّي الأخير الذي ساقتني إليه الأقدار، ولكن ها هي الدّنيا على كلّ حال، لا تزال تطلّ عليّ، فها أنا ذا أرى فوق صفحتِها وجهَك الجميل.

ـ عصام.. يا كبد وفاء.. يا فتى الخنجر الذّهبي والقوس المفضَّض: ألم أقل لك لا تذهب؟.. ألم أتوسّل إليك أن لا تسلكَ طريق الوعول؟.. وأغلقتُ عليك فم الطّريق بقلبي، ولكنّك أزحتَه عن سبيلكَ ومضيت!..

ـ دعيني، فإنَّ عتابك يحرق جرحي الأليم... دعيني يا أغلى من روحي التي لم أعد أملكها، دعيني فإنني لسعيدٌ إذ استطعتُ أن أروي ظمأ حبي لك، بدم كبدي وعصارة روحي.

والتفتت وفاءُ إلى الوعل المُلقى على جانب البئر، وتأمّلْته قائلةً:

ـ إنَّ وعلنا لذو بأسٍ شديد، ولكنَّه على كلّ حالٍ مظلوم... مَن يدري، فربما كان له هو الآخر قرينة تحنّ إليه، وتضنّ بحياتها من أجله، ومَن يدري، فربما كانت المسكينةُ تبكيه السَّاعةَ كبكائي، وتشقى بالحياة مثل شقائي!

ـ آه.. إنَّ هذا الجذع النَّاشب في ألواح ظهري يلتهبُ عليَّ كالجمر، إنَّه يجرّعني عذاب الموت، ولكنَّه لا يُريحني بالموت نفسِه.

ولكنَّها كما تقولين العدالة.. إنها عدالة الإله تنتقم من الأنانيَّة والظّلم.

ـ إنَّ ذلك ليس ظلماً منكَ أنت بمقدار ما هو ظلمٌ من أسرتي وأهلي.. ما كان أغنانا جميعاً عن هذا المصير لو طالتْ يدانا إلى أبسط ما ملَّكنا الله إيَّاه، ألا وهو حرّية القلب. ولكن تلك هي قسوة الإنسان تأبى إلَّا أن تمتدَّ آثارُها حتى إلى البهائم والوحوش!..

ثمَّ أطلّت برأسِها على البئر باكيةً تقول:

ـ يا حبيبي... عند ربيع آمالي فقدتُك، وأمام مشرق سعادتي غاب عني وجهُك!.. كيف لي أن أطول جرحَك الدّامي لأضمّه إلى كبدي وألثمَه بروحي؟.. أم كيف لي أن أجثوَ أمام وجهك أُبلّله بدمعي؟

ـ لا تبكي... لا تبكي يا سماء عيني الشّاخصتين، دعيني هنا للقضاءِ الذي تخطّفني منك، واغسلي آثار ذكراي في نفسِك بماءِ النّسيان، وابحثي ففي دنيا الله الواسعة كثيرٌ من أمثال عصام.

ـ لا.. لا.. لن أذهب إلى أيّ مكان، ولن أجد السّلوى عند أيّ إنسان.

سأصبح بومةً باكيةً تنعب فوق الأطلال، وأمام مغرب الآمال، وعند كلّ زهرةٍ اعتصفْتها الرّياح، أو كوخٍ قوّضته الأعاصير، أو غصنٍ أيبستْه رياح الخريف...؛ بل لن أتجاوز دنيا هذا البئر الذي حللته، سوف أجعل منه عشَّ سعادتي التي طالما فكّرتُ فيها، وسأبحثُ في أعماقِه عن أمالي التي طالما بكيتُ من ورائها. سأعصبُ عينيّ بوشاحي الأسود، ثمَّ أهوي إلى القدر الذي سبقني إليه عصام!..

ولم يعد يستطيع البئر أن ينقل مزيداً من كلام عصام الخافت إلى أُذن وفاء، فقد اشتدَّت عليه وطأة الألم.. فقامت تحلّ الوشاح الذي يربط خصرها، وودَّعتْ دنياها بنظرةٍ دامعةٍ إلى النّجوم التي بدأت تتلألأ في السماء، كأنها عيون باكية ترمقها في تلك البيداء الخاشعة.

ثمَّ قامت على طرف البئر، وقد عصبتْ عينيها، وفي اللّحظة التي كانت تجمع فيها العزم على التردّي في ذلك المهوى السّحيق، أسعفها ما يُسعف كلّ مؤمنٍ بالله في مثل هذه الحال..

طاف حول نفسِها بارقٌ من الأمل.. وانتعش قلبُها بنسيمٍ عذبٍ من الرّضا.. رضى العبد المملوك بقضاءِ سيّده المالك، بل رضا المحبّ الواله بحكم محبوبه الأوّل.

فنزلت عن حافّة ذلك المهوى، وتراجعتْ في ضراعةٍ خاشعة إلى الخلف، وقد امتزجتْ كآبةُ الحزن على وجهِها بسكينة الرّضا والاستسلام.

وبعد قليلٍ.. كانت وفاءُ تستقبل بوجهِها شطرَ ذلك الماضي الذي ظلت طوال ثلاثة أيّام تحثُّ الخُطى في الانفلات منه، وعادت تسير أدراجَها، وحيدة، في دربٍ لا راحم لها فيه إلّا الله، ولا مُؤنِس لها فيه إلّا الأمل بما عند الله.

* * *

ضرب الإنسان مثلاً للقسوة بوحشيَّة الحيوان.. وإنما وحشيَّة الحيوان سلاحٌ من الوقاية أمكنه الله منه ليتّقي به أسباب الهلاك، فإذا ضمن الوحشُ حياتَه وطعامه لم يضق ذرعاً بحياة الآخرين.

وضربت عبرة الزّمن المثل بوحشيَّة الإنسان.. وإنما وحشيَّة الإنسان فيضٌ من أنانيّتِه، وظلالٌ لبغيه وحقده. وكلّما ضمن الإنسانُ مزيداً من أسباب حياتِه ورفاهيته، ازدادت في نفسِه عوامل البغي والظّلم.

من أجل هذا كان الإنسان هو وحده الحيوان الذي لا يُصلحه إلّا لجامٌ محكم من الشَّريعة والدِّين.



أرِتيريَا المُسلمَة تستصرخ ضَمَائر الأحرار!...[1]

هذا نداءٌ أتجه به إلى كلّ عربيٍّ ومسلم وعى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] من علماء، وكتّاب، ودعاةٍ وأئمّة، وخطباء وغيرهم.

أتجه إليهم لأسألهم: أوَ ما سمعوا أنَّ دولةً إسلاميّةً عربيّةً مستقلّة كانت في الوجود إلى ما قبل ثلاثة أشهر، ثمَّ ابتُلِعَتْ في ليلةٍ ظلماء، كما يبتلع الثعبانُ حمامةً هادئةً وادعة، وإذا هي اليوم أثرٌ بعد عين؟!.

أوَ ما سمعوا أنَّ أهلَ هذه الدّولة الإسلاميَّة العربيَّة يُحمَلون على التنصّر بالكره والإجبار، فلم يعودوا اليومَ أحراراً في صلاةٍ يصلّونها، أو صيامٍ يصومونَه، أو عيدٍ يستقبلونه.. وأنهم اليوم أتباعٌ لدين حاكِمِهم الجديد رضوا بذلك أم كرهوا؟!

أوَ ما سمعوا أنَّ حقوقَهم المدنيَّة المشروعة تسقط إن لم يرضوا بهذا كلّه طائعين، أو يُقتّلون تقتيلاً إن أبوا ذلك كارهين؟!.

---

(١) كان هذا النداء عام ١٩٦٠، أي قبل أن يغتصب مليون يهودي من ستمائة مليون مسلم مسجدهم الأقصى مع ما حوله من أرضهم التي باركها الله عزَّ وجل، أمَّا عدد المسلمين اليوم فأكثر من مليار بحمد الله..!!.

أوَما سمعوا استغاثَة المستغيثين وتوسّل المتوسّلين، يستصرخون من حولهم إخوانهم العرب والمسلمين باسم الدِّين الذي يدينون به، والعروبة التي يقدّسونها، والعدالة التي ينشدونها، أن ينتصروا لضعفهم ويعينوهم على أمرهم، أو يقولوا للظّالم ـ على أقلّ تقدير ـ يا ظالم؟..

أوَما سمعوا بدولة اسمها (أرتيريا) نفوسها تقارب أربعة ملايين، موقعها إلى جانب الحبشة كموقع الكويت من العراق، وكيف احتلّتها الحبشة احتلالاً أرعن، وكأنها تعيش في عصور شريعة الغاب، ثمَّ راح حاكمُها الصّليبي يعلن أنَّ هؤلاء كانوا قد ارتدّوا عن دينهم الأصلي، وأنّه تجري الآن عمليَّة إعادتهم إلى دين آبائهم الصَّحيح؟!

إنَّ عهدي بالشام ـ والله ـ أنَّ فيها أصواتاً إذا ارتفعت أصاخ لها سمع الإسلام من حولها، وأنَّ فيها أقلاماً إذا كتبتْ استيقظ لصريرها الدنيا، فما للأصوات خافتة لا تنطق، وما للأقلام جامدة لا تتحرَّك؟!

أيها العرب.. أيها المسلمون:

هل أطبق عليكم من الذّل ما أسكت أصواتَكم عن النّداءِ بأبسط حقٍّ من حقوق الإنسان فهي اليوم حبيسة لا ترتفع؟.. وهل أصابكم من الهوان ما كسرتم من أجله أقلامَكم فهي اليوم خشب للحريق؟.. أم هل تبلّدت منكم المشاعر فأنتم لا تشعرون بجسامة الخطب، وعظيم ما يلحقكم من إثم إن لم ترفعوا صوتكم ـ على أقلّ تقدير ـ بالنّكير؟..

أيها العرب.. أيها المسلمون:

إن كنتم تهبُّون لصوت الإسلام وشعاره، فاعلموا أنَّ أربعة ملايين من إخوتكم وأخواتِكم وأطفالكم يُكرَهون في وضح النّهار على ترك إسلامهم دون اختيارٍ منهم ولا رضا، وبدون أيّ جريرةٍ منهم ولا جرمٍ، فماذا أنتم فاعلون؟

وإن كنتم تهبُّون لشعار العروبة: فاعلموا أنَّ أربعة ملايين من العرب لغتهم الرّسميَّة هي العربيَّة؛ واعتزازهم في الدّنيا إنما هو بجواركم، هم عربٌ مثلكم يا عرب، يستغيثون بكم بلسانٍ عربيٍّ مبين، هم اليوم يُسامون عذاب الاستعمار والتّقتيل والتّذبيح على الرّغم من وجود شيءٍ اسمه هيئة الأمم، ورغم وجود قانون اسمه: حفظ الحرّيّات وحقّ تقرير المصير. فماذا أنتم فاعلون أيها العرب أمام استغاثة إخوانكم هؤلاء!.

وإن كنتم إنما تفهمون بلغة الوطنيَّة، فاعلموا أنَّ كلَّ ما في ملك هذه الدّولة من ثرواتٍ معدنيّةٍ وحيوانيّةٍ وغيرها ـ وهي كثير ـ يُجرَّد من يد أصحابه ليذهب رأساً إلى يهود فلسطين، إنهم اليوم يُجرَّدون من أموالهم التي في جيوبهم، ومن طعامهم الذي يوفّرونه لأطفالهم ليُقذف بكلّ ذلك في جيب أعدائكم اليهود.

يا أيها المسلمون من عربٍ وأعجام، ويا أيها العرب من مسلمين وغير مسلمين، يا أيها النَّاس الذين يعتزّون ببقيّةٍ من خفقات الإنسانيَّة في صدورهم: هل تُصاب الإنسانيَّة بكارثةٍ وظلمٍ أكثر من أن يجتمع عليها كلّ من سلب الحريَّة في الدِّين، وسلب الوطن أو الأرض، وسلب الملكيَّة للقمةِ العيش، ثمَّ سلب الحياة نفسِها إن حصل أيّ تمنّعٍ أو تردّد؟!..

في أيّ عصرٍ من عصور التاريخ السّوداء انحطّتْ على أُمّةٍ من النَّاس هذه المظالم كلّها، هل حصل شبه ذلك في تاريخ الإنسان القديم، أم في عصر محاكم التّفتيش، أم في ظلّ طغيان التتر والمغول؟!.

ألا فليتشرّف حماة (شرعة حقوق الإنسان) بهذا العار تعلّقه على جباههم يد الدّهر والتاريخ.

ألا فلتخرس تلك الأصوات التي تزعم أنها تنتصر لحرّيَّة الإنسان، وتحرس حقَّه وكرامته في الحياة.

إنني والله أكتب هذه الكلمات وإن قلبي يكاد يتفطّر، إنني أُحسّ أنّني في هذه الكلمات التي أكتبها إنما أُشيّع أملًا كان حيًّا فمات، إنّني أشعر بمنتهى اللّوعة والأسى إذ أنظر فلا أجد إلّا صرير قلمي الضَّعيف ينوح ويتألم!.

حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوَّة إلّا بالله العليّ العظيم، اللَّهُمَّ إنِّي قد بلّغتُ فاشهد(١).



(١) هذا النشيد أتوجه به اليوم إلى الجماعات الإسلامية التي تتناحر اليوم مع المسلمين على أرض الإسلام، وأهيب بها أن تقلع عن تسليتها المهلكة هذه، وأن تتلاقى صفًّا واحداً على الثغر الجهادي الأول، بل الأوحد، حيث العدوّ الإسرائيلي الذي استلب القدس والمقدسات، وحيث إخوان لهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه من السعي إلى استعادة الحق وتمزيق الباطل والقضاء على صلفه. إنهم أحوج ما يكونون اليوم إلى النصير والمعين، فمن كان يبغي الجهاد حقّاً فلينخرط في سلكهم وليقف في صفهم، ولا يشغلنّ نفسه عن الجهاد بالهرج الذي حذر منه رسول الله ﷺ.

القسمُ الثَّالث

كُتبٌ وشخصيات

السَّاعة الخامسة والعُشرون

تأليف: كونستانتان جيورجيو

«إن هذا الانبهار الآلي سيعقبه اعتراف بالمواهب الإنسانية، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك، من آسيا. ولكن ليس من روسيا، لأن الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي.. سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي.. إنه لن يضيء بنور النيون خطوط الفكر والقلب. إن رجل الشرق سيجعل من نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي».

من رواية «الساعة الخامسة والعشرون».

إنَّ الحديث عن كتابٍ ظهر منذ سنواتٍ، يبدو ولا شكّ كالقيام بعملٍ فات أوانُه، ولكني مع ذلك أجدني مندفعاً بحماسٍ إلى أن أُعرّف القرّاء على رواية: **السَّاعة الخامسة والعشرون**، التي مضى أوانُ الحديث عنها من الوجهة الأدبيَّة التقليديَّة أو الدّعاية المادّيَّة..

ذلك لأنَّ المسرح الذي مُثلت عليه هذه الرّواية لا يزال قائماً بجميع أجوائه ومناظره، والأبطال الذين نسجوها لا يزالون على خشبة المسرح يكرّرون الرّواية من أوّلها كلّما انتهوا إلى آخرها.

إنَّ المسرح يبدأ من أدنى الشّرق الشيوعي إلى أقصاه، ومن أدنى

الغرب الآلي إلى أقصاه. إنَّه ذلك «العالم المتمدين الآلي» على حدّ تعبير المؤلّف.

أمَّا أبطال الرّواية، فهم كما قال المؤلّف: «إنَّ أشخاص روايتي سيكونون من الرّجال الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضيَّة! ولمَّا كان (هومير) نفسه يعجز عن كتابة قصَّةٍ أبطالها مليارات من الأشخاص، فإنني سأمثّلهم في عددٍ قليلٍ لا يتجاوز العشرة. إنَّ هؤلاء العشرة سيحيون الحوادث نفسها التي يحياها الآخرون».

إنَّ مثل هذه الرّواية في اعتقادي تهمّ الإنسان المعاصر اهتماماً كبيراً لأنها قصّته.

ومن المؤسف جدّاً أنَّ بني الإنسان اليوم بحاجةٍ إلى أن يقرأوا قصَّة حياتهم في كتاب، إذ إنهم في ذهولٍ تامٍّ عنها!... إنَّ مثل هذه الرّواية لا تقدم بفوات سنواتٍ على كتابتِها، لأنها متجدّدة في حياة هذا الإنسان.. إنسان ما بعد الحرب العالميَّة وقبلها.

غير أنَّ هذا لا يعني أني سأقدّم عصارةً تامَّةً عن هذه الرّواية الهامَّة في سطور هذا المقال، إذ الواقع أنني لم أصل بعد من القدرة الكتابيَّة إلى أن أطوي حديث خمسمائة صفحة في كلام خمس صفحات. غير أنني سأسمعك أجراس الخطر التي تدقّها رواية (السَّاعة الخامسة والعشرون) على سمع العالم كلّه.. إنها الأخطار التي بدأ العالم الآلي يستيقظ مذعوراً منها، على حين يحلم عندنا السّطحيّون البسطاء فيها بالنّعيم المقيم والسّعادة الوارفة.

ومن حسن الحظّ أنَّ هذه الرّواية لا يمكن ـ كما يقول مترجمُها الفرنسي ـ أن تُستغَلَّ من قبل حزبٍ بعينه أو دولةٍ بعينها، لأنها تمدّ إصبع

الاتهام إلى مجموعة (العالم المتمدين الآلي) بالجريمة. وهذا في الحقيقة أثمن ما في هذا الكتاب.

* * *

مؤلّف هذه الرّواية ـ كونستانتان فيرجل جيورجيو ـ ولد عام ١٩١٦ في رومانيا، درس الفلسفة واللّاهوت في جامعتي بوخارست وهيدلبرج. ويبدو أنّه ضمّن روايتَه هذه مجموع النتاج الفلسفي الذي استطاع أن يفهمه من العالم الذي حوله، على ضوءِ دراساته في كلّ من الفلسفة واللّاهوت.

إنّه يقرّر بأنّ العالم يعيش اليوم في السّاعة التي تلي الأخيرة من الزّمن، السّاعة الخامسة والعشرين، أي ساعة الصّفر، التي تتقلّص فيها الحياة عن بني الإنسان، ليصبح كلّ شيءٍ على وجه الأرض آلةً جامدة ومادّةً ميّتة.

والسرّ هو اندماج الإنسان في الآلة حيال كلّ شؤونه الخاصّة والعامّة، وهو ما يعبّر عنه المؤلّف بـ «الرّقيق الفنّي»: «إنّ الرّقيق الفنّي هو الخادم الذي يقدّم لنا يوميًّا، ألف خدمة، لم نعد نستطيع الاستغناء عنها، إنّه يدفع سيّارتنا ويُعطينا النّور، ويصبّ لنا الماء لنغتسل، ويحمل لنا مخابراتنا ورسائلنا، ويروي لنا قصصاً لنتسلّى عندما ندير زر المذياع، إنّه يخطّط لنا الطّرق ويزيل الجبال من أماكِنها».

يقرِّر المؤلِّف أنّ عدد العبيد الفنّيين اليوم على سطح الأرض يفوق عشرات المليارات، على حين لا يزيد عدد البشر على مليارين!..

وإذا نظرنا إلى أنّ (العبيد الفنِّيّين) يسيطرون اليوم على النّقاط الحيويّة في المجتمع العصري من جيش، وخطوط مواصلات، وتموين وصناعة ـ أدركنا الخطر البيّن!.

إنَّ مجتمعاً فيه عشرات المليارات من العبيد الفنّيين وحوالي مليارين من البشر، مهدّد من قبل أكثريّةٍ (بروليتاريَّة)، ذلك أنَّ الإنسان مرغم على معرفة عاداتِ وتقاليد هذا الرّقيق الجديد ليتسنّى له استخدامه والاستفادة منه بشكلٍ أكمل. وهكذا فإنّنا سنتخلّى يوماً ما عن صفاتِنا الإنسانيَّة وخصائصها تدريجيًّا، لنندمج في الحركة الآليَّة، ونعتنق أسلوب الحياة لدى عبيدنا الفنيّين... ومعنى ذلك أنَّ الحركة الميكانيكيَّة الجافّة ستحلّ في الإنسان محلّ الحركة الشعوريَّة والإحساس القلبي.

ولقد بدأ هذا فعلاً، فالرّجل العصري اليوم يعرف كيف يحتقر الكائن البشري، إنَّه ينظر إلى زملائه من بني الإنسان نظرةً ميكانيكيّةً مجرّدة، على اعتبار أنهم ليسوا إلّا قطع غيار وعناصر يمكن استبدالها، في آلةٍ ضخمة هي الدّولة. إنَّ هذا أمر طبيعيّ حينما تصطدم أقليةٌ بشريَّة صغيرة بأكثريَّة الآلة الطَّاغية.

غير أنَّ هذا كلّه ليس إلَّا بداية الفاجعة، أمَّا المأساة الكبرى فهي ما سيتفجَّر من وراءِ ذلك: «... إنّنا لن نستطيع أن نتحوَّل إلى الآلات، غير أنَّ الاصطدام بين الحقيقتين: الحقيقة الآليَّة والحقيقة البشريَّة سيولّد الكارثة.. سوف لن يكون حينئذٍ للمرءِ حقٌّ في الحياة، بل سيُعامَل وكأنّه مكبس أو قِطعة آلةٍ حتى إذا شاء أن يعيش عيشةً إنسانيّةً تعرّض لسخريَة العالم بمجموعِه.

إنَّ هذه الثورة ستحدث على سطح الأرض كلّها، ولن نستطيع الاختفاء لا في الغابات، ولا في الجزر، ولا في أيّ مكان. سوف تتشكّل جيوش العالم كلّه من مأجورين يناضلون ويكافحون من أجل تدعيم المجتمع الآلي الذي لن تعيش فيه الفرديَّة».

ولكنَّ المؤلّف لا يلبثُ أن يُشير إلى مشرق الأمل في تخليص الأقليّة البشريَّة من كارثة ثورة الآلة. إنَّه الشرق ولا شكّ، ولكن باستثناء روسيا: «.. إنَّ الرّوس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي، فلن يعيشوا ليروا الإشراق، سيكتسح رجلُ الشّرق المجتمع الآلي، وسيستعمل النّور الكهربائي لإنارة الشّوارع والبيوت، ولكن لن يبلغ به مرتبة الرّقيق، ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم في بربريَّة المجتمع الآلي الغربي. إنَّه لن يضيء بنور (النّيون) خطوط الفكر والقلب».

هذه هي فلسفة رواية (السَّاعة الخامسة والعشرون).

غير أنَّه من الجدير أن نلاحظ هذه الفلسفة نفسها من حوادث الرّواية وتسلسلها.

والواقع أنَّ عنصر الاختلاق في حوادثها يكاد يكون مفقوداً من أساسه، كما يقول المترجم الفرنسي في مقدّمته عن هذه الرّواية، ذلك أنَّ معظم ما في الكتاب إنما هو ترجمة وقائع شخصيَّة دقيقة بالإضافة إلى أنَّ المؤلّف وزوجته عانيا شخصيًّا بعضاً من أقسى المحن المدرَجَة فيه. وهذه خلاصة الرّواية:

* * *

(موريتز) شابٌّ هادىءٌ يقيم في قرية فانتانا التّابعة لرومانيا، مضت على زواجه من سوزانا سنة كاملة بعد أن لاقى في سبيل ذلك صعوباتٍ شتى ذلّلها أخيراً والدُه الرّوحي القسّ (كوروغا) إلى جانب مختلف المعونات الماديَّة التي قدّمها له.

لمح رئيس مخفر (فانتانا) ذات يومٍ زوجة (موريتز) فشغف بها حبّاً، وراح يحوم حولها، ولكنَّها كانت تظلّ تصدّه وتتأبّى عليه. فلم يجد رئيس

المخفر سوى التخلّص من زوجها بشكل ما، وراح يدسّ اسمَه في قائمة اليهود الذين أرسلت الدّولة تبحث عنهم لزجِّهم في معسكرات السّخرة، إذ كانت الحرب العالميَّة الثانية إذ ذاك على أشدِّها.

وفي معسكر السّخرة، أخذ موريتز يحاول عبثاً أن يُوضح للمسؤولين والمشرفين أنَّه ليس يهوديًّا، مستعيناً بكلّ ما يملك من أدلّةٍ على ذلك حتى الكشف عن الأماكن الخاصّة من جسمِه!.. كان عذر المسؤولين أنَّ الخطيئة ليست خطيئتهم ولكنَّها غلطةُ رئيس المخفر. أمَّا وقد وقعت الغلطة فإنَّ التصرّفات القانونيَّة التي تليها أمرٌ لا مردّ له، إنَّ سير القانون يجري أوتوماتيكيًّا، وإنَّ من العبث التّفكير في إمكانيَّة إعادة الآلة العاملة عن حركةٍ قامت بها!..

وراح الكاهن (كوروغا) يستعمل نفوذه لدى محافظ المنطقة ولكن دون جدوى أيضاً، وكان فيما قاله المحافظ بعد أن أكّد له الكاهن أنَّ موريتز ليس يهودياً:

«إنَّ الأمر سواءٌ، فهو باعتباره في واحدٍ من معسكرات اليهود، يقع تحت سلطة قوانين وأنظمةٍ مرعيَّة خاصّة، لا تدخل في نطاق سلطتي».

وبعد أن أمضى موريتز شتاءً كاملاً في ذلك المعسكر، جاء أمرٌ بتحويل المعسكر إلى الحدود الرّومانيَّة الهنغاريَّة لإقامة تحصيناتٍ على الحدود.

وهناك فكّر موريتز مع ثلاثةٍ من اليهود في الهرب إلى أمريكا عبر هنغاريا، غير أنّه ما إن وصل إليها حتى تخلّى عنه زملاؤه بحكم ظروفٍ مختلفة، وما هي إلّا أيَّامٌ قليلة حتى وجد نفسه في قبضة السّلطات الهنغاريَّة.

كانت هنغاريا في ذاك الوقت تبحث في ما طلبته ألمانيا منها، لقد أرسلت تطلب خمسين ألف عاملٍ منها، كان عليها أن تجمع هذا العدد من ذوي الجنسيَّات المجهولة لديها، لتفي لألمانيا بالعهد مقابل ما ستناله منها من امتيازات، وهكذا باعت هنغاريا خمسين ألف إنسان بينهم موريتز لألمانيا!

قال رئيس الصحافة الهنغاريَّة لابنه: أرأيت؟ لقد بعنا مخلوقاتٍ بشريةً!.. إن هذا يعني أننا لا نملك ذرةً من الاحترام للكائن الحي.

- ولكن ذلك ضرورة.. إننا نحترم كل إنسان بحسب قيمته.

إنك تحترم الرجل كما تحترم سيارتك لأنها تشكِّل بالنسبة إليك قيمة معيَّنة.

إنَّ المجتمع الآلي قد أدخل من جديدٍ احتقار الكائن الإنساني.. لقد تحوَّل الإنسان اليوم إلى مقياس اجتماعي فحسب.

بعد أيَّام، وصل إلى ألمانيا قطار ضخم يحمل البضاعة البشريَّة المرسلة من هنغاريا، وكان موريتز جزءاً لا يتجزّأ من هذه البضاعة.

قال موظف المعمل الألماني لموريتز ينبّهه:

- إنَّ الآلات لا تقبل الفوضى والإهمال.. إنها لا تحتمل الكسل الإنساني.. إنَّ الإنسان الآلي لا يمكن أن ينطبع برغبة الإنسان البشري. فعليك أن تساير رغباته وتوازن حركاتك مع حركاته. إنَّ هذا طبيعيٌّ جدّاً لأنّه هو العامل الكامل، أمَّا أنتَ فلستَ كاملاً.

كان عمل موريتز هو أن يتلقّى من آلة في المعمل صناديق تقذف بها تباعاً، كان عليه أن يجعل من تفكيره وعضلاته حركة آلية متمّمة منتظمة مع حركة زميله الآلي. (كان إذا ما أوى إلى فراشِه مساءً يشعر بإحساسٍ غريب، يخيّل إليه أنّه ينحني ويلتقط صندوقاً. كان نومُه خلواً من الأحلام).

كان كلّ شيءٍ يتمّ بصورةٍ آليَّة في ذلك المعمل الهائل، ولم تكن الخلائق التي تتحرَّك خلال الآلات إلَّا أجزاءً آليةً للمعمل.. حتى تهيئة الممارسة الجنسيَّة مع النِّساءِ كانت تتمّ بأسلوب حيوانيّ لقاحي مجرَّد، كتصرّف ميكانيكيٍّ لمجرَّد زيادة الإنتاج!...

استطاع أن يفرَّ موريتز فيما بعد إلى أمريكا مع خمسةٍ من زملائه الإفرنسيِّين. ولكنَّ الأمريكان ما إن اطّلعوا على أصله الرُّومانيّ حتى تصرفوا معه بشكلٍ آخر. قالوا له: إنّكَ عدوّ للولايات المتّحدة!..

ـ لكنّني لم أرتكب شيئاً ضدَّ الولايات المتّحدة.

ـ ألست رومانيًّا؟ إنَّ هذا يعني أنَّك عدوٌّ للولايات المتّحدة بصورةٍ آليَّة. ثمَّ أخرج الحاكم الأمريكي من درج مكتبه ورقةً راح يقرؤها بصوتٍ مرتفعٍ:

ـ البلاد العدوّة: رومانيا، هنغاريا، فلندا، ألمانيا، اليابان، إيطاليا، إنَّ هذا واضح أليس كذلك؟. هذه هي التّعليمات.

التقى موريتز في السّجن بأمريكا، بابن والده الرُّوحي الكاهن كوروغا (تريان) وزوجته الصحفيَّة، لقد جمعهم سببٌ واحدٌ، كان تريان أديباً مفكّراً ينتج الرّوايات العالميَّة، كان يجلس إلى زوجته وصديقه موريتز ليقول لهم:

- «إنَّ الأمريكيّين غير حاقدين علينا بل إنهم لا يشعرون بوجودنا!.. إنَّ الحضارة الغربيَّة في مرحلتها الأخيرة لا تحفل بالشخص.. إنّنا هنا عديمو الوجود، إنَّ وجودنا مقتصر على اعتباره كسراً في حساب الكميَّات الصّغرى.. إنَّ المجتمع الغربي عاجز عن الاعتراف بالرّجل الحيّ، وهو عندما يوقف شخصاً أو يقتله فإنَّه إنما يوقف رقماً لا شخصاً حيًّا، إنّك مثلاً لست إلَّا جزءًا من رومانيا وقد أُوقف هذا الجزء!».

والحقيقة أنَّ أبرع مظاهر التّصوير في هذه القصَّة يبدو حينما يدير المؤلّف على لسان (تريان) الكاتب ابن الكاهن كوروغا التعليقات اللّاذعة السَّاخرة على مشكلة المجتمع الآلي المتمدين. كان يسأله موريتز حينما يراه منكبّاً على الكتابة، عمَّا إذا كان يواصل كتابة رواياته في المعتقل، وبين جدران السّجن أيضاً.

فيجيبه تريان:

- إنّني أكتب عن حيوانٍ جديدٍ ظهر على سطح الأرض في الآونة الأخيرة، وهذا الحيوان الجديد اسمه: المواطنون!.. إنهم لا يعيشون في الغابات ولا الأدغال، ولكن في المكاتب، لقد ولد هذا الحيوان الغريب من اتحاد الرّجل مع الآلة. إنَّهم نوع من أبناءِ السّفاح. إنَّ لهم مقاييس وأجهزة تشبه الساعات بدلاً من القلوب، إنها سلالة غريبة اكتسحت الأرض.

ذاب كلٌّ من موريتز وتريان تحت وقع التَّعذيب الشديد الملوَّن، وراح موريتز يستعمل آخر وسيلةٍ لتحرير نفسِه. كتب عريضةً مطوَّلة للمسؤولين، قص فيها جميع ماضيه التّعيس الذي كان يُدفع في طريقِه دفعاً دون أن يملك وسيلةً للوقوف أو حتى العثور على اليد التي تدفعه.

قال لهم: «إنني إنسان، فإذا كنتُ لم أُسيء إلى أحد، فلا يحقُّ لأحد أن يسجنني ويعذِّبني، إنَّ حياتي ملكٌ لي، ولا يحقُّ لأحدٍ أن يمسّ حياتي بدون سبب».

بعد ثلاثة أيام استُدعي موريتز للاستجواب، سأله المحقّق: كيف تكتب كلمة موريتز؟ «أتكتبها بحرف التاء أم بحرف الزّاي»؟ فأجاب: أكتبها على الطريقتين. فقال المحقّق: يمكنك أن تذهب!. وكان هذا كلّ جوابهم على عريضتِه المطوّلة.

انتهت الحرب.. ودخل الشيوعيّون فانتانا.. وحُوكم الكاهن أمام (محكمة الشعب) فحُكم عليه بالإعدام رمياً بالرّصاص، غير أنَّ جثّته أُتيح لها مَن يتداركها وفيها بقيَّة من روح، حيث كانت سيَّارة أمريكيَّة تمرّ تلك السَّاعة بجنبه فأقلّه الجنود إلى أقرب مستشفى.. وهكذا كُتِبَ للكاهن أن يحيا من جديدٍ ليلتقي بابنه وتلميذه في السّجن باعتباره من دولةٍ (عدوّة).

وهناك.. كان يلفظ الكاهن أنفاسه الأخيرة قائلاً:

ـ «إنَّ مياه الرّاين، والدّانوب، والفولغا، فائضةٌ بدموع العبيد. لسوف يشفقُ الله على البشر أخيراً ويصبح العدد الضَّئيل من بني الإنسان الذين احتفظوا بإنسانيتهم هناك، في الشرق، طافياً فوق أشلاء وحطام هذا التدمير الاجتماعي كما حدث لنوحٍ في سفينتِه من قبل..».

مات الكاهن كوروغا على مرأى من ابنِه تريان، فأعقب ذلك حسرة شديدة في نفسِه، وأعلن من يومِها الإمساك عن الطّعام إلى الموت!..

قال له رئيس مساجين المعسكر، وقد مضى على إمساكِه عن الطّعام أسبوعٌ كامل:

ـ «إنَّ لدينا عشرين ألف سجين في المعسكر، علينا أن نهتمّ بشؤونهم، إنَّ المشاكل الخاصة لا ينبغي أن تحتلّ حيّزاً في تفكيرنا...».

فقال تريان: «إنّك لا تُعنى بأيّ سجينٍ في هذا المعسكر، إنّك تهتمّ بآلةٍ إداريَّة، إنَّ المخلوقات في هذا المعسكر لا يجب أن يُخلط بينها وبين تلك الآلة التي تقتصر على سجلّاتٍ وآلاتٍ كاتبة وأرقام، إنّك تهتمّ بالأوراق فقط، حتى أنا، إنّني لا أظفر باهتمامِك بصفتي إنساناً، إنّني بالنسبة إليك لستُ إلّا كسراً من وحدةٍ مقسَّمةٍ إلى عشرين ألف قسم...».

كان الوسيلة الأخيرة لحمل تريان على الأكل هو نقله إلى مستشفى المجانين، بزعم أنَّ لديه خلطاً وتشويشاً في تفكيره وتصرّفاته، وعندما مثل أمام الطَّبيب وراح تريان يشرح له الحقيقة، أبى الطبيب أن يصدّق شيئاً من كلامِه، لأنَّ ما جاء في بطاقته الرسميَّة ينصّ على أنَّه غير متزوّج وأنَّ به مرضاً عقليًّا منذ مدَّة.

أكَّد له تريان أنَّه سليم التَّفكير والعقل، طالباً منه أن يفحصه الفحص الدَّقيق لإثبات ذلك، ولكنَّ الطبيب لم يزد في جوابه على قولِه:

ـ «إنّني رجل علم، وضميري المهني يمنعني من تصديق كائنٍ مَن كان دون الاستناد إلى أدلّة»!..

ولكنَّهم ما لبثوا أن أعادوه إلى المعسكر بعد أن لم تُجدِ الوسيلة شيئاً. اتَّصل في المعسكر بزميله موريتز؛ ليودِّعه الوداع الأخير، ثمَّ انطلق نحو باب المعسكر، حيث يقف الحارس في برج المراقبة ببندقيّتِه. كان ينتظر ولا شكَّ نهايتَه على يد الحارس أمام باب المعسكر في طريقِه إلى الحريَّة، وهكذا كانت النّهاية..

أمَّا موريتز فقد انتهى به المطاف إلى خارج المعسكر. . فعاد إلى بيتِه بعد أن غاب عنه ثلاثة عشر عاماً. كان أوّل يومٍ منها غلطة من رئيس المخفر، ثمَّ استمرَّت الغلطة تتابع آليًّا بفعل الحضارة الآليَّة ثلاثة عشر عاماً!. .

والآن، هل أُتيح للمغفّلين من عُشاق الحضارة الغربيَّة أن يستيقظوا من غفلتِهم، ليدركوا أنَّ النّور الذي يبهر أبصارهم ليس إلَّا سراباً موهوماً، وأنَّ شراب المدنيَّة الحديثة ليس إلَّا ذلك السُّمّ الذي ينتحر بتجرعّه شبّان أوربا اليوم؟

ألا إنَّ التّاريخ سوف يُعلِن: لقد شهدت نهايةُ القرن العشرين انهيارَ أوربا، لقد اختنقتْ بالمدنيَّة، وجنَّت باللذَّة، وذابت تحت مكابس الآلة.



ليلة معَ روائع إقبال

سهرتُ البارحة مع الدكتور محمّد إقبال... ولازمتُه في سياحةٍ طويلةٍ بين أنحاءِ العالم.

وقفتُ أسمع شجوَه في جامع قرطبة.. وخشعتُ معه وهو يبعثُ اللّوعةَ والأسى فوق رُبى فلسطين.. وتأملتُه وهو يجوب على ضفاف ـ التّايمز ـ يعيشُ في لهب الغرب ولا يحترق.. وأنصتُّ إليه وهو واقفٌ فوق هضاب (بنجاب) يفتّت فؤادَه في نصائح يبعثها إلى أُمَّة العرب.. وتبعتُه وهو يتسلّل إلى خمائل الرّبيع يشربُ مِن كفّها النَّشوة، ويسقيها من كبده كؤوس فلسفتِه ووجدانه.. ثمَّ لازمتُه وهو يستقبلُ بوجهه شطر الحجاز، يبثّ رمال الطريق شوقه، ويُناشد دليل الركب أن يتمهَّل في سيره، ويرفق بقلبِه الخفّاق، وتهيج في أحشائه كوامن الحبّ، فتنطلق قيثارة شعره تهزّ مِن حوله وجه الصَّحراء..

وعدتُ من صحبتي معه، وقد نالني من شعره ما لم ينلني من شعر أيّ شاعر..

عدتُ وأنا أجد جمرَ حبّه في قلبي، وأنّات شجوه في حلقي.. وآمنتُ أنَّ هذا هو الشَّاعر الذي تجد في شعره رائحةَ قلبه المشوي، وآمنتُ أنَّ هذا هو الشّاعر الذي ينبغي أن يُحتفى بشعره، ويحظى بالانحناءِ والإجلال، لأنَّ شعره رسالة، وحبَّه إيمان، ووجدانَه انتفاضة روحيَّة،

وهذه الصِّفات الثّلاث من المشاعر جديرة بأن تجعله مجدّد عالمه الذي يعيشُ فيه..

أسمعه وهو يتلظّى بلذّةٍ إذ يقول هذه الأبيات في جنبات جامع قرطبة:

«.. إنَّ بيني وبينكَ أيها المسجد العظيم نسباً في الإيمان والحنان، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان، إنَّ الإنسان في تكوينِه قبضةٌ من طين هذا العالم، ولكنَّ له صدراً لا يقلّ عن العرش كرامةً وسموّاً، فقد أشرق بنور ربِّه، وحمل أمانةَ الله. إن الملائكة تمتاز بالسّجود الدّائم، ولكن من أين لها تلك اللّوعة التي امتاز بها سجود الإنسان».

ويتوجَّع قائلاً في ختام هذه القصيدة: «إنَّ كلّ مأثرةٍ وإنتاجٍ لم تذب فيها حشاشة النَّفس مشوّه وناقص، وكلّ رنّةٍ أو نشيدٍ لم يتفجّر معها دمُ القلب ضربٌ من التسلية والعبث، ولا مستقبل له في عالم الأفكار».

وأصْغِ معي إليه وهو ينتشي زهواً وفخراً بنسبتِه ـ وهو الهندي الأعجمي ـ إلى الحجاز ونوره، تلك النّسبة التي أحالتْ نفسَه إلى درّةٍ لم تحترق بأتون الغرب وحضارتِه:

«لم يستطع بريق العلوم الغربيَّة أن يبهر لُبِّي ويُغَشِّي بصري، ذلك لأني اكتحلتُ بإثمد المدينة».

«مكثتُ في أتون التعليم الغربي وخرجتُ منه كما خرج إبراهيمُ من نار نمرود..».

أمَّا لوعة إقبال على شباب المسلمين وضياع شخصيَّتهم في شخصيَّة الغرب، وفراغ قلوبهم من ألم الحبّ، فلوعة مريرة تُبكي أُولي الضمائر

والوجدان، يقول: «أي ربّ! إجرحْ أكبادَ شبابك بسهام الآلام، وأيقظْ في صدورهم الآمال النَّائمة، ارزقهم لوعةَ القلب، وامنحهم حبِّي وفراستي.. أي ربّ، ارزقهم أنيني في السَّحر، وأنبتْ لصقور الإسلام القوادم والخوافي..».

ويقول: «إنَّ الشباب المثقّف فارغ الأكواب، ظمآن الشّفتين، مصقول الوجه، مظلم الرّوح، يبني الأجانب من ترابهم الإسلامي كنائس وأدياراً.. شغفتهم الحضارة الغربيَّة فيمدّون أكفّهم إلى الأجانب ليتصدَّقوا عليهم بخبز شعير.. يتراءى لكَ أنَّ أحدهم حيٌّ يُرزق، ولكنَّه في الحقيقة ميّتٌ استعار حياته من الغرب.. وأنت يا مربّي الجيل، حيَّا الله شبيبتَك، علِّمهم الاعتزاز بالنّفس، والاعتداد بالشخصيَّة، علِّمهم كيف يشقّون الصّخور، ويدكّون الجبال، فإنَّ الغرب لم يعلّمهم إلّا صنع الزّجاج».

ويتّجه إلى العرب بزفراتِه قائلاً: «أسفاً على الخمود والجمود يا عُمّار البادية.. كنتم أمّةً واحدةً فصرتم اليومَ أُمماً، وكنتم حزباً واحداً فأصبحتم أحزاباً.. يا رجل البادية، ويا سيّد الصَّحراء، عُد إلى قُوَّتك وعزمِك، وامتلك ناصيةَ الأيَّام، وخذ عنان التّاريخ، قُدْ قافلة البشر نحو الغاية المُثلى.. لن تسَعكم الصّحراء والفيافي فاضربوا خيمتَكم في وجودكم الذي يسع الآفاق، كونوا أسرعَ من العاصفة، وأقوى من السّيل، حتى تُسرع ركائبُكم في مضمار الحياة وتسبق الرّيح».

ويقول أخيراً: «معذرةً يا عظماءَ العرب، لقد أراد هذا الهنديّ أن يقول لكم كلمةً صريحة، فلا تقولوا أيها الكرام: هندي ونصيحة للعرب؟ إنّكم كنتم أيها السَّادة أسبقَ الأمم إلى معرفة حقيقة الدِّين، إنَّه لا يتمّ الاتصال بمحمّدٍ عليه السلام إلّا بانقطاعِكم عن أبي لهب، ولا يصحّ

الإيمانُ بالله إلّا بالكفر بالطّاغوت. . إنَّ العالم العربي أيها السَّادة لا يتكوَّن بالثّغور والحدود فقط، وإنما يقوم على أساس هذا الدِّين الإسلامي وعلى الصّلة بمحمَّد ﷺ».

أمَّا حبُّه وهيامه فيبدوان في قوله: «إنِّي هائمٌ في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم بالأمس حرارة ونوراً. وقد قضيتُ حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضتْ، وأُولئك الأبطال الذين رحلوا. . لقد سالتْ في شعري دموعي ودمائي، وفاضت فيه مهجتي، ودعائي أن لا يُخفِّف اللهُ مني هذا الجوى، بل أسأله المزيد والجديد. . .».

ـ فيا أيها الشبان الباحثون عن الحبّ في الوحل. . ويا أيها الباحثون عن النّشوة في صهباءِ أوربا. . ويا أيها الباحثون عن الشّعر والأدب تحت أقدام النّساء. .

يا شباب العرب والإسلام: تعالوا فتعلّموا سمُوّ الحبّ ولوعته من كبد إقبال، تعالوا فاشربوا الصّهباء من المنهل الأقدس الذي شرب منه إقبال، تعالوا فادرسوا الشعّر والأدب في مدرسة إقبال. . مدرسة أمجادكم التي وقف ينشج على أطلالها أعجميّ من الهند، بينما ترقصون أنتم على أنغام القيثارة التي تنبعثُ من هناك. . من مواخير أوربا!!.



محمّد الخضر حسين: عالِم فَذّ ومُجاهد مِنَ الرَّعيل الأوّل

منذُ أيَّامٍ نُعي إلى العالم الإسلامي في معظم أقطاره، وفاة أحد أعلامه الخالدِّين، هو فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين المغربي التّونسي[١].

ومن الطّبيعيّ أن يُحدث صدى هذا النّبأ المؤسف هزّةً قوّيةً بين الأوساط، وأسى عميقاً في النّفوس، وفراغاً بيّناً في عالمنا الإسلامي الشّاسع.

فلقد كان الشيخ الجليل من أُولئك القلّة الذين لا يجود بهم الدّهر إلَّا نادراً، وكان في عملِه الدّائب كأنما يستشعر دائماً أنّه لم يُخلَق لنفسِه وإنما للإسلام، وأنَّ الرّوح التي تخفق بين جنبيه ليست شيئاً آخر غير روح الإسلام التي يجب أن تظلَّ خفّاقةً في عالمه الذي يعيشُ فيه.

ولذا فقد كان يلتمس في الدّعوة إلى الحقّ والثورة على الباطل، وإنارة سُبل الإسلام، غذاء حياتِه وراحة نفسِه، تماماً كأيّ شخص يبحث عن هذه الرّاحة في لقمة الطّعام وجرعة الشراب وأسباب الدّنيا..

ويبدو أنَّه ـ رحمه الله ـ لم يكن ليشفي غلّة نفسِه أن يخدم الإسلام من الطّريق التي يسلكها معظم أمثاله من الشيوخ والعلماء فقط، فشقَّ أمامه

(١) كان ذلك في عام ١٩٥٨.

كلَّ طرق الفكر والفنون، وجنّدها كتلةً واحدةً مجتمعةً لخدمة الإسلام والعالم الإسلامي. فلقد خدم الإسلام أديباً لامعاً، وجاهد في سبيله مناضلاً قويًا، وتصدّى لنصرته عالماً من أفذاذ علماءِ التشريع وأُصوله، وكان أروع قرينٍ له في كلّ ذلك إخلاصه القويّ الغريب.

لقد تناوبتْه مراحل مختلفة متتالية من صور الحياة، وهو عند كلّ مرحلة منها لا يُلقي عصاه إلّا ليتّخذ منها ميداناً للجهاد الدّائب في إخلاصٍ راسخٍ، لا يميله عنه شيءٌ من زعازع الحياة ورياحها.

ابتدأتْ أُولى مراحل جهادِه على صفحات مجلّة الأزهر، وقد كان اسمُها آنذاك (نور الإسلام)، وكانت صوتاً إسلاميًا مدويًا في شتى أطراف العالم، يخشع له العدوّ والصَّديق، ويهتزّ بتأثيره القاصي والدّاني، وكانت روح تلك المجلّة متمثّلةً في شيخين عظيمين لا يُذكر أحدهما إلّا وذُكر معه الآخر، هما الشيخ يوسف الدّجوي، والشيخ محمّد الخضر حسين.

والذي استعرض شيئاً من كتابات هذين العظيمين في تلك المجلّة يستطيع أن يتخيّلهما في وقفتهما المناضلة المكافحة عن حوزة الإسلام وقدسيّته ضدّ قوى كثيرة متألّبة تهدف إلى خدشه والنّيل منه.

وكانت المرحلة الثانية من حياتِه الدّائبة المجاهدة هي تدريسُه في كليَّة الشّريعة بالأزهر.

كان رحمه الله يحاول جاهداً أن يُدخل إلى قلوب طلّابه مع العلم روحَه، وكان يجاهد أن يُلصِق الوسائل بالغايات لكي لا يقف الأزهريّون بعد تخرّجهم في نهاية الوسائل ودون الغايات وإذا بهم أعضاء أشلاء، لهم صورة الثّمرة أمام الأبصار، وليس فيهم حقيقتها وطعمها.

وكان يأبى أن يوقّع على السَّاعة التي يدرّسها إلَّا إذا امتلأت من أوَّل دقيقةٍ فيها إلى آخر لحظةٍ بالتّعليم والإفادة. ومعنى ذلك أنَّ السَّاعات التي كانت تذهب ببعضِها فوضى الطّلَّاب بسبب بعض الشّؤون العامَّة أو الخاصَّة لم يكن يرضى أن يأخذ عليها أيّ أجر.

ثمَّ عيَّنَتْه الدَّولة بعد ذلك شيخاً للأزهر، فضرب أكبر مثلٍ للتّاريخ بالإخلاص والتّفاني في العمل لمصلحة الأزهر والإسلام. وراح يضع المشاريع الإصلاحيَّة لنهضته وتقوية دعائمه.. ولمَّا لم يكن لكلّ ما أراد أن يُطَبَّق، أبى إلَّا الاستقالة عن منصبِه معتذراً بأنّه ليس من الوفاء للحقّ أن يملأ منصباً دون أن يعطيَه حقّه. ولكنَّه لم ينزل ليستريح.. ولم يترك مشيخة الأزهر ليخلد إلى السّكون.. بل ظلَّ واقفاً نفسَه لخدمة الإسلام والدّفاع عنه في كلّ ما يمكنه من مجال.

عمل رئيساً للتّحرير في مجلّة لواء الإسلام.. ولمَّا تملّكته الشّيخوخة، ودبَّ إلى أطرافه الضّعف، ولم يعد يستطيع الدّوام في مركز المجلّة، استأذن من مؤسّسها أن يتولّى الكتابة لها والإشراف على موادّها في مكتبِه في البيت، ولم يرضَ أن يأخذ بعدئذٍ لقاءَ عملِه أيّ شيءٍ، كان يرى أنَّ رئيس التّحرير ليس له أن يقعدَ في بيته ثمَّ يأخذ على عملِه أجراً.

وظلَّ مثابراً على الكتابة.. وظلَّ ماضياً في طريقِه إلى الدّعوة والجهاد الفكريّ على الرّغم ممّا آل إليه جسمُه من الضّعف والحاجة إلى الرّاحة والسّكون.

ولكنَّه كما قلتُ لم يكن يفرّق بين ألم روحِه التي في جسمِه، وألم الرّوح الإسلاميَّة في هذه الأرض. لقد كان عليه لكي يستريح أن يرى المجتمع الإسلامي من حولِه سعيداً هادئاً مستقيماً.

ولا أزال أذكر يوم عدتُه في السنة الماضية في بيتِه في القاهرة، رأيتُه جالساً على مقعدٍ إلى جانب مكتبه وقد ذوى منه الشّكل، وذابت معظمُ ملامح وجهِه، وامتزجتْ ـ من الضّعف ـ الكلمات بعضها في بعضٍ على شفتيه، ورأيتُ مع هذا قلماً يرتجف في يده، وأوراقاً مبعثرةً على (طربيزة) بين يديه.

ولقد سألتُه إذ ذاك عن هذه الأوراق، فأجاب بصوتٍ خافتٍ وكأنّه يتجاهل العجز المتشبّث به بأنّه مقال يكتبه للواءِ الإسلام.

فقلتُ: ولكن ألا تشعرون أنَّ هذا يتعبكم وأنّكم بحاجةٍ إلى شيءٍ من الرّاحة في هذه الفترة؟

فأجاب رحمه الله بلهجةٍ متواضعةٍ لا أزال أذكرها:

«قلّما أشعر بالرَّاحة ساكناً بلا عمل...».

لا أحسب أنَّ مثل هذا الإنسان يبعثه الله في العالم إلّا عبرةً للكسالى الخاملين الذين تلويهم النّسمات ويُقعدهم التّثاؤب، كي يؤوبوا إلى رشدهم، وتنخسهم مشاعر الخجل والحياء إن كانت فيهم مشاعر..

رحمه الله.. كان أهمّ ما يشتاق إليه في عالمنا هذا هو أن تعود إليه وحدتُه الإسلاميَّة، ليعود إلى قوته الجبّارة التي ركنتْ منذ دهرٍ طويلٍ في مخزن التّاريخ.

وإنّي لأرجو أن يحقّق الله عزاءنا فيه، وأن يأذن اللهُ لهذا العالم أن يهبّ إلى وحدتِه ليستردّها، وإلى قوّتِه ليستعيدَها.

❑ ❑ ❑

سعيد النّورسي:
أعجوبة الثورة الإسلامية في تركيا[١]

ـ ١ ـ

لستُ أدري هل سبقني إلى الكتابة عن حياة بديع الزَّمان في محيطِنا العربيّ أحدٌ أم لا، غير أنني أشعر وأنا أُمسك القلم لأخطّ ترجمته في هذه الصَّفحات القليلة، بنشوةٍ تهزّ أعماق نفسي!..

إنني أحسّ أني أُصوّر بهذا ما ينبغي أن تكون عليه حياة المسلم الصّادق في إسلامِه، والدّاعي الصّادق في دعوتِه، والعامل المخلص في عملِه، سواءٌ من النَّاحية الاجتماعيَّة والسّياسيَّة والخلُقيَّة وغيرها..

غير أنَّ هذا ليس هو وحده سبب ما أشعر به من سعادةٍ ونشوةٍ وأنا أُترجِم حياة هذا الدّاعية الكبير، ربما كان جلّ السبب أنني أعثر في حياتِه العظيمة الحافلة بمظاهر الإخلاص والجهاد والتّفاني، على ما لم نعُد نعثر على شيءٍ منه في حياة معظم علماءِ الإسلام ودُعاته في بلادنا اليوم.

فلا بدع إذا كانت سعادتي بما أكتُبه عن حياة بديع الزَّمان تفوق سعادة الصّادي الذي جفّت منه الكبد عطشاً في بيداء منقطعة، عندما يلتمع أمام عينيه بريق ماءٍ فرات.

---

(١) كتب هذا البحث عام ١٩٦١.

وإذا كانت سنّة الله في كونِه اقتضتْ كما يقولون أن يبعث بين كلّ فترةٍ وأُخرى من الزّمن مَن يجدّد للمسلمين أمر دينهم، ويوقظ فيهم دواعي الجهاد ذوداً عن شريعةِ الله ودينهِ، فإنَّ بديع الزَّمان هو المجدّد الذي أكرم الله به المسلمين في تركيا إبان حكم كمال أتاتورك، فقد كان رمز الحرب الإسلاميَّة لحكمه، وكان المحور الذي استقطب حوله ملايين الشبّان المسلمين للصّمود في وجهِه.

ولقد مات أتاتورك (مصطفى كمال)، وأتباع بديع الزَّمان يكثرون ويزيدون.

وحينما تُوفي بديع الزَّمان في عام ٥٨ كان أتباعُه يطرقون أبواب الحكم في تركيا من جميع أطرافِه، وعلى الرّغم من أنَّ أمريكا تداركت الأمر فقلبت الأوضاع وعملت على وضع الحكم من جديدٍ في أيدي (الكماليّين)، فإنَّ أتباع بديع الزَّمان والأمناء على عهده وجهاده هم الذين يجمعون أمرهم اليوم للإصلاح.. متّخذين من قواعد كلٍّ من التربية والصّحافة والجيش منطلقاً إلى الهدف العظيم.

إنني أضع بين يدي القارىء هذه الخلاصة عن حياة هذا المسلم العظيم، راجياً أن تمكّنني الفرصة فيما بعد من بسط ترجمتِه في كتابٍ مستقلٍّ يفي بهذا الغرض.

* * *

مولده وصدر حياته:

وُلد بتاريخ ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٣م في قريةٍ صغيرةٍ تابعةٍ لقضاء هيزان في ولاية بدليس، من أبوين كرديّين، وبعد أن تمَّ له من العمر تسع سنوات، بدأ يتّجه إلى طلب العلم متأثّراً بتوجيهات أخيه الكبير: الملّا عبد الله،

فراح يتنقّل بين مختلف المدارس المبثوثة حوله في القُرى والأقضية، ولم يكد يتمّ له من العمر ثمانية عشر عاماً حتى أصبح في عداد فحول العلماء، فقد أتقن في هذه الفترة جميع ما مرَّ عليه من علوم الآلة: علوم اللّغة والعلوم العقليَّة على اختلافِها، وعلم الأصول والفقه، وعلوم القرآن. وانكشفت مواهبُه عن ذكاءٍ حادّ، وحافظةٍ عجيبةٍ مذهلة، فحفظ جملةً من مقامات الحريري، وحفظ القاموس المحيط إلى حرف «السين»، وحفظ كتاب جمع الجوامع في أُصول الفقه في ما لا يزيد على شهرٍ واحد، حتى أصبح اسمُه حديث المجالس بين أهل العلم وطلّابه، وسرعان ما أصبح يلقّب بينهم بـ «سعيدي مشهور»[(١)].

ولقد أيقظتْ مزاياه هذه، عوامل الحقد عليه في نفوس كثيرٍ من أهل العلم الذين لم تتحلّ نفوسُهم بمزايا المسلمين ـ وما أكثر هؤلاءِ في كلّ عصرٍ ومكان ـ فراحوا يحدقون به ممتحنين له مَرَّةً، وواشين به إلى بعض الأمراء والولاة أخرى، ولكنَّ علمَه الغزير وتواضعه الجمّ كانا يُنجيانِه ممّا يُراد به من سوءٍ.

ولقد أحدق به ذات يومٍ بعضُهم.. قاصدين إيذاءه، فقال لهم: «اقتلوني.. ولكن أرجو أن تُحافظوا على مكانة العلم وسمعتِه!»، وسمع والي سعرت بالأمر وكان يقدّر بديع الزّمان، فقصد إلى معاقبةِ الذين حاولوا إيذاءه، ولكنَّه عارضه قائلاً: «نحن طلّاب العلم نتخاصم.. ونتراضى.. ولذا فلا أرى من الخير أن يتدخّل في شأنهم مَن ليس منهم، على أنَّ الخطأ كان مني!.».

قال هذا وعمره لا يزيد على الثامنة عشر!

---

(١) أي: سعيد المشهور.

شكل حياته في هذه الفترة:

بدأ سعيد النّورسي حياته بالزّهد والتّقشّف وسلوك سبيل الفلاسفة والحكماء، وهذا السّبيل الذي اختاره سعيد النّورسي لنفسِه منذ فجر شبابه ـ وإن كان الإسلام لم يُلزم أهله أن يحصروا أنفسهم فيه ـ يدلّ على أنّه كان منصرفاً بنفسِه وتفكيره منذ صباه عمّا تنشغلُ به نفس كلّ إنسانٍ في هذه السنّ، وعلى أنَّ أُموراً جليلةً أُخرى كانت تستأثر بفكرِه وهمّه.

وكان يتّخذ من مبدأ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبُك» دستوراً لحياتِه، فكان يسيرُ به هذا الدّستور نحو الورع والحيطة في جميع شؤونِه، حتى إنَّه كثيراً ما كان يقتات بالأعشاب، حينما لا يتوفّر له القوت المطهّر من كلّ ريبة.

وكان يحرص دائماً على أن يترك شيئاً من طعامِه للنّمل!.. فإذا سُئل عن ذلك أجاب: (إنها مكافأة مني لنظام هذه الأُمَّة وجمهوريّتها الرّائعة)[١]، وكان شغوفاً بطول الإقامة عند قبر الشيخ أحمد الخاني الشّاعر الكردي المشهور[٢]، على الرّغم من الوحشة المحيطة حول القبر.

غير أنَّه كان إلى جانب هذا مُصارعاً عظيماً، ذا روحٍ عسكريَّةٍ عالية. وكان يتحلّى في ذروة هذه الصِّفات بشجاعةٍ نادرةٍ تجعله لا يُقيم لمخلوقٍ وزناً على الرّغم من صغر سنّه. دخل ذات يومٍ على رئيس عشيرة (ميرا) مصطفى باشا، وكان ظالماً يستهين بحقوق الله وحقوق النَّاس. فلمَّا نظر إليه الباشا قال له:

---

(١) كل ما يأتي بين قوسين فهو من نص كلام بديع الزمان بعد أن ترجمته إلى العربية.

(٢) من أبرز مؤلفات هذا الشاعر قصة «مموزين» وقد قمت بترجمتها إلى العربية.

لماذا جئت إلى هنا؟

فقال: جئتُ لإرشادِك، فإمَّا أن تسمع وتطيع، وإمَّا أن أقتلَك!..

فغضب الباشا.. ثمَّ نظر إلى سيفٍ بيد بديع الزَّمان قائلاً:

بهذا السّيف القذر تقتلني؟

فقال: السّيف لا يقطع.. وإنما اليد.

فقال الباشا مغضَباً: لي علماء كثيرون في هذه الجزيرة، فإن تغلّبتَ عليهم أجبتُك إلى ما تقول، وإلّا فسأُلقيك في نهر الفرات.

قال بديع الزَّمان: كما أنَّه ليس من شأني أن أُلزم جميع العلماء، فليس من شأنِك أن تلقيني في البحر. ولكني أُريد منك إن أجبتُ عن أسئلة العلماءِ أن تكافئني بإعطائي بندقيّتك، فإن لم تجبني إلى نصيحتي قتلتُكَ بها!..

وجمع الباشا له العلماء.. وكسب بديع الزَّمان الشرط.. وتاب الباشا على يده توبةً صادقة.

بدء اشتغاله بالسياسة:

أخذ سعيد النّورسي يهوى حياة السّياسة منذ أن ناهز العشرين من العمر، وبدأت حياتُه هذه في ماردين، ولمَّا رأى واليها صراحتَه وقوّته في معارضة الأمور نفاه إلى بدليس، ولكن سرعان ما تمكّنتْ صداقةٌ قويّة بينه وبين والي بدليس، جعله يعيشُ مكرّماً معزّزاً.

وفي صدر حياته هذه شعر بالحاجة إلى العلوم الكونيَّة والطّبيعيَّة التي لم يكن قد تمكَّن فيها بعدُ، فانكبَّ على دراستِها، وفي فترةٍ قصيرةٍ أتقن علوم التاريخ والجغرافيا والرّياضيَّات والجيولوجيا والفلسفة القديمة والحديثة وبعض اللّغات الأجنبيَّة. وكان هذا التّبوغ العجيب مثار حديث الصّحف والجرائد، ثمَّ كان سبباً لأن يتّفق العلماء على منحه لقب (بديع الزَّمان).

وكان بحكم حياتِه السياسيَّة الجديدة يطالع الجرائد صباح كلّ يومٍ، فاطّلع ذات يومٍ في بعضِها على خبرٍ مثير، وهو أنَّ وزير المستعمرات البريطاني قال في أحد الاجتماعات الخاصّة:

ما دام القرآن بين أيدي المسلمين معزّزاً، فإنَّه سيعوق سبيلنا، لا بدَّ من إخفاءِ هذا الكتاب عنهم أوّلاً!..

فثار بديع الزَّمان، وأعلن لمن حوله أنَّه سوف يكرّس حياته كلّها لخدمة القرآن والكشف عن المزيد من مظاهر إعجازه.

وما هو إلّا أن قصد إستانبول سعياً وراء تأسيس مدرسةٍ تضاهي الجامع الأزهر، باسم (الزّهراء). وما إن حلّ في استانبول حتى راحت الصّحُف تتحدَّث عنه، وكتبت إحداها هذه العبارة: «طلع في آفاق إستانبول إنسان يحمل شعلةً ناريةً من الذكاء العجيب».

وصادف أن كان الشّيخ بخيت مفتي الدّيار المصريَّة إذ ذاك قادماً إلى إستانبول في زيارةٍ سياحيّةٍ، فاجتمع ببديع الزَّمان في بعض المجالس، ودار بينهما حديثٌ طويل، ثمَّ وجّه الشيخ بخيت إلى بديع الزَّمان هذا السُّؤال:

ـ ما قولكم في الدّولة العثمانيَّة والأُمَّة الأوربيَّة؟

فأجابه بديع الزَّمان باللغة العربيَّة:

«إن أوربا اليوم حاملةٌ بالإسلام، وستلده يوماً ما. والدّولة العثمانيَّة حاملةٌ بالنّهج الأوربي وستلده يوماً ما».

فقال الشَّيخ بخيت معجَباً: إنَّ مثل هذا الشّابّ لا يُناظَر.. إنَّ جواباً وجيزاً بليغاً صادقاً مثل هذا الجواب لا ينطق به إلّا مَن كان مثل بديع الزَّمان!..

وحينما ظهرت في سنة ١٩٠٨ حرية محمّد رشاد وجمعيَّة الاتحاد والترقي، التي كانت تتقنّع بالدِّين ظاهراً، وتخفي رجس الماسونيَّة واليهوديَّة باطناً، بادر بديع الزَّمان فألّف جمعيّةً إسلاميّةً باسم (الاتحاد المحمّدي) سرعان ما انضمَّ إليها من شتى أطراف الدّولة العثمانيَّة آلاف النَّاس.

ولقد ظهرت براعته السياسيَّة في أسلوبه الذي اتخذه لحرب جماعة الاتحاد والترقي، لقد رأى أنَّ الحرب الصّريحة للاتحاديّين لا تفيد، لافتتان بسطاءِ المسلمين وكثير من الشّيوخ بالمظهر الذي اتخذوه لأنفسهم، إنَّ حرب مثل هذه الجمعيَّة تعني لدى أُولئك البسطاءِ محاربة الإسلام. فراح بديع الزّمان ينادي بنفس الشّعار الذي ينادي به الاتحاديّون، وهو: الحريَّة، ولكنَّه أخذ يلحّ على ربط هذه الحريَّة بتشريع الإسلام ومبادئه وعقيدته، وراح ينشر المقالات الثوريَّة ضارباً فيها على هذا الوتر بعنفٍ وشدَّة. وكان ينادي بلهجة المنذر قائلاً:

«إن لم نلتجىء إلى الحريَّة التي خطّ طريقها الإسلام، فإنَّ استبداداً واستعباداً عظيمين سيلحقان بنا، وسنصبح ضحيّةً للحريَّة عمّا قريب».

كان هذا الأسلوب هو السّبيل إلى تنبيه النَّاس لخطرٍ يجثم في رأس الاتحاديّين، في الوقت الذي لا يستطيع الاتحاديّون أخذه بأيّ جريرة، لأنّه يُنادي بشعاراتهم ذاتها، بيد أنَّه كان يسعى بهذه الشّعارات نحو تكتّلٍ إسلاميٍّ سريع، على حين أنهم كانوا يستخدمونها لشلّ قوَّة الإسلام، ووضع القوميَّة الطّورانيَّة مكانها.

ولقد أثار عملُ بديع الزَّمان هذا مخاوف الماسونيّين الذين كانوا من وراءِ الحركة الاتحادية، فأرسلوا رئيس محفلِهم الثريّ اليهوديّ الكبير: (قرصو) لمقابلتِه، ولكنَّه ما لبث أن خرج من عنده قائلاً لرفاقِه:

لقد كاد هذا الرّجل العجيب أن يزجّني في الإسلام بحديثه! . .

وقرصُو هذا هو أوّل صهيونيٍّ عمل على قلبِ الخلافة العثمانيَّة وخلع السّلطان عبد الحميد، واستلاب فلسطين.

المحاكمة الأولى لبديع الزمان:

لم يجد الاتحاديّون من سبيلٍ أمامهم أخيراً سوى القبض على بديع الزّمان، فقُبض عليه في حادثة ٣١ مارس (آذار) ١٩٠٩ التي أُعدم فيها ١٥ مسلماً، وقُدّم إلى المحكمة ذاتها التي حوكم أمامها هؤلاء، ولعلّ القصد كان تخويفه من العاقبة التي حلّت بهم. .

وبعد أن حُكم على الخمسة عشر رجلاً بالإعدام، توجّه رئيس المحكمة (خورشيد باشا) إلى بديع الزّمان قائلاً: وأنت أيضاً تدعو إلى تطبيق الإسلام؟ وطلب منه أن يتكلّم بما لديه.

فقام وألقى على سمع المحكمة كلاماً رائعاً، كان من الجدير أن أنقلَه كلّه للقارىء لولا ضيق الصّفحات. . كان من جملة ما قال:

«. . . لو أنَّ لي ألف روحٍ لما تردّدتُ أن أجعلَها فداءً لحقيقةٍ واحدةٍ من حقائق الإسلام. . لقد قلتُ في حادثةٍ إنني طالب علمٍ. . ولذا فأنا أزن كلّ شيءٍ بميزان الشريعة، إنني لا أعترف إلَّا على ملّةِ الإسلام. . إنني أقولُ لكم وأنا أقف أمام البرزخ الذي تسمّونه السّجن، في انتظار القطار الذي يمضي بي إلى الآخرة، وليسمعه معكم العالم كلّه:

لقد حان للسّرائر أن تنكشف وتبدو جليّةً من أعماق القلب. . فمن كان غير مَحْرَم فلا ينظر إليها.

إنَّني متهيىءٌ بشوقٍ عظيمٍ للقدوم إلى الآخرة، وأنا حاضر للذّهابِ مع

هؤلاءِ الذين عُلِّقَتْ مشانقُهم!.. تصوّروا ذلك البدويّ الذي شاقه الحديث عن إستانبول للقدوم إليها، إنّني مثله تماماً في شوقي إلى الآخرة والقدوم إليها.. إنَّ نفيكم إيَّاي إلى هناك لا يعُتبر عقوبة.. إن كنتم تستطيعون، فعاقبوني المعاقبة الوجدانيَّة..

لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيَّام الاستبداد.. والآن فإنها تعادي الحياة، وإذا كانت الحكومة هكذا فليعش الجنون.. وليعش الموت.. وللظّالمين فلتعش جهنم!

والآن.. فلأبدأ بتعداد جناياتي التي استوجبتْ وقوفي في هذا المكان:

الجناية الأولى: إنني في السّنة الماضية، وعند بدءِ عهد (الحريَّة) أبرقتُ نيفاً وخمسين برقيَّة إلى مختلف الولايات والعشائر الشّرقيَّة هذا نصّها:

«إذا كانت مسألةُ الدّستور والحريَّة التي سمعتم بها عبارةً عن العدالة والمشورة الشرعيَّة الحقيقيَّة، فاستقبلوا ذلك بقبولٍ حسن، واسعوا للمحافظة عليه، ذلك لأنَّ سعادَتنا الدنيويَّة إنما هي باتّباع دستورٍ عادل، ونحنُ من أشدِّ النَّاس فراراً من الاستعباد وأضراره».

واستقبلت جواب هذه البرقيَّة من مختلف الجهات بروحٍ إيجابيّةٍ وموافقةٍ تامَّة.

إذاً.. فقد كان هذا الذي أقدمتُ عليه من تنبيه الولايات الشرقيَّة عن غفلتِها، كي لا يأتي مَن قد يتسلّل إليها باستبداد آخر من نوعٍ جديد ـ جريمةً أُعاقَب عليها!.. تُرى أيّ ضرورةٍ تلك التي جعلتني أقترف سعيداً هذه (الجريمة) التي أدخلتني إلى هذا المكان.

الجناية الثانية: كان في مدينة استانبول ما يُقارب عشرين ألفاً من الأصدقاءِ الذين يتّسمون بصفاءِ القلب والنيَّة، خشيتُ عليهم من خداع بعض الحزبيِّين ودعاة المبادىء الهدّامة والمضلّلة، فكان أن اتّصلتُ بهؤلاءِ الإخوة، وطفتُ عليهم في نواديهم ومراكزهم ومجتمعاتهم، وأدخلتُ في أفكارهم الصّورة الحقيقيَّة لمعنى الحياة الدستوريَّة بشكلٍ جعلهم في غاية الحماس لها.

لقد أعلمتُهم أنَّ الاستبداد والظّلم نتيجتان للتحكّم، وأنَّ الدّستور والعدالة الاجتماعيَّة نتيجتان لحكم الشريعة الإسلاميَّة، وأنَّ طاعةَ الرّسول؟ هي في طاعة خليفتِه.. إنَّ عدوَّنا يتمثّل في الجهل والتّأخّر والاختلاف، وإنَّ علينا أن نقابل هؤلاءِ الأعداء بسلاحٍ من الصّناعة والمعرفة والاتّفاق.

وهكذا كان لنصيحتي أثرها الإيجابي في نفوس آلاف البسطاء من النَّاس.. وهكذا أصبحتُ بسبب ذلك متلبّساً بجريمةٍ أودت بي إلى هذا المصير!..

الجناية الثالثة: كلّنا يعلم أنَّ أوربا ظلّت تخيّل للبسطاء فينا ـ مستعينةً بما نُعانيه من الجهل والتّخلف ـ أنَّ الشريعة الإسلاميَّة في جملتِها دعامةٌ لحياة الاستبداد والتعسّف!.. ولا ريب أنَّ هذه الجناية الكبرى على الحقيقة تؤلم قلبي أشدَّ الألم.

لقد أردتُ ـ في سبيل الكشف عن هذا الافتراء ـ أن أكون في مقدّمة المتحمّسين للدّستور، ومن أشدّهم دعوةً إليه، باسم الشّريعة الإسلاميَّة نفسها.

ولكني خشيتُ في الوقتِ ذاته أن يتولَّد من دعوى الحياة الدّستوريَّة هذه استبدادٌ آخر من نوعٍ جديد!.. ولذلك ناشدتُ الجموعَ الغفيرة، في

آيا صوفيا، بكلّ ما لديَّ من قوّةٍ، وهتفتُ فيهم أن اجعلوا من الشريعةِ الإسلاميَّة تفسيراً للدّستور، وأقيموا بينهما رابطةً وثقى.. لا تدعوا الملاحدة والمنافقين ودعاةَ اللّادينيَّة يدنِّسون بأيديهم القذرة هذا الشّعار المبارك، ويتّخذون منه وسيلةً لمقاصدهم وأمانيهم الحقيرة.. لذا يجبُ أن تتقيّد الحريَّة بآداب الشّريعة وحكمِها. فالحرّيَّة المطلقة عن أيّ قيدٍ لا تؤدّي بصاحبها إلى غيرِ السّفاهة والفوضى المؤلمة.. ولتكن قبلتُنا في البحثِ عن نُظم العدالة الاجتماعيَّة محصورةً في المذاهب الأربعة، حتى تكون صلاتُنا إليها صحيحة.

لقد أوضحتُ لهم أنَّ من السّهل جداً استخراج مقوّمات العدالة والسّعادة من هذه المذاهب الأربعة وحدها في كلّ مكانٍ وزمان.

وبما أني قمتُ بواجبي هذا (بوصفي طالب علمٍ مسؤولٍ عن إبراز هذه الحقيقة)، فقد ارتكبتُ في حقّ الإنسانيَّة جريمةً كُبرى استوجبتْ لي هذا التّعزير!..

أمَّا جنايتي الرّابعة: فهي أنّني تصدَّيتُ للرَّدّ على دعاة الماسونيَّة والإلحاد من أصحاب الصّحف، وقلتُ لهم: إنَّ على الأديب أن يكون متأدّباً في دعوتِه، وخصوصاً إذا كان سمعَ هذه الأُمَّة ولسانها. وإنّي أقول لكم: كما أنَّ الرّجل الوَقور لا يناسبه أن يرتديَ ثوبَ الرّاقصات، فكذلك لا يُناسب استانبول أن ترتديَ أخلاقَ أوربا.. وهكذا كنتُ بسبب ما قمتُ به من تصحيحٍ للمغالطات وخداع الفكر والقول متلبّساً بجريمةٍ وأيّ جريمة!..

وجنايتي الخامسة: إنّني سمعتُ عن جمعيّةٍ تشكّلت باسم (الاتحاد المحمّدي) في هذه المنطقة. ولقد ساورني القلق إلى درجةٍ قُصوى من أن يأتيَ البعضُ بسُلوكٍ خاطىءٍ، أو يهدف إلى غرضٍ سيِّءٍ تحت هذا الشّعار

العظيم!.. ولكنّي عرفتُ فيما بعدُ أنَّ الذين يُسيّرون نظام هذه الجمعيَّة رجالٌ من أصحابِ الفضل والإخلاص، وأنهم لا يبتغون بها شيئاً غير إحياءِ السُّنَّةِ المحمَّديَّة وتعريفِ النَّاس بها، وأنّه لا علاقة لها بأمور السياسة مُطلقاً.

وفكّرت طويلاً: إنَّ هذا الاسم حقٌّ عامٌّ للمسلمين كلّهم.. فهو غير قابلٍ لأيّ نوعٍ من التّخصيص أو التّقييد. وتساءلتُ: كيف يحقّ لمتديّنٍ مثلي أن ينتسبَ إلى جمعيّاتٍ فكريّةٍ متعدّدة؟!.. إنَّ المقاصد الإسلاميَّة لا يمكنُها أن تتعدَّد بحال.. وهكذا وجدتني مضطراً للانتساب إلى هذا الشّعار المبارك..

غير أنَّه ينبغي أن أُبادر فأعرّفكم بهذه الجمعيَّة التي انتسبتُ إليها، وإليكم بياناً موجزاً لها.

إنها الدّائرة التي تتّسع لأربعمائة مليون من أعضائها المنتسبين إليها، والعاملين من أجلِها.. وبياناتها التي تنشر نظمهم وأفكارهم تتمثّل في عموم المكتبة الإسلاميَّة التي تعكس حقيقةَ الإسلام وجوهره.. أمَّا صحافتُها، فتتمثّل في كلّ صحيفةٍ تتّخذ من إعلاءِ كلمةِ الله شعاراً لها، ومقصداً لسبيلها.

مركز هذه الجمعيَّة ومنتداها، عامَّة ما ينتشر في بقاعِ الأرضِ من مساجد ومدارس لتعليمِ الإسلام، وزوايا لذكر الله وعبادتِه.

جمعيّةٌ هذا شأنها، لا بدَّ أنَّ رئيسَها إنما هو فخر الكائنات محمّد عليه الصَّلاة والسّلام، ومسلكها التربويّ هو أن يجاهدَ كلُّ عضوٍ فيها نفسَه التي بين جنبيه، حتى يجعل منها قدوةً صادقةً له عليه الصَّلاة والسّلام، ونظامها يتمثّل في الوحي الإلهي والسنّة النبويَّة. وسيفها في المعارك

الحججُ القاطعة، ذلك أنَّ التغلّب الحقيقيّ إنما يكونُ بالإقناع العقلي لا بالإكراه الحسيّ.

إنَّ تحرّي الحقيقة ليس له من سبيلٍ إلَّا سبيل المحبّة والأخلاق الحميدة، ولذلك فإنَّ تسعةَ أعشار ديننا الإسلامي يتمثّل في مقوّماتِ هذين المبدئين، والعشر الأخير هو وحده الذي يتمثّل في السّياسة، وهذا ما نوكلُه إلى أمانةِ أُولي الأمر ووجدانهم.

فأنا أفخر بأني واحدٌ من أصغر أفراد هذه الجمعيَّة، وبأني واحدٌ من أُولئك الذين يُعلنون دائماً عن التشبّث بمبادئها ونظامِها.

وإذْ قمتُ هكذا بمسؤوليَّتي التي لم أُخلق في هذه الحياة إلَّا من أجلِها، فقد كنتُ بذلك من كبار الجناة والمجرمين!..

أمَّا جنايتي السادسة: فهي ما كنتُ ولا أزالُ ألاحظه بألم شديد، من حال الولايات الشرقيَّة وما هي فيه من التخلّف(١)، لقد كنتُ أشعرُ دائماً أنَّ هذه الولايات بحاجة إلى أن تتفتّح أعينُها على شيءٍ من المدنيَّة الحديثة، والعلوم والفنون الجديدة.

ورأيتُ أنَّه لا بدَّ لتحقيقِ ذلك من إقامة مدرسةٍ شرعيّةٍ كبرى، لتكون هي المعين لهذه النّهضة، وأن يكون السّير إليها بإشراف علماءِ الشّريعة الإسلاميَّة وضمن حدودها.

لقد حملتُ هذه الأمنية وتقدَّمت بها إلى أُولي الأمر، مؤمّلاً سعادة الإجابة عليها، ولكن كان الجواب على طلبي هذا من كبير الأمناء، أن صرفني بصلةٍ من المال، والإكرام ببعض الوظائف الدِّينيَّة!..

---

(١) يقصد بالولايات الشرقية تلك الولايات التي يقطنها الأكراد، مثل: وان وبدليس وماردين وغيرها.

ولعلَّ خطيئتي إذ ذاك أنّي رفضتُ ذلك الإكرام ولم أقبل منه شيئاً.

لقد كانتْ أُمنيتي التي قدمتُ لأجلِها تعدِل عندي أموالَ الدّنيا كلّها.. وبوسعي أن أعترفَ بأنّي خالفتُ اللّباقة المتّبعة في رفضي ذاك، ولكنني رأيتُ أن أجعلَ حتى ما يقضي به الفكر والعقل، في مثل هذا الحال، فداءً لحريتي الشّخصيَّة. ولقد كان عليّ، تحقيقاً لهذا المبدأ أن أفضل التشبّث بحريَّتي تلك على أن أخضع لبعض المنافع التي تستهدفُ إذلالي وأسري في قبضةِ الاستبداد الذي يصرّف كلّ شيءٍ طبق حُكمِه وهواه!..

إنني أسعى منذ سنةٍ ونصف إلى نشر المعارفِ في تلك الولايات الشرقيَّة، وإنَّ أكثر أهالي استانبول يعلمون هذه الحقيقة.. إنّني أقولُ لكم بصراحة: لستُ في أصلي إلّا ابن أحد الحمّالين، وعلى الرّغم ممّا تيسّر لي من أسباب الدّنيا ورفاهيتها، فإنَّ شيئاً من ذلك لم يستطع أن ينتزع عني هذه الحقيقة يوماً ما!. وإنَّ أجمل ما تتعلّق به نفسي من بقاع الدّنيا، تلك الجبال الشّاهقة الخضر التي ولدتُ في سفوحِها، ومع ذلك فقد تركتُها ورائي، وجئتُ أتنقّل بين جدران السّجون والمعتقلات أملاً في تحقيق الخير لأمَّتي وأهلي!..

ومع ذلك، فقد عددتم هذه الأعمال التي ساقتني هذا المساق، جريمةً كبرى اقتضتني أن أقف مجرماً أمام محكمةٍ كبرى مثل هذه المحكمة!...»[1].

وسرعان ما نشرت الصُّحف خطابَه هذا الذي يزيدُ على عشر صفحات كبار، وتناقلته الألسُن، وتجمهر آلافُ المسلمين من أتباع بديع

---

(١) من نص بيانه الذي ألقاه في المحكمة بعد أن ترجمته من اللغة التركية.

الزَّمان وغيرهم حول مبنى المحكمة يهدرون بالوعيد، ويهتفون بملءِ الحناجر:

فلتعش جهنم للظّالمين.. وليعش الموت للمخرّبين..

وكانت النتيجة أن حُكم على بديع الزّمان بالسّجن لمدّة.. ولكن سرعان ما أُخلي سبيله.

لم يدم بديع الزَّمان في استانبول كثيراً بعد ذلك، حيثُ اتجه إلى وان، وهناك انصرف للتّعليم والتوجيه والتأليف.

بديع الزمان القائد الحربي المتطوِّع:

ولمَّا قامت الحرب العالميَّة الأولى، تطوَّع فيها برتبة ضابط كبير، وكان يعود في أُمسيات الحرب إلى معسكره حيثُ يتحلَّق من حولِه طلَّابه فيدارسهم علوم القرآن، ومن أعجب الأمور أنّ ألّف في تلك الغمرة كتابه الرّائع: (إشارة الإعجاز) وهو أوَّل مؤلّف له بالعربيَّة.

بديع الزمان أسيراً في يد روسيا:

وقد وقع بديع الزَّمان أسيراً في تلك الأثناء بيد الرّوس، وذات يوم دخل إلى معسكر الأسرى قائدٌ روسي فقام إليه جميع الأسرى ما عدا بديع الزّمان.

فنظر إليه القائد قائلاً: لعلك لا تعرفني!

فقال بديع الزَّمان: بل أعرف، إنّك ذلك الذي يُدعى: نقولا.

فقال القائد: إذن فأنت تستهين بعظمة روسيا..!

فقال: ليس كذلك، ولكنَّ الله الذي أُؤمن به قضى أن يكون المؤمنون أعلى من غيرهم، وهذا يمنعني من القيام.

وكان من نتيجة ذلك أن حُكم عليه بالإعدام، وحينما جيء به للتنفيذ، فوجىء بالقائد نفسه يتقدَّم إليه قائلاً: إنّني أُجلُّ فيك هذا الدِّين الذي أعزَّك إلى هذا الحد، وعفى عنه.

وبعد ذلك نُقل إلى سيبريا، وبقي هناك فترةً طويلة يعاني البرد القارس، ولكنَّه استطاع أن يهرب أخيراً، فوصل إلى إستانبول بعد جهدٍ عن طريق ألمانيا ثمَّ فيينّا ثمّ بلغاريا.

وبعد انتهاء الحرب العالميَّة الأولى استولى الإنكليز على استانبول عام ١٩١٨، ووجّهوا ستّة أسئلة إلى المشيخة الإسلاميَّة عن طريق كنيسة (أنكليكان) أُريد منها البدء بسلسلة مؤامراتٍ على الإسلام، فوجّهت المشيخة الإسلاميَّة هذه الأسئلة بدورها إلى بديع الزَّمان ليجيب عليها بستمائة كلمة حسب طلب الإنكليز، فكان جواب بديع الزَّمان:

«إنَّ هذه الأسئلة لا يُجاب عليها بستمائة كلمة، ولا بستّ كلمات، ولا بكلمةٍ واحدة، بل ببصقةٍ واحدة على أفواه السَّائلين».

فحُكم عليه بالإعدام.. ثُمَّ عُدل عن ذلك خوفاً من ثورة الأناضول.

موقف بديع الزمان من مصطفى كمال:

حينما تمَّ عصيان الأناضول، وكان مصطفى كمال على رأس الحركة، استُدعي بديع الزَّمان سنة ١٩٢٠ إلى أنقرة لتكريمه في احتفالٍ كبير، ولكنَّه فوجىء حينما وصل إليها بخيبة أملٍ كبرى، إذ شعر بالاتجاه نحو معاداة الشّريعة الإسلاميَّة، وحينئذٍ قاطع احتفال تكريمه، وسرعان ما اختفى من بينهم، ثمَّ أرسل بياناً مطوّلاً إلى أعضاءِ المجلس النيابي

الذي كان مصطفى كمال رئيساً له، ضمّنه نصائح لهم في عشر فقرات. وجعل عنوانه هذه الجملة:

«اِعلموا أيها (المبعوثون)(١) أنّكم مبعوثون ليومٍ عظيم».

وكان من تأثير هذا البيان الذي تولّى إلقاءه (كاظم قره بكر) أن استقام على التديّن وإقامة الصَّلاة ستون نائباً منهم. غير أنَّ هذا أثار حفيظة مصطفى كمال، فاستدعى بديع الزَّمان ودخل معه في مناقشةٍ حادَّة في ديوان المجلس النّيابي، وكان ممّا قاله كمال: لا ريب أنّنا بحاجةٍ إلى قديرٍ مثلك، لقد دعوناكَ إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمَّة، ولكنَّ أوَّل عملٍ قمتَ به لنا هو الحديث عن الصّلاة، لقد كان أوَّل جهودكم هنا هو بثّ الفرقة في أهل هذا المجلس.

فأجابه بديع الزَّمان مُشيراً إليه بإصبعه في حدّة:

«باشا.. باشا.. إنَّ أعظم حقيقةٍ تتجلّى بعد الإسلام إنما هي الصَّلاة، إنَّ الذي لا يصلِّي خائن، وحكم الخائن مردود».

وهنا اضطرَّ مصطفى كمال أن يعتذر منه ويُنهي الحديث.

ومع ذلك فقد كان بديع الزَّمان يأمل أن يخرج من ظلام الحكومة الكماليَّة نوراً، وأن يقلب سعيها إلى خدمة الإسلام، ولكنَّ العقبات أخذت تظهر متوالية.

وكان ينتهز الفرصة تلو الأخرى لنصيحة مصطفى كمال وتحذيره من الانحراف عن جادّة الإسلام، بيد أنّه لم يكن يوافق على شيءٍ من آرائه.

---

(١) كلمة مبعوث تستعمل في اللغة التركية بمعنى النّائب.

ولكنَّه مع ذلك أراد أن يستجلب قلبه لمكانتِه بين النَّاس، فجعله رئيساً للوعّاظ في شرق الأناضول كلّه، وعضواً في رئاسة جامعة «دار الحكمة» ومنحه (فيلا) ضخمةً يسكن فيها، وجعله من المقرّبين إليه..

غير أنَّه ـ وقد علم ما يهدف إليه كمال من منحِه كلّ هذا ـ لم يُوافق على قَبول شيءٍ منه، ولم يلبث أن فارق أنقرة إلى وان، بعد أن تزلّف إليه النوّاب طويلاً أن لا يفارقَهم، وهناك انزوى عن الحكّام والنَّاس في مكانٍ منعزلٍ عن الجميع، وكان ذلك عام ١٩٢١.

وكان هذا التّاريخ هو الحدّ الفاصل بين مرحلتين مختلفتين من حياة بديع الزَّمان. كان يُطلق بعد ذلك على فترة ما قبل هذا التّاريخ من حياتِه اسم: سعيد القديم، ويُطلق على نفسه فيما بعد ذلك، اسم: سعيد الجديد.

وكان سعيد الجديد يختلف مع القديم في كثيرٍ من الأمور، من أبرزها الاشتغال بالسّياسة، فقد كان سعيد الجديد يتمنى لو أن سَميَّه القديم حاد عن سبيل السياسة متفرّغاً للتّوجه والبناء الشعبي.

ولعلَّ من أبرز الأدلّة على صواب رأي سعيد الجديد، أنَّ انزواءه عن الحكّام والسَّاسة أثار من الاضطراب في صفوفِهم والفساد لخططِهم ما لم يستطع أن يفعلَه عمله السّياسي من قبل، كما سنلاحظ ذلك في ترجمة حياة سعيد الجديد.. سعيد الثاني.



سعيد النّورسي:
أُعجوبة الثورة الإسلامية في تركيا

ـ ٢ ـ

افتتح بديع الزَّمان الفصل الثّاني من حياتِه، بقوله (أعوذ بالله من الشّيطان والسّياسة)، ثمَّ راح يتّخذ من هذه الكلمة دستوراً لجميع صفحات هذا الفصل الجديد من عمره، فقد غادر أنقرة إلى مكانٍ ما في بلدة وان، منزوياً عن الحكّام والنّوّاب، مبتعِداً عن جميع مشكلات السياسة وأصحابها.

ولكنَّه راح في الوقت ذاته يبعثُ صيحات التّوجيه والإرشاد بين صفوفِ الشباب ـ وبصورةٍ خاصَّة المثقّفين منهم ـ مضمّنةً رسائله التي عُرفت فيما بعد برسائل النّور، وعُرف أنصارها بجماعة النّور.

تعريف برسائل النور:

ورسائل النّور هذه سلسلة تتألّف من ١٣٥ رسالة، ويتناول جميعها الجواب عن مختلف المشكلات الرّوحيَّة والنفسيَّة والعقليَّة التي تطوفُ بأذهان الجيل الحاضر، وهي تنطلقُ من محور القرآن وتفسيره.

إذ يتناول بديع الزَّمان الآية بالتّفسير مرَّتين: يعرض في الأول المعنى الظّاهر لها، ثمَّ يحلّل في المرَّة الثانية على ضوئها دلائل الإيمان،

ويكشف ما فيها من أسرارٍ كونيَّة، ورموز تتعلّق بهذا العصر ودوره الحضاريّ.

ولم يكن بديع الزَّمان يكتب رسائله هذه إلّا نادراً، إذ كان خطّه رديئاً وكان يكتب بجهد.. فكان يملي أفكاره في حالاتٍ وجدانيَّة متأثّرة، على حين يُسجّل تلاميذُه من حولِه ما يقول في عجلةٍ وضبط، وربما أعاد النّظر فيها، وأجرى بقلمِه التّصحيح عليها إذا اقتضى الأمر ذلك.

أمَّا كيفيَّة انتشار هذه الرّسائل بين النَّاس، ففيها الأعجوبة الخارقة التي تكشف عن مدى ما تفعله عقيدة هذا الدِّين في نفس صاحِبها، إذ يتحوَّل فيها الضّعف إلى قوَّة، والجبن إلى شجاعة، والكسل إلى ثورة من الحيويَّة والنّشاط.

وكان مصطفى كمال قد أسفر إذ ذاك عن وجهِه.. فألغى جميعَ وجوه النّشاط الإسلامي، وفي مقدّمتِها الكتابة بالأحرف العربيَّة وما قد يتضمّنها من بحوثٍ وعلومٍ إسلاميَّة.

فكان سبيل جماعة النّور إلى نشر رسائل الأستاذ هو أن يأخذ كلّ فردٍ منهم على نفسِه نسخ ما يمكنه من النّسخ عن كلّ رسالةٍ تظهر، فإذا وزَّعها على القرّاء، كان على كلٍّ من هؤلاءِ أيضاً أن يقوم بالوظيفة ذاتها، وهكذا تتكاثر هذه الرّسائل في الأيدي عن طريق التّوالد المطّرد.

وكما تنتشر الدّوائر المتداخلة على سطح الماء إذ يقذف فيه بحجر، تنتشر هذه الرّسائل بسرعةٍ مُذهلة في مختلف البلدان والقرى والمجتمعات.

ولقد ظلَّ جماعة النّور قرابة عشرين عاماً ينشرون رسائل النّور بهذه الوسيلة، فقد كانت أيدي الشبّان والفتيات تقوم بما تعجز عنه الآلات الطباعيَّة، وكثيراً ما تعرّضت فتياتٌ للسّجن والتّنكيل، إذ ظهر للسّلطات

أنها تسهرُ اللّيالي الطّويلة وهي تنسخ هذه الرّسائل ثمَّ توزّعها في صناديق البريد أو في صفوف المدارس.

بديع الزمان في المنفى:

كانت رسائل بديع الزّمان وجماعته التي سرعان ما تكاثرتْ وعمَّتْ مختلف المناطق، أوّل عقبةٍ اعترضتْ طريق مصطفى كمال إلى المجتمع اللَّاديني، فأصدر أمره بسوق بديع الزَّمان إلى (بارلا) أحد منافي إسبارطة النَّائية، فقذف به إلى هناك وحيداً مُحاطاً برقابةٍ شديدة تحجزه عن الاتصال بأيّ إنسان. . ! ولكنَّه ما لبث أن أثّر على بعضٍ من حُرّاسِه فانقلبوا إلى أعوانٍ لمبادئه وأفكاره الإسلاميَّة، وهكذا أُتيح له أن يشتغل في منفاه ذاك بتصحيح رسائله التي كانت تأتيه من تلاميذه، وأن يُتابع اشتغاله بالرّدّ على سبُل الإلحاد.

مرّت على بديع الزَّمان في (بارلا) ثمانية أعوام، كان هو الذي يتولّى أثناءها صنعَ طعامه، وغسل ثيابِه، وإدارة جميع شؤونِه.

ولكن مصطفى كمال لم يكتف بذلك. . فقد كانت إشعاعاتُه الدِّينيَّة تتسرَّب إلى النَّاس، وكانت رسائلُه تظلّ تنتشر وتتكاثر. ولذلك فقد أصدر أوامره بنقلِه مخفوراً مع ١٢٠ من طلَّابه إلى سجن في (أسكي شهر)، ثمَّ أُحيل إلى المحاكمة بتهمة تأليف جمعيّةٍ سريَّة والعمل على قلب نظام الحكم!. . . وبعد تحقيقٍ طويلٍ لم يعثر فيه على شيءٍ يدين بديع الزَّمان حكمتْ عليه المحكمة بالسّجن أحد عشر شهراً.

ولبديع الزَّمان في هذه المحكمة دفاعٌ رائع تمنّيتُ لو اتّسعتْ صفحاتُ هذا الكتاب لنشره بكاملِه. ولكنّي أقتطع منه هذه الفقرات:

قال: «حضرات الحكّام: لقد جيء بي إلى هنا بتهمة أنّني رجعيٌّ أتخذُ من الدِّين سبيلاً إلى الإضرار بالأمن العام. وإنّني أقول: إنَّ إمكان عمل شيءٍ ما لا يستدعي وقوعه ولا المعاقبة عليه. فعود الكبريت يمكنه إحراق بيتٍ، ولكن هذا الإمكان لا يعني ارتكاب أيّ جريمةٍ.. إنَّ انشغالي بعلوم الإسلام لا يخدم إلَّا رضا الله تعالى، وحاشا أن يخدم أيّ غرضٍ غير ذلك...

لقد تساءلتم: هل أنا ممّن يشتغل بالطّرق الصّوفيَّة؟ وإنني أقول لكم: إنَّ عصرنا هذا هو عصر حفظ الإيمان، لا حفظ الطّريقة: إنَّ كثيرين هم أُولئك الذين يدخلون الجنّة بغير تصوّفٍ، ولكنَّ أحداً لا يدخل الجنّة بغير إيمانٍ.

وتقولون: من أين تأتي بالمال لجمع النَّاس من حولك في جمعيَّة؟ وإنني أسأل هؤلاءِ السَّائلين: ومن أين لهم الوثائق التي أثبتوا بها أنّني اشتغلتُ بجمعيّةٍ أو قمتُ بأيّ نشاطٍ يحتاج إلى المال؟

وتعترضون قائلين: إنني لستُ موظّفاً في ما أعمل فيه، وللتَّدريس مديريَّة خاصَّة ينبغي أن أتلقّى الإذن منها أوّلاً. ولكني أقول لكم: لو أنَّ أبواب القبور كلّها أُغلقت، وأعدم الموت من الوجود، لجاز أن ينحصر الإذن في دائرتكم، أمَّا وإنَّ ثلاثة آلاف جنازة تُنادي كلّ يوم نداء الموت، وتوقّع على حكمه، فإنَّ هذا يعني أنَّ ثمة وظائف وواجبات أُخرى أهمّ كثيراً ممَّا انحصر في دائرتكم وأحكامكم.

نفيه إلى (كاستامون):

ولم تكد تنتهي مدةُ سجنِه، حتى أُلقي به إلى ولاية (كاستامون)، وهي بلدة نائية تقع على شاطىء البحر الأسود، حيث فُرضتْ عليه الإقامةُ

في منزلٍ تجاه مخفر الشّرطة، ولكنّه حتى في هذه الحال ظلَّ يكتب البحوث والموضوعات الإسلاميَّة ويهيب بالمسلمين أن لا يتركوا دينَهم، ويصيح بالشبّان أن لا يعصبوا أعينَهم بعصائب الجهل بالإسلام وقرآنِه.. وظلّت النّشرات تنتقل سرّاً إلى أيدي تلاميذه حيث ينسخ هؤلاءِ منها العدد الكثير، ثمَّ ينقلونها إلى غيرهم عن طريق (بريد) رسميّ مؤلّف من تلامذتِه أنفسهم، وكان قد امتدَّ إشراقُ هذه الرّسائل إلى صفوف الجامعات ومعسكرات الجيش ودواوين الحكومة، فكانت رسائل النُّور تنبثُ في هذه الأماكن كلّها، بشتى الوسائل المختلفة.

وشعر مصطفى كمال بالزّلزال يسري في كيان حكومتِه، وأذهله ما تفعله هذه الرّسائل ـ وهي رسائل لا تتعرَّض للسّياسة بكثيرٍ ولا قليل ـ من تهديدٍ لحكمِه أو إضعافٍ لسلطانِه.

لقد تجلى أنَّ نور القرآن وحقائق الإسلام كافيان إذا تمكّنا من القلب لتدمير كلّ ما تخطّطه يد السّياسة والمؤامرات والكيد، فعقد مصطفى كمال اجتماعاً سريًّا دعا إليه كبار رجال الماسونيَّة الذين ساهموا مساهمةً فعّالةً في تقويض بناءِ الخلافة الإسلاميَّة، وبناء الحكومة العلمانيَّة على أنقاضها، انتهى باتّفاقهم على إحالة بديع الزَّمان مرّة أخرى للمحاكمة بتهمة تأليف جمعيَّة سرّيَّة والعمل على الإساءة لحكومة الثّورة، واتهام مصطفى كمال بالدّجال!..

وسرعان ما تألّفت لجنة من هؤلاءِ الماسونيّين أنفسِهم للتّحقيق في رسائلِه التي كانت قد وقعت تحت أيديهم.

ولكنَّ بديع الزَّمان أعلن رفضه لهذه اللجنة قائلاً: «إنَّ من لم يكن أهلاً للحقيقة لا يستطيع أن يحقّق في هذا الأمر...»،

وطلب استدعاء مَن يشاؤون من فلاسفة ومفكّري أوربا الحياديّين ليتولّوا هم هذا التّحقيق.

ولقد أُجيب إلى ذلك أخيراً، فعقدت لجنة أُخرى، انتهتْ من دراستِها لرسائله إلى أنها بحوثٌ دينيَّة مجرّدة لا علاقة لها بالحزبيَّة أو السّياسة. ولكنَّهم عادوا فاتهموه بالنزوع إلى الزّعامة الدِّينيَّة لمأربٍ سياسيّ خاصّ، بيد أنهم أخفقوا في إدانتِه بهذه التّهمة أيضاً، فقد كانت حياة هذا الإنسان أبعد ما تكون عن مظاهر الترف أو طريق الزّعامة والمجد.

وهكذا انتهت المحكمة التي وقف أمامها بديع الزَّمان ـ بعد توقيفٍ طويل ومماطلةٍ كثيرة ـ إلى تبرئة ساحتِه، وذلك بتاريخ ١٦/ ٦/ ١٩٤٤. ولقد كان كلّ حصاد الحكومة من وراءِ محاكمتِه، الأثر الكبير الذي خلّفه بيانُه الذي ألقاه في قاعة المحكمة، فقد سرى منه إلى أفئدة النَّاس تيَّارٌ ألهبها إيماناً وحماساً واستهانةً بكلّ نكبةٍ تأتي في طريق الإسلام ودعوتِه، ولم يعد السّجن بكلّ توابعه في نظر جماعة النّور التي زادت في ذلك التّاريخ على مليون نسمة ما بين رجلٍ وامرأة ـ مثابة ألم وتعذيب واضطهاد، بل (مدرسة يوسفيَّة) على حدّ تعبيرهم، يتشرّف كلّ مسلمٍ بدخولها ثمَّ التخرّج منها.

وإليك يا أخي القارىء جزءاً من هذا البيان الرّائع العظيم:

«نعم.. نحن عبارة عن جمعيَّة، وإنها لجمعيَّة تحوي في كلّ عصرٍ على أربعمائة مليون من الأعضاء المنتسبين إليها!.. وهم في كلّ يومٍ يعبِّرون خمس مرّاتٍ عن أتمّ علاقتِهم بالدّستور العظيم لهذه الجمعيَّة. وهم يتسابقون دائماً إلى تحقيق أهمّ شعائرها، ألا وهو ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فنحن من أفراد هذه الجمعيَّة المقدّسة العظيمة، وظيفتُنا

تعريف هؤلاء الإخوة المؤمنين بحقائق القرآن تعريفاً علميًّا راسخاً، وذلك تعاوناً منّا على إعتاق أنفسنا من سجن الأبديَّة الذي يتهدّدنا.

بأيِّ وجهٍ تستطيعون إيقاف حركة (رسالة النّور) وإنما هي عبارة عن خدمةٍ لحقائق القرآن، القرآن حقيقةٌ مرتبطة بعرش الله العظيم، ومنذا الذي يستطيع أن يتنطّح للوقوف في وجه حقيقةٍ ترتبط بعرش الله تعالى؟!..

إنّني لا أتوجَّه في بياني هذا إلى أعضاءِ هذه المحكمة فقط، بل إلى تلك الجماعة المتآمرة في إسبارطة أيضاً... إنّني لأعجب كيف يُتّهم أُناسٌ يتبادلون فيما بينهم تحيَّة القرآن وبيانه ومعجزاته، باتّباعهم للسّياسة والجمعيّات السّريَّة.. على حين يحقّ لمارقٍ مثل (الدكتور دوزي) أن يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحةٍ وإصرار، ثمَّ يُعتبر ذلك أمراً مقدّساً لأنّه حريَّة في الرّأي والفكر. هذه حريَّة في الرّأي والفكر، أمَّا نور القرآن الذي يأبى إلَّا أن يشعّ في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشّرّ والخبث والسّياسة!!

إنّكم تتهمونني بمعاداة الجمهوريَّة، ولكني أقول لكم إنني منذ كنتُ طالب علمٍ يُؤتى لي بطعامي من الخبز والحساءِ، كنتُ آكلُ نصيبي منه، ثمَّ أنثر ما بقي بين جماعاتٍ من النّمل كانت بالقرب مني، تقديراً لجماعتِها، وتقديساً لنظامِها وأخوَّتها.

إنّكم تستطيعون أن تعلموا من هذا مدى تقديري لحقيقة الجمهوريَّة الصّالحة، على أنَّ أكبرّ دليلٍ على تقديسي للجمهوريَّة هو احترامي لخلفاءِ الإسلام، فقد كانوا إلى جانب كونهم خلفاء، رؤساءَ جمهوريَّة أيضاً، ولقد كانت حياتهم حياةَ جمهوريّةٍ لا في الادّعاء اللفظي فقط، بل في الحقيقة والواقع.

أمَّا عن الجمهورية العلمانيَّة، فنحن نعلم أنها تلك التي لا تتعرَّض للدين في خيرٍ أو شرّ، ولكن ها أنتم أُولاءِ تفسحون الطّريق أمام كلّ جريمةٍ وفاحشةٍ خلُقيّةٍ وكذبٍ على الله والكون باسم الحريَّة الوجدانيَّة والفكريَّة، حتى إذا تنبَّهتم لآيةٍ من القرآن تفسّر وتُجلي حقائق الكون، رفعتم أصواتكم بالنّكير وقلتم: جمعيَّة سرّيَّة.. وسياسيَّة.. وخطورة!!..

إنَّ المسألة إذاً من الخطورة والإجرام بحيث تحاولون أن تستروها برداءِ العلمانيَّة التي تعتبر غاية العدالة بالنسبة لما تحتها. فإن كان الأمر كذلك، فاعلموا أنَّه لو كانت لي ألف روحٍ فأنا على استعدادٍ أن أضحي بكلّ ذلك في سبيل أهمّ حقائق الكون ألا وهو دين الله تعالى، وسأحتمي منكم بحصنٍ واحدٍ فقط، هو: حسبُنا الله ونعمَ الوكيل.

إنَّكم تدورون ثمَّ تقولون: إنَّ أعمالي الدِّينيَّة ما هي إلَّا استغلالٌ ووسيلة للإخلال بالأمن، ولكنّي أقول لكم بالمقابل: إنَّ دعواكم هذه ليست إلَّا استغلالاً ووسيلةً لإعدام الدِّين باسم المحافظة على الأمن!.. إنكم تعلمون أنَّ رسالة النّور تضيءُ منذ عشرين عاماً، فهل سجّلتم منذ ذلك اليوم إلى الآن حادثةً واحدةً أخلّت بالأمن؟

إذاً فإنَّ تلك المادّة ذات الرّقم ١٦٣ ما هي إلَّا عبارة عن كرةٍ تقذفون بها إلى حيثُ أردتم، وما إرادتكم إلَّا معاداة الدِّين. إذاً فاسمعوا يا من بعتم دينَكم بدنياكم، وتنكَّستم في الكفر المطلق، إنّني أقولُ بمنتهى ما أعطاني الله من قوّة: افعلوا كلّ ما يمكنكم فعلُه، فغاية ما نتمنّاه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقةٍ من حقائق الإسلام.

نحنُ في كلّ لحظةٍ ننتظر أحكام إعدامكم، إنَّ السّجن الخارجيَّ على هذه الحال أسوأ مائة مرَّة من ذلك السّجن الدّاخليّ.

وتقولون: لماذا لا تلبس قبّعتنا منذ عشرين عاماً مرّةً واحدة.. ولم تكشفْ على رأسِك تحيّةً لمحكمتِنَا مرّةً واحدة، مع أنَّ سبعة عشر مليوناً انسجموا مع هذا اللّباس؟..

وإنَّني أقول: ليسوا سبعة عشر مليوناً.. ولا سبعة ملايين، بل ولا يوجد أقلّ من القليل لبسوها بمحض اختيارهم، اللَّهُمَّ إلَّا حفنةٌ من الحمقى الذين يلهثون وراء رذيلة أوربّا وانحطاطها.

إنَّ مثلي ممَّن ترك الحياة الاجتماعيَّة منذ خمسٍ وعشرين سنة، لا يُقال عنه في هذا مخالفٌ أو مُعاند، وافرضوا أنَّه عناد، فما دام أنَّ مصطفى كمال بنفسِه لم يقدرْ أن يكسر عنادي، وأنَّ محكمتين وحكومةَ ثلاث ولاياتٍ لم تستطع التّأثير عليّ، فما أنتم وخطبكم حتى تُضيعوا الوقتَ في هذا العبث؟[1].

قرَّرت المحكمة براءة بديع الزمان، ولكنَّه ظلَّ معتقلًا في سجنه، وبعد فترة صدرت الأوامر بنفيِه إلى ولاية (آفيون) في قضاء (أمير ضاغ)، حيث وُضع مرَّة أُخرى تحت الترصُّد والرَّقابة الشديدة، لدرجة أنَّه لم يكن بوسعه الاتّصال بمخلوقٍ، ولا كتابة أيّ كلمة.

ولكنَّ أعاجيب قضاءِ الله تعالى تأبي إلَّا أن تسخر من تدبير الطّغيان البشريّ، لقد استطاعت فئاتٌ من طلّابِه رغم هذا أن تتصل به، ولكن أوّلُ هذه الفئات بعضاً من أعضاءِ وهيئة المحكمة التي حُوكم أمامَها. فقد كان لبيانِه الذي ألقاه أمامهم ورسائله التي اطّلعوا عليها، ما جعلهم يُصبحون في فترةٍ وجيزةٍ من أبرز تلامذتِه وأشدّهم حماساً لدعوة الإسلام!..

(١) من نص بيان بديع الزمان بعد أن ترجمته من التركية إلى العربية.

ظلَّ بديع الزَّمان مبعداً في منفاه هذا حتى أوائل عام ١٩٤٧، تترصَّده الجنود لا يستطيع أحدٌ الاتّصال به إلّا خلسةً. ولكنَّ الحكومة بعد ذلك أذنتْ لطلَّابِه بالاتِّصال به، كما سمحتْ بطبع رسائِله على الآلات الكاتبة ومختلف وسائل الطِّباعة، وذلك بمناسبة التَّسهيلات التي أدخلتْها الحكومة إذ ذاك على قانون أتاتورك فيما يخص الثَّقافة والنَّشاط الدِّيني. وكان هذا بضغطٍ من جماعة النّور التي اكتسحتْ إذ ذاك كلَّ شيءٍ حتى كثيراً من مرافق الدَّولة نفسها!..

أمَّا الذي دفع هذه الجماعة إلى الضَّغط على الحكومة في ثورةٍ لاهبة، فرسالة من رسائل بديع الزَّمان، وجّهها من منفاه إلى الحكومة عن طريق جماعته، يستنكر فيها حجز حريته البشريَّة بدون سبب، رغم البراءة التي صدرتْ بحقّه من ثلاث محاكم. وهو يقول في هذه الرّسالة:

«هذه أفكار أبعثها عن طريقِكم إلى أسماع أنقرة ومَن فيها: إذا كان الحاكم والمدعي واحداً فلمَن تُرفع الشَّكوى؟ لقد حرتُ طويلاً في هذه المشكلة!.. أجل إنَّ حالتي اليوم وأنا طليق مراقَب أشدَّ عليَّ بكثيرٍ من الأيَّام التي كنتُ مسجوناً فيها.

إنَّ يوماً واحداً من هذه الحياة يضايقني أكثر من شهرٍ كاملٍ في سجني المنفرد ذاك. لقد مُنعتُ رغم ضعفي وتقدّمي في السِّنِّ في هذا الشتاء القارص من كلِّ شيء، هذا على أنّني منذ عشرين سنة أُعاني مأساة حبسٍ منفرد، وإنَّ استمرار هذا العذاب أكثر من هذا القدر ليهدّد بعذابٍ إلهيٍّ عام.

إنني أقول: إنَّ أهمَّ وظيفةٍ إنسانيةٍ لهذه الحكومة هي حفظ حقوقي التي لا يستطيع أحدٌ إنكارها، ذلك لأنها اضطرّت بعد مراقبةٍ دامت تسعة أشهرٍ لما كتبتُه في ظرف عشرين سنة، أن تعترف ببراءته. ولكن هناك أيد

خفيَّة ـ لكي تخدم النّفوذ الأجنبيّ والضّرر الوطني والدِّيني ـ لا تُبالي أن تتّخذ من الحبّة قبّة في سبيل تجريمي وإسكاتي!.

وهناك غايةٌ واحدة لهم: هي أن ينفد ما لديّ من صبر ثمَّ أقول: حسبي هذا القدر.

نعم.. إنَّ تجريدي من حقوقي الإنسانيَّة كلّها ـ بعد هذا كلّه ـ إنما هو خطّة تتّسم بأشدّ أنواع الظّلم...

لقد سمعتُ أنَّ المسؤولين عهدوا إلى حكومة هذه المنطقة مسؤولية إعاشتي الدّنيويَّة، إنني أشكر هؤلاءِ النَّاس، ولكني أُعلن لهم أنَّ حرّيتي في أداء واجبي هي أهمّ من كلّ شيء، فهي أوّل ركنٍ من دستور حياتي.

إنَّ إقصائي عن حريتي بحبائل الأوهام الكاذبة يجعلني أملُّ حياتي مللاً شديداً مهما اكتنفها من مغريات العيش، لا أقول الحبس أو السّجن، بل إنني لأفضّل ذلك القبر المظلم على هذه الحالة.

غير أنَّ هذا كلّه حينما يكون في سبيل دعوتي التي هيأتني الأقدار لها، يعطيني مزيداً من الصّبر والثّبات على هذه الحالة.

إنَّ على هؤلاءِ الذين يقولون إنهم لا يُريدون الظّلم بحقّي، ويحكمون ببراءتي أن يردّوا عليَّ قبل كلّ شيءٍ حرّيتي، وأن لا يدنوا إليها بسوءٍ. إنني أعيش بدون طعامٍ، ولكني لا أعيش بدون حرّيَّة.

نعم إنَّ ذاك الذي عاش طوال تسع سنواتٍ على مبلغٍ لم يزد على ٢٠٠ ليرة تركيَّة دون أن يعرّض نفسه معها إلى ذلّ الصّدقة والمسألة والتعرّض للزكوات والهدايا، لا ريب أنَّه اليوم أحوج إلى الحرّيَّة منه إلى العيش.

ولكني أقول: إنَّ ممّا يُعيضني عن عشرةٍ من النَّاس يحال بيني وبينهم أنَّ مليوناً من المسلمين يعكفون على دراسة رسالة النّور التي انتشرت فيما بينهم. إنهم إن استطاعوا أن يُسكتوني أمام النَّاس، فلن يستطيعوا إسكات رسائل النّور التي تصل إلى شغاف القلوب. إنَّ كلَّ نسخة منها تقوم مقامي في الكلام والبيان، ولن تسكتها أيّ قوّةٍ على الأرض».

المحاكمة الرَّابعة لبديع الزمان:

لم تكد الحكومة التركيَّة تأذن لجماعة النُّور بالاتِّصال برائدهم، وبطبع رسائلِه وكتبِه، حتى راحتْ حركة (النّور) تكتسح جهات البلاد التركيَّة، وانطلق إشعاعُها إلى ما وراء ذلك كالباكستان والهند.. وأصبحتْ رسائل بديع الزمان تنتشر في كلّ بلدةٍ وسوقٍ ومسجدٍ ومدرسةٍ وجامعة، بل كثيراً ما كانت آلاف النّسخ منها تتمطّر فوق رؤوس النَّاس بواسطة إلقائها من الطَّائرات عن طريق ضبّاطٍ ينتمون إلى حركة النّور.

فعاد الجزع يستبدّ من جديدٍ بأفئدة السّلطات، فقد رأوا أنَّ التّيار سيكتسحهم لا محالة، وشعروا أنَّ دائرة الإلحاد واللَّادينيَّة يتنقص من أطرافها بسرعةٍ مُذهلة، وأنَّ الواجهة الثقافيَّة والفكريَّة للشّعب التركي من علماء وأدباء ومفكِّرين وأساتذة جامعات ينضوون تباعاً تحت لواءِ هذه الدّعوة بحماسٍ منقطع النّظير.

فما كان منهم إلَّا أن انقضّوا مرّةً أُخرى على بديع الزَّمان، حيث ألقوا القبض عليه مع ثلّةٍ كبيرةٍ من أبرز أتباعِه، ثمَّ ما لبثوا أن أحالوهم إلى محكمةٍ جزائيةٍ كبرى في ولاية آفيون بالتّهم السَّابقة ذاتها، وذلك عام ١٩٤٨.

وضيّق الخناق على سعيد النّورسي هذه المرَّة في سجنه أكثر من أيّ وقت مضى، فقد زجَّ به في زنزانةٍ لا تتّسع لأكثر من فراشٍ صغيرٍ قذر،

يعوم وسط رطوبةٍ عفنةٍ باردةٍ، أمَّا طعامُه فلم يكن أكثر من قدح ماءٍ وكسرٍ من الخبز اليابس تقدَّم له مرَّتين في كلّ يوم. ومع ذلك فقد دسّت له السّلطات في إحدى هذه الوجبات سمًّا ناقعاً للتخلّص منه بدون أن تعرّضهم محاكمته لنقمة الملايين من المسلمين، ولكن أعاجيب لطف الله خيّب آمالهم في ذلك.

وكانت محاكمته هذه المرَّة أهمّ أحداث عام ١٩٤٨ في تركيا، فقد علّقت الصّحف والمجلّات أنفاسَها، لتستمع إلى بيان بديع الزَّمان وإلى ما تنتهي إليه هذه المحاكمة، ولقد سجلّت فيما بعد، وقائع هذه المحكمة مع بيان بديع الزَّمان، وبيانات بقيَّة طلّابه الذين حوكموا معه في كتابٍ ضخمٍ، بعنوان: محكمة آفيون الجزائيَّة.

وكان الحكم الذي أصدرته هذه المحكمة بحقّ بديع الزَّمان هو السّجن مدّة عشرين شهراً، غير أنَّ ثلّةً كبيرةً من المحامين والقضائيّين أعلنوا عدم شرعيَّة هذه المحاكمة بسبب أنها انبنت على نفس التّهم التي حوكم بديع الزَّمان قبل ذلك بسببها. وما دامت الأحكام السَّابقة قد أعلنت عن براءتِه من هذه التّهم فلا يجوز تجريمه بعد ذلك بها. وهكذا أُحيلت القضيَّة إلى محكمة التّمييز، ولكنَّ السلطات ظلّت تماطل في النّظر في الحكم إلى أن انقضت المدَّة التي حُكم عليه بها، وقد كان هذا هو كلّ قصد الحكومة: أن يُحجز بديع الزمان عن النَّاس ويجمّد نشاطه ونشاط أتباعه.

وفاته:

عاش بعد ذلك بديع الزَّمان بقيَّة عمره منعزلاً عن النَّاس، في مدينة (إسبارطة) إلى أن كان قبل وفاتِه بثلاثة أيَّام. حيثُ اتجه مع بعضٍ من تلامذتِه في سيَّارةٍ صغيرة إلى أورفة، دون أن يستأذن من السّلطات، فقد كان محجوراً عليه التنقّل من بلدةٍ إلى أُخرى.

وقبل أن تدخل بهم السّيارة مدينة أورفة عارضتهم قوّةٌ من الجيش وأمرتهم بالعودة إلى المكان الذي قدموا منه. ولكنَّ بديع الزَّمان قال لهم في هدوءٍ دون أن يتحرَّك من داخل السيَّارة: يبدو أنني لن أستطيع الإجابة إلى طلبكم، ولكنّي أُؤكدّ لكم أنّي لن أبقى في أُورفة أكثر من يومين، فخلَّت جماعة الجيش عن طريقه، ودخل أُورفة.

وبعد يومين فقط من دخولِه إليها، أعلن العالم الإسلامي وفاة بديع الزَّمان، بتاريخ ٢٧ رمضان عام ١٣٧٩هـ.

أبرز خصائص بديع الزمان:

ـ كان سعيد النّورسي، لا يكتب إلّا بصعوبةٍ وجهد، ولذا فقد كان في أكثر أحيانِه يسجّل كتبه ورسائلَه بواسطة الإملاء.

ـ لم يتزوَّج بديع الزَّمان، وعاش كلّ حياتِه عزباً، وحينما سُئل عن سبب اختياره لحياة العزوبة أجاب: إنني لا أستطيع أن أقوم بواجبات الزّوجة على ما أنا فيه من حياة القلق والاضطراب. ولقد صدق بديع الزَّمان، فلقد عاش حياةً كلّها عزلة وانفراد، ونفي وسجن.

ـ عاش بديع الزّمان عمره كلّه مبتعداً عن الصّدقات والزكوات والهدايا من أيّ مصدرٍ كانت.

ولقد جاءه مرَّةً وكيل وزارة المعارف الباكستانيَّة بهديّةٍ من المال الوفير، فاعتذر عن قبولها قائلاً: إنّك تحملني بذلك على الإخلال بقاعدتي التي التزمتها في حياتي. إنَّ من أهمّ التّهم التي توجّه في هذا العصر إلى أهل العلم ودعاة الإسلام، جمع المال من النَّاس، وإنني مدعو ـ بما أقامتني الأقدار فيه من هذه الوظيفة ـ إلى محاربة هذه التّهم بالتزام رفض أيّ مال يأتيني من أيّ إنسان.

وحينما دعاه وكيل وزارة معارف باكستان إلى الهجرة إلى باكستان، حيثُ سيجد هناك تقديراً أكبر لعملِه ودعوته ويعيش في نجوةٍ من هذا العذاب الذي يعانيه، أجابه:

إنَّ الدّاء الذي دبَّ إلى جسم العالم الإسلامي، إنما نبع من هذا المكان بالذّات، ولا جدوى من أيّ محاولةٍ تكون بعيدةً عن مكمن الدّاء. إنَّ الفساد الذي ينتشر اليوم في العالم الإسلامي إنما انطلق من هنا، حيث الخطط الصّهيونيَّة، والمؤامرات الماسونيَّة، وإنَّ من الخيانة أن أهرب من وجه هذا كلّه إلى مكانٍ آخر.

ـ كان يلحّ على جماعة النّور أن لا يربطوا حركة النّور ورسائله باسمه، قائلاً: إنَّ هذا ظلمٌ كبيرٌ للحقيقة، إنَّ الحقيقة الخالدة لا يمكن لها أن تتأسّس على كاهل شخصٍ. يجب أن تعلموا أنّني مجرّد دلّال أُنادي على بضاعة القرآن ومعجزاته الموجودة بين يدي الإنسان في كلّ عصر.

إنَّ من أكبر الخطأ اتخاذي مظهراً، أو قائداً لعمل هذه الرّسالة، إذ إنَّ شخصي معرّضٌ دائماً للتّهم والنّقد والهجوم والإيذاء، وفي ذلك ما يُضعف من قيمة رسالة النّور نفسها عندما تُقرن بي على أنّني الموجد لها، والمبدع لحقيقتِها. لا تربطوا رسالة النّور بشخصي الفاني لئلا تضرّوها بذلك، ولكن اربطوها بمنبعِها الأصيل، فهو بعيدٌ عن أيّ متناوَل.

رسالة النور وعلماء الشّام:

كان من وصايا بديع الزّمان التي خلّفها بين رسائِله قوله: ابعثوا بتحيَّاتي وسلامي إلى أُولئك الفطاحل من علماءِ الشّام. وتلطّفوا بالرّجاءِ إليهم أن يعتبروا عمل رسالة النّور هنا فرعاً متواضعاً لمدرستِهم ودعوتهم الإسلاميَّة هناك! وليحوطوها بما يتكرَّمون به من عنايتهم ومساعدتهم

وتأييدهم لا من أجل هذه المنطقة وحدها، بل من أجل إنقاذ الإسلام في كلّ بقاع الإسلام[١].

خاتمة وتعليق:

والآن، وقد انتهيتُ إلى آخر سطرٍ من ترجمة هذا الرّجل العظيم، أشعر أنّه قد آن أن ألتفت إلى السَّادة علماء الشّام الذين أرسل إليهم بديع الزمان تحيّته ورجاءَه في آخر يومٍ من حياته، لأقول لهم بلسان كلّ مسلمٍ في هذا البلد.

ألم يأن يا حضرات السَّادة أن تطووا من بينكم بساط هذا التفرق والخلاف، لتفرغوا للسّير في سبيلٍ يشبه تلك التي سار فيها من قبلكم بديع الزَّمان وتلامذته الأبرار؟!

لقد شخصت عيون النَّاس وهي تتطلّع إلى يوم انطلاقتكم، ولقد يبست منهم الأعناق وهي تشرئبُّ منتظرةً ساعة جهادكم، ولقد ذبلت الآمال وهي تصبر على مرارة الأيَّام القاتمة، فمتى يا حضرات العلماء، متى تحين ساعة الصّفر.. ساعة الاستجابة لرجاء بديع الزَّمان..

أستغفر الله، بل الاستجابة لأمر الله تعالى وواجباته؟؟!

❑ ❑ ❑

---

(١) كان بديع الزمان قد جاء إلى دمشق في عصر الاتحاديين وألقى خطاباً رائعاً في المسجد الأموي عُرف فيما بعد بالخطبة الشامية.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني: أدب واجتماع

الموضوع	الصفحة

القسم الثالث: كتب وشخصيات

